



خمسة آلاف سنة من

تاريخ الصين

المجلد الثالث

خمسة آلاف سنة من
تاريخ الصين

المجلد الثالث

خمسة آلاف سنة من
تاريخ الصين

المجلد الثالث

تحرير
نبيل السردوك

ترجمة
شركة المأمون للترجمة

荣寰





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الاصل الصيني

Five Thousand Years of Chinese Nation (Volume 3)

Written by Han Xing'e, Guo Chunfeng

Translated by شركة المأمون للترجمة

Original Title: 中华上下五千年（全3册） / ISBN: 978-7-210-08139-5

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2019 م – 1441 هـ

ردمك 978-614-02-3835-0



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb
facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

التنضيد وفرز الألوان: أبـجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

المحتويات

131

لى كونكسين: إمبراطور تانغ جوانغزونغ

لم يمض على تأسيس إمبراطورية تانغ إلا ما أزيد من 200 سنة حتى قامت قيامتها وحل عصر خمس أسر وعشر دويلات.

لنقم بتعريف موجز لهذا العصر الذي يحمل اسم خمس أسر وعشر دويلات. فقد أقام جو وون إمبراطورية حوليانغ قبل أن تحل محلها إمبراطورية حوتانغ. تعاقبت الأسر الحاكمة وتواترت على هذا المنوال في الأراضي الصينية دون أن يدوم حكمها طويلاً. أعقبت إمبراطورية حوتانغ ثلاث أسر حاكمة أخرى هي ما يدعى حوجين وحوحان وحوجو. لذا، يطلق على عصر هذه الأسر اسم عصر الأسر الخمس.

أما الدويلات العشر فيقصد بها المنطقة الجنوبية وإقليم سيتشوان حيث أقام الولاة الذين استأثروا بالسلطة المحلية دويلاتهم العشر، بما فها تشانشو ووو ومين وووبو وتشو ونانهان ونانبينغ وحوشو ونانتانغ، إضافة إلى دولة بيهان الواقعة بالشمال. كانت هذه الدويلات تنزوي في جهة من جهات بلاد الصين طوال عصر تتتابع فيه الأسر الخمس، البعض منها دامت لمدة أطول والبعض أقصر.

إن الأسر الخمس والدويلات العشر باختصار امتداد لحالة التشظي التي سادت إمبراطورية تانغ في عهدها الأخير. حتى إذا ما تحطمت الإمبراطورية التي كانت قد وصلت إلى ذروة العمران، لم تعد هناك سلطات قوية قادرة على توحيد الصفوف من الانشقاق إذ تعاقبت الأسر في غضون خمسين سنة وكان الشعب يرزح تحت وطأة الحروب.

أطاح جوون إمبراطور تانخ جاوتشوان ونصب نفسه أول إمبراطور لدولة ليانغ عاصمتها بيانجنينغ سنة 907. على رغم من ذلك، إلا أن مناطق نفوذه كانت محدودة للغاية. إلى جانب جوون،

هناك في أرجاء البلاد قوى إقليمية كبيرة كانت أو صغيرة. كان من بين أبرز الولاة ليو رينجونج بيوجو ولي كه يونغ أمير جين.

ظلت هنالك خلافات بين لي كه يونغ وجوون إذ كان الأخير يريد مقاومة الأول بالاشتراك مع ليو رينجونج إلا أنه لم يتوقع نزوات ليو وتعلقه بجوون. كان لي كه يونغ إخوة القسم مع أمير يلوآباوجي لقومية أيلو، إلا أن الأخير قد لاحظ صعود دولة حوليانغ فتواطأ معها وتخلى عن حليفه الأصيل مما أضرم نيران الحقد في نفس لي كه يونغ.

لم يقض طويلاً حتى اشتد به المرض العضال. قبل أن ينتزع روحه كان قد دعا ابنه لى كونكسين إلى فراشه الأخير وحكاه أن دولة ليانغ خضمي وغريمي. إن أمير ليو رينجونج وصل إلى ما هو عليه اليوم من النفوذ بالاعتماد على أنا ويلوآباوجي كان إخوة الدم لي إلا أنهما قد خاناني. إن نار غضبي لن تهدأ وإن كنت سأموت حتماً. والآن سأوكل لك ثلاثة سهام، لعلها تذكرك الانتقام منهما نيابة عني.

فحفظ لى كونكسين وصية أبيه عن ظهر القلب.

منذ ذلك الوقت، اعتكف لي على تدريب المجند وتسليح الجيش وفي كل المعارك المتتالية التي انخرط فيها مع جووين دائماً ما أخذ معه السهام الثلاث لأبيه، حتى إذا ما انتصر رجع إلى معبد أبيه بالسهام. ظلت تتوقد في قلب لي نار الحقد وقهر جو في كل المعارك، أما الأخير فمنيت بانكسارات متعاقبة ولفظ أنفاسه الأخيرة في عجز وحرمان. بعد ممات جووين خلف عرشه الإمبراطور ليانغ مو دي ودخل في عراك مع لي لمدة تزيد على عشر سنوات حتى استطاع لي اجتثاث دولة ليانغ الإمبراطورية بالكامل سنة 723 كما استطاع القبض على ليو وين زونغ فيما بعد. سنة 916، تمكن من قهر جيش الاحتلال التشداني الذي اقتحم صوب الجنوب.

أخيراً تكلل الانتقام بالنجاح.

جرى تنصيب لي كالإمبراطور الجديد سنو 923 وقد غير اسم الدولة إلى دولة تانغ وهي ما تعرف بدولة تانغ المتأخرة في التاريخ. إن لي تسون شيو هو من يعرف في التاريخ بهو تانغ جوانغ زونغ. بعد التنصيب صار نفوذ الإمبراطور الجديد تتمدد إلى أرجاء البلاد فعاش تنفيساً للضغط الذي كان يتكدس في ذهنه وشرع في اللهو والعبث. بما أنه كان يحب المسرحية منذ الصغر حتى يغني

فيها أحياناً، بات يغرق في العبث مع المغنين وأحال قضايا الدولة جانباً دون اعتبارها. الجدير بالذكر أن الذي يغني في المسرحية الصينية القديمة كان يطلق عليه اسم لينغ رين.

بعد أن عامله المغنّون لمدة طويلة وعرفوه جيداً، عملوا على بث بذور الخلاف وتدخلوا في سياسة الدولة. كان من بينهم مغني اسمه جينغ جين وكان أحب مغن عنده. إنه قد صار عميلاً سرياً يراقب الوزراء حتى اضطروا إلى التوسل معه فغاب أمام الإمبراطور.

إن تدليل الإمبراطور للمغنين قد وصل إلى حد أنه لا يبين الصواب من الخطأ.

حتى أنه ذات مرة أراد تعيين اثنين من المغنين كولاة للمقاطعة. كان هناك من يسدي نصيحة للإمبراطور بأن هذين المغنين صارا وزيرين دون أن يفعلا شيئاً إلا أن الجنود الذين نثروا دماءهم في ميدان الحرب لم يتلقوا أية مكافأة. إنه سيثير الحسرة لدى الجموع. إلا أن الإمبراطور لم يراع نصيحته وأثار امتعاض الوزراء خاصة ابنه بالتبني لي سي يوان. إنه لم يقتنع به أصلاً فخطط للانقلاب عليه سرياً.

فدخل لي مدينة بيان جينغ بجيشه وكان وزراء الدولة يدعمونه في التنصيب.

كان الإمبراطور تانغ جوانغ زونغ مقيماً في مدينة لويانغ. عندما بلغه هذا الخبر عرف أن عهده قد انتهى، إلا أنه لا يقبل هذه النتيجة فكفل قائد الجيش الملكي قو تسونغ تشيان لغزو بيان جينغ إلا أن هذا الأخير كان يبطن حقداً تجاه الإمبراطور إذ إن عمه كان قد قُتل على يد الإمبراطور. تمرد قو تسونغ تشان واجتاح القصر الإمبراطوري وأنهى حياة الإمبراطور الذي هم بالفرار بسهام واحد. بعد ممات الإمبراطور تانغ جوانغ زونغ تولى لي سي يوان السلطة ويعرف باسم تانغ مينغ زونغ.

يمكن انقسام حياة لي تسون شيو إلى مرحلتين: مرحلة الارتقاء ومرحلة الانحطاط، أو مرحلة الحكمة ومرحلة الحماقة. وقد سجل الأديب أويانغ شيو في كتابه الشهير ((سيرة الوزراء المغنين في عصر الدويلات الخمسة)) ولم يتمالك أن يتأوه: إن الهموم والجزع تمكن الدولة من الازدهار والعمران أما الدعة والعبث فيتحتم على من يغرق فيهما الفناء والممات. إن هذا من طبيعة التاريخ. عندما بلغ نفوذ لي ذروته كان أمراء الدولة لا يسابقونه. أما إذا حل الانحطاط والتدهور كان هناك عشرات من المغنيين أوقعوه في متاهة لا يهتدي فيها إلى المنفذ، حتى إذا لفظ أنفاسه الأخيرة

سقطت دولته. إن المحن يتسبب فيها الصغائر التي لم تلفت الانتباه والإنسان مهما كانت بسالته وبطشه أبداً سيقع في مأزق إذا غالى في اللهو، ولو حتى ذلك مجرد الغناء.

في كثير من الأحيان يحتاج الملوك إلى كبت الشهوات، لأن الانسياق لأية رغبة من الرغبات قد يؤدي إلى الفوضى العارمة. فاعلم أن الإمبراطور فقط بلب شهوته للمسرحية قد أثار خيانة قادته ووزرائه وأنهى حياته بسهام.

132

اكتفى شي جينغ تانغ بأن يكون الإمبراطور الابن

في نوفمبر 934 الميلادي تخلى شي جينغ تانغ عن الولايات الست عشرة الشمالية للتشيدان.

وقتذاك ما كان يعرف العواقب الخفية التي زرعها لأكثر من 300 سنة، كما لا يدري كم قصص تاريخية ستحدث بسبب قراره. من المحتمل للغاية أنه لن يغير رأيه ولو كان قد علم ذلك. لأن مصالح الدولة لا تعني شيئاً مقابل الاستقرار والعمران المؤقت.

فالبعض لا يبالي بشتيمة الأجيال القادمة.

الولايات الشمالية الـ 16 عبارة عن المناطق المعروفة حالياً ببكين وتيانجينغ ومقاطعة شانشي وخبي. تتوزع هذه المناطق إلى الجنوب من سور الصين العظيم. لقد تحدثنا عن إمكانية السور الدفاعية لكنها تحتاج في نهاية المطاف إلى تحصن الجنود مهما كانت صلابته. مع إحالة هذه المناطق إلى يد تشيدان فقد استولت الأخيرة على المناطق المحاذية للسور الذي يمتد لآلاف الكيلومترات. مذ ذلك الوقت خضعت المناطق الوسطى لاغتصاب الجيوش دون موانع ومعاقل يتحصن بها. ممكن التصور كيف صارت المعاقل التي بنيتها لمنع العصابات باتت معاقل تتحصن بها العصابات نفسها؟

والآن لننتقل إلى الحديث عن سبب تخليه عن الأراضي.

فقد أشرنا سلفاً إلى تولي الإمبراطور تانغ مينغ زونغ للسلطة. وقتذاك لم يستقر الأمن في بلاط الإمبراطور حيث كان اثنان من أصحاب النفوذ يتصارعان من وراء الطاولة. كان الواحد منهما ولي العهد لي تسونغ كه، والآخر صهر الإمبراطور شي جينغ تانغ وهو محافظ لمنطقة تعرف

اليوم باسم شانشي. حتى إذا ما توفى الإمبراطور تانغ مينغ زونغ ووصل ابنه إلى سدة الحكم أعلن شي جينغ تانغ معارضته للسلطة.

من أجل القضاء على شي أرسل لي تسون كه عشرات الآلاف من الجنود إلى مدنية جين يانغ حيث أقام فيها شي. رغم بطش الأخير وتفننه في القتال إلا أنه كان يعاني من قلة الجنود بحيث كان لا يستطيع الدفاع عن الهجمات المتتالية وقد استنفدت به السبل. حينئذ أسدى سانغ وي هان أحد كتابه نصيحة الخشوع لسلطة تشيدان لإدخال جيشها واستئصال جيش لي تسون كه.

وافق شي وعمل بنصيحته.

فكتب سانغ نيابة عن شي رسالة أشار فيها إلى إحالة أراضي الولايات الـ 16 الواقعة إلى الشمال من معقل يانمنقوان إذا تمت الأمور بالنجاح، إلى جانب الدين بالولاء لسلطان تشيدات باعتباره أباه. عندما وصل الخبر إلى وزير البلاط ليو جي يوان كان يعارضه على خط مستقيم. برأيه أنه من غير المناسب أن ينادي شي جينغ تانغ ملك تشيدان الذي كان يصغره عشر سنوات بالأب. ومن غير المناسب التخلي عن الأراضي.

كان عدد كبير من الوزراء يشاركونه في هذا الرأي.

إلا أنه بعث رسولاً إلى ملك تشدان يلودقوانغ سرياً رغماً عن اعتراض الوزراء. ذلك مجرد لأجل رد جيش لي تسونغ كه الكبير. أما الملك فقد اغتبط برسالة شي إذ ظل بنيته احتلال المناطق الوسطى. فقرر قيادة جيش بشخصه إلى مدينة جين يانغ. إذا ما تعرض جيش الإمبراطور لضربات من جيش تشدان من الخارج وجيش شي من الداخل انهزم انهزاماً ذريعاً.

استقر الملك بجيشه خارج مدينة جين يانغ وقد قابله شي جينغ تانغ. فقد كان ينحني ويركع ويتوسل إلى ملك تشدان. عندما لاحظ الملك مدى انصياع شي له فسرّ به ومنحه صفة الإمبراطور. بعد تنصيبه قدم الولايات الـ 16 إلى ملك تشدان واستعان بها لاقتحام العاصمة لويانغ. فزع لي تسون كه بالخبر وأمر بإغلاق بوابة المدينة. رغم أنه قد أرسل عدة قادة لمحاربة شي إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع. علم لي أن قواه العسكرية ناقصة وأن المدينة محاصرة بجيش ضخم بحيث يتعذر عليه الفرار فأحرق القصر وانتحر فيه.

بعد القضاء على إمبراطورية ليانغ المتأخر أقام شي عاصمة دولته في بياجينغ وبدل اسم الدولة بجين. في بياناته الحكومية نادى شي ملك تشدان الإمبراطور الأب أما هو فمن طبيعة الحال أن يكون الابن. استحياه وزراء البلاط إلا أنه يتعامل معه بعدم المبالاة. وكاد خشوعه لبعثات تشدان يصل إلى ذروته.

لم يبق على السلطة إلا سبع سنوات حتى توفى وتولى ابن أخيه الإمبراطور وهو من يعرف بإمبراطور جين تشو دي.

في رسالته إلى ملك تشدان أعلن الإمبراطور الجديد أنه لن يدين بالولاء له فأثار غضب الملك واعتبر ذلك مخالفة سافرة فبعث جيشاً للاقتتال إلا أنه مني بمقاومات شرسة من قبل جيش الدولة وشعبه، وقد استطاع رد جيش تشدان عدة مرات. لكن في نهاية المطاف تمكن تشدان من إقحام مدينة جين تشانغ وتم اعتقال الإمبراطور وسقطت الدولة.

وقت ولوج جيش نشدان إلى المدينة استباح الملك السلب والنهب وما كان الشعب ليتحمل إزعاجاتهم البلطجية فاحتشد للرد على جيش تشدان. مني تشدان بخسائر فادحة فقرر الملك الانسحاب على مضض.

الجدير بالذكر أن سنة دخول ملك تشدان إلى مدينة جين يانغ غير اسم الدولة بلياو وقد مضى ذلك على تنصيبه 31 سنة فلنذكر دولة لياو لأن هذا الاسم سيظهر لمرات متناثرة في القصص التاريخية وسيلقي هذا الاسم ظلالاً لا تمحى على قلوب الملوك والوزراء والشعب.

133
أسبق الإمبراطور جو شي زونغ جنوده للقتال

نعلم أن عصر الدويلات الخمس يمثل زمن الانقلابات وتتالي الحروب عبر عشرات السنين. إنه من أكثر الحقبات التاريخية ظلماً واضطراباً حيث كان يكابد الشعب قسوة الحرب والتشرد واحتمال الموت في أية لحظة. أما الجنود الذين توفروا على القوة للدفاع عن أنفسهم فلا مناص من القتال في أرجاء المعمورة. متى سيحل السلام مجدداً؟

هذه هي التساؤلات والآلام عند كثير من الناس آنذاك.

في زمن الفتن والاضطراب لا غرابة في أن يحلم أي ملك على أقل قدر من المطامح ببسط النفوذ وإعادة السلام إلى أرجاء البلاد. الملك تشا رون الذي عرف بأول إمبراطور حكيم في عصر الدويلات الخمس كان يقول لأحد وزرائه وانغ شو: كم سنة أبقى فيها على الحياة؟

أجاب وانغ المتقن لفن الخرافة: بعلمي البسيط أتوقع أنكم ستحيون للسنوات الـ 30 المقبلة أما ما بعد ذلك فلا أقدر على التنبؤ به.

ابتهج بهذا الخبر وقال إن كنت صادقاً فراح يستغل عشرة سنين لفتح البلاد وعشرة سنين لتكوين الشعب وعشرة سنين لتوطيد السلام. إن ثلاثين سنة كافية جد الكفاية.

إذن، هل تحققت أمنيته أخيراً؟ فلنستطرد في الحديث.

لقد توصلنا فيما سبق الإشارة إليه أن جيش تشدان قد انسحب من المناطق الوسطى. حينذاك استعاد قائد إمبراطورية ليانغ المتأخرة مدن مثل لويانغ وبياجينغ وأعلن إمارته في شهر مايو وأقام

دولة هان المتأخرة. إلا أنه لم يبقَ على عرش الإمبراطور إلا عشرة أشهر حتى لقي حتفه إثر مرض. تولى ابنه السلطة. سرعان ما بدأ اغتيال قادة الجيش بعد تنصيبه مما أثار ضجة في البلاط.

في سنة 950 تمرد أحد قادته قو وي وقتله وقد ناصر قو وي حاشيته فأقام دولة جو المتأخرة. كان للإمبراطور ابن بالتبني اسمه تشا رون. كان تشا على قسط كبير من النبل والفطنة وحظي بمحبة الإمبراطور حتى إذا ما توفى الإمبراطور لم يخلف ابناً فتولى تشارونغ زمام السلطة وهو من يعرف بجو شي زونغ.

كان إمبراطوراً يجمع بين الحكمة والبسالة وذا طموح عظيم. كان يريد إقامة السلام في غضون 30 سنة. إلا أنه قد واجه تحديات غزو إمبراطور هان الشمالية بالاشتراك مع تشدان إثر تنصيبه. سمع هذا الخبر واجتمع مع وزرائه وقال إنه سيقود الجيش بشخصه. لكن كل الوزراء بالبلاط قد نصحه بالبقاء في العاصمة إذ إنه لم يمض على تنصيبه إلا أوقات قصيرة ولم يتم توطيد الاستقرار حيث من المحتمل أن تتزعزع نفوس الناس. إلى جانب أن إمبراطور هان قد انهزم في المعركة السابقة وانكسرت معنوية جيشه ولن يجرؤ على القدوم.

أجاب الإمبراطور بعزم شديد: لقد تحين ممات أبي واستخف بكوني إمبراطوراً ناشئاً. إنه ليطمح لابتلاع الدولة بأكملها. إنه لقادم هذه المرة فيستحيل علي البقاء. لقد وكنت عزمي فلا تضيعوا أوقاتكم بالنصائح.

عرف الوزراء أن نصيحتهم لا تجدي بشيء نفعاً فاتجهوا جميعاً إلى رئيسهم فنغ داو.

كان فنغ داو قد شغل منصب رئيس الوزراء منذ زمن الإمبراطور تانغ مينغ زونغ وقد خدم عدداً من الأباطرة. بالاعتماد على سرعة البداهة استطاع الحفاظ على منصبه الرفيع طوال الوقت وكان ذا شأن في البلاط. فقد حاول إثنائه عن القرار باعتباره وزيراً مخضرماً بعد فشل زملائه لكن الإمبراطور لم يسمع لكلامه.

جرت اشتباكات عنيفة بين الإمبراطور وجيش هان الشمالية في مدينة قاوبينغ الواقعة فيما يعرف بمقاطعة شانشي اليوم. لم يكترث جيش هان الشمالية بأعدائهم لكونهم أكبر عدداً. فقد انهزم جيش جو في أول مواجهة. فقد تعلم الإمبراطور فن القتال منذ الصغر وعندما لاحظ الوضع

المتدهور انطلق بحصانه لدهس الأعداء حتى دهش العدو حينما رآه يطرأ عليه. أعقب الإمبراطور اثنان من قادته هما جاو كوان يين وجانغ يونغ دا.

استمات الجيش بالقتال عندما رأى قادته يندفعون.

رغم كثرة الجنود عند جيش هان الشمالية فقد فقدوا معنوياتهم إزاء الهجمات الكاسحة حتى تفكك الجيش وهموا بالفرار. أخيراً هرب ليو تشوانغ إمبراطور هان الشمالية مع مائة جندي على الفرسان. ذاعت للإمبراطور شهرة واسعة بعد هذه المعركة. بعد عودته إلى العاصمة كان متهماً بالزراعة والتدريبات العسكرية حتى بدأ الاقتصاد بالازدهار. رأى أنه قد أزف الوقت لتوحيد المنطقة الوسطى وكان يحدوه الطموح. لكنه لسوء الطالع لقي حتفه مجرد بعد استرداد 14 ولاية في شمالي نهر يانتسو في عمر يناهز 39 سنة.

لم يبق على السلطة إلا خمس سنوات. في نهاية المطاف ذهبت حلمه أدراج الرياح. هناك من يتحسر لقصر عمر الإمبراطور بالفعل. لو عاش مدة أطول قد يكون الوضع مختلفاً تماماً. لكن المصير شيء لا يمكن مقاومته. هناك من تكفل بهمومه وأقام السلام وبدد الفتن، ألا وهو جاو كوانغ يين.

134
إضفاء الجلباب الأصفر على جاو كوانغ يين

سجل شاو بووين في كتابه ((تفسير كتاب المتغيرات)) القصة التالية.

في عصر الدويلات الخمس الذي تتابعت الإمبراطوريات بسرعة كان هناك منعزل يسمى تشان توان. نظم قصيدة الانعزال حينما لاحظ اضطرابات الدنيا قال فيه سئمت بعد عشرات السنين من السير في الدنيا والآن قد حان وقت الرحيل. نعم ما أمجاد البلاط من النوم العميق؟ وما الرخاء الدنيوي من الاكتفاء بشظف العيش؟ في زمن الحرب هذا كم يتضايق من مشاهدة مناصرة الجيوش لملوكهم الآفلين؟ العود والقثار لن يصلح شيئاً بل يزيد من الضيق. نعم لقد حان الوقت للرحيل. فالأخذ كتبي القديمة وأصغ لترنيمات الطيور الربيعية وأستسيغ انفتاح الزهور البرية.

بعد نظم القصيدة انكفأ على نفسه في جبل هواشان.

رغم ذلك إلا أن الأخبار لا تزال تصل إلى أذنيه. كلما سمع تعاقب الأسر الحاكمة قطب حاجبيه لعدة أيام وتضايق. إذا سئل عن السبب فلا يجيب بل يحدق كانه ينشغل في تفكير. حتى يوم ركب حماره إلى السوق للتنزه. إذا بخبر تبدد الأسرة الحاكمة إلا أنه هذه المرة لم يعبس وجهه بل انفجر بالضحك.

سئل عن السبب، أجاب أن بلادنا سيعيش الاستقرار منذ اليوم.

ما هو المختلف هذه المرة؟ ما الذي حداه لهذا الكلام؟ لنتواصل في الحديث.

كان من قادة الإمبراطور جو شي زونغ قائد شجاع اسمه جاو كوانغ يين. كان يتبع الإمبراطور في الغزو والفتوحات. وقد أحرز إنجازات كبيرة في المعارك وقبل تكريم الإمبراطور مرات عديدة. لذلك تم تعيين قائد الجيش الملكي.

لقي الإمبراطور مصرعه بعد خمس سنوات من الحكم. تولى ولي العهد السلطة إلا أنه ما زال ناشئاً فكانت شؤون الدولة تحت إشراف رئيس الوزراء فانجي ووانغ فو. أما السلطة العسكرية فصارت بيد جاو كوان يين. في عصر الدويلات ليس بالأمر الغريب أن يستولي القائد العسكري على السلطة فشاعت الأقاويل بأنه يطمح إلى عرش الإمبراطور. ساد القلق إثر هذا الخبر.

تحينت دولة هان الشمالية وتشدان فرصة تنصيب الإمبراطور الناشئ والوضع السياسي المنقلب، فبعث جيوشاً بالاجتماع. دهشت العاصمة بهذا الخبر وبعد نقاشات رئيس الوزراء قررا إرسال جاو لمقاومة الغزو.

تلقى جاو الأمر فقرر الانطلاق من العاصمة فوراً مع مستشاره العسكري جاو بو وأخيه الصغير جاو كوانغ يي. عندما وصل الجموع إلى تشان تشاو يي الذي يبعد عن العاصمة بأكثر من عشرة كيلومترات كانت الليلة قد أسدلت سدولها والنجوم تتناثر. كان الجيش منهك القوة من السير الطويل فأمر جاو بضرب الخيمة. كان ذلك في شتاء قارص. لم يمض وقت طويل حتى قد غرقوا في النوم من شدة التعب.

احتشد عشرات من القادة العسكريين لتبادل أطراف الحديث.

قال البعض نكابد شر البرودة والجوع هنا إلا أن ذوي الشأن في البلاط يتلهمون اللحوم والأسماك. إنه لأمر غير عادل. أضاف البعض: نعم، في هذا التوقيت من السنة الفائتة كنت أنعم بنوم في سريري الدافئ. فقد كثرت الشكاية. وقتها همّ أحد القواد واقفاً: ما زال الإمبراطور صغيراً ولن يتذكر جهودنا ولو كنا نستميت في القتال. إلا من الأفضل أن نناصر سيدنا جاو ليكون الإمبراطور؟

وافق الجميع بعد سماع هذا الكلام فقاموا لاستشارة جوا كوانغ يي وجاوبو.

كان جوابو مسروراً لسماع هذا أيضاً. فقد كان من نيته نصر جاو كوانغ يين كالإمبراطور. فأوصى القادة بتوطيد الآراء العامة عند الجنود لكي يضبط الأمر. في الوقت نفسه كفل رسولاً إلى بكين ليبلغ اثنين من القادة هما شي شو شين ووانغ شين تشي ليتفاهما معهم ويساعداهم من داخل العاصمة. لم يروج القادة إرادتهم في الجيش سرياً إلا بعد أن تم الاستعداد وكان الجنود يوافقون.

إلا أن القائد جاو موانغ يين لم يكن على علم بكل هذا الأمور. غداة اليوم الثاني ولم يمض على استيقاظه إلا وقت قصير حتى سمع ضجيج الخطوات خارج الخيمة. هم واقفاً لتفحص الوضع إذا بأحد فتح الباب وإذا بصوت يصيح: ليكن القائد جاو إمبراطورنا! صار جاو مشدوهاً فارغ البال. إلا أن قائد قد كساه الجلباب الذهبي (الكسوة الخاصة بالإمبراطور). إذا بالقادة يركعون ويصيحون بشعارات التهيئة. صعد فرساً في نظرة الجموع.

قال أحد القادة: فليرجع جلالتي إلى العاصمة لإقامة مرسوم التنصيب!

خفق قلبه وهو على الفرس. بعد هنيهة قال: أنتم لتشتهون الرخا لتناصروني. إذا صرت الإمبراطور فهل أنتم خاشعون لأوامري؟

اتفقوا جميعاً كأنهم يجاوبون على لسان واحد.

أضاف: لا يمكن انتهاك الملكة والإمبراطور الصغير ولا يمكن ظلم الوزراء ولا يمكن سلب السوق وخزانة الدولة بعد دخولنا العاصمة. من أطاع يكافأ ومن خالف ضربت عنقه.

ينشد القادة جميعاً له. فرجع إلى العاصمة بجيشه. كان مسرعاً في السير فلم يمض وقت طويل حتى وصل. فقد تجاوب معهم القادة داخل العاصمة. بتضافر الجهود اضطر الإمبراطور للتنحي. أعطاه جاو صفة الأمير. فوجئ نائب القائد الجيش الملكي هان تونغ بالانقلاب فاندفع بحصانه للمقاومة ليقتل بحاشية جاو كوانغ يين.

بعد توليه للإمبراطور كافأ هان تونغ بصفة جونغ شو لينغ (صفة المسؤول رفيع المستوى) ودفنه بعد تشييع جنازته حسب العرف.

في ربيع سنة 960 جرى تنصيبه إمبراطوراً وأقام عاصمته في دونغ جينغ المسماة أيضاً ببيان ليانغ وهي ما تعرف اليوم بكايفونغ بمقاطعة حنان. استهل بعصر أسرة سونغ الشمالية ووضع حداً لعصر الدويلات المتعاقبة الذي استمر لأكثر من خمسين سنة.

135

إعفاء القادة من السلطة العسكرية بفنجان من الخمر

لقد أشرنا إلى أن الدويلات العشر امتداد لحالة التشظي في المرحلة الأخيرة لدولة تانغ.

إذا أراد سونغ تاء زو تدعيم بلاده دون أن تموت إمبراطوريته وهي ما زالت ناشئة، فلا بد من مواجهة هذه المشكلة. ما السبيل إلى الحل؟ لقد سبقنا أن شبهنا السلطات بشجرة عملاقة. في قديم الزمان كان النظام الضامن للأمن يقتضى غلاظة الجذع وضعف الفروع. أما إذا اختل التوازن وغذت الأغصان الفروع غليظة خشونة فهذا يعني أن الشجرة ستنهار قريباً. وجود الإمارات المحلية داخل الإمبراطورية كانت من أسباب فناء دولة تانغ.

بالنسبة لإمبراطور سونغ تاي زو، من الطبيعي تقوية الجذع وتضعيف الفروع.

فكان لا بد من شطب الأغصان الغليظة التي تتنافس مع الجذع للمياه. تدريجياً لم يبق منها إلا وجود متفرق وقد ذوت الأوراق الملصقة بها مما أعاد ضوء الشمس والمياه إلى الجذع. طبعاً بإمكاننا تقليم الأشجار لكي تعود إلى انتصابها لكن ما العمل بالسلطات؟

لنرى كيف تعامل جاو مع هذا الوضع. بعد الانقلاب والتنصيب وصل جاو إلى سدة الحكم إلا أنه لم يطمئن وكان يخشى انقلاب القادة الأخرين عليه بنفس الطريقة التي استطاع بها إطاحة الإمبراطور الصغير. لم يفقد صوابه في ظنه لأن اثنين من الحكام المحليين قد تشاغبا ضده ولم يستطع القضاء عليهما إلا بعد قيادة جيش بشخصه.

فدعا وزيره جاوبو ليناقشه في هذا الأمر.

قال الإمبراطور: منذ نهاية عصر تانغ لم تضع الحروب رحاها. أريد تهدئة التوترات ليطول حكم دولتي. ما العمل؟ لقد تعمق جاوبو في هذه القضية وأجاب بأناة: إن الأمر الذي يشغل باب

جلالتك سيجلب للعالم بركة وسعادة. إن تمركز القوى في أيدي حكام المحليين هو سبب تتالي الحروب، مما يسبب اضمحلال الإمبراطور وشراسة الحكام. إذا نهم بحل هذه القضية فلا بد من نزع سلطاتهم واستواء قدراتهم المالية وحشد جنودهم.

رأي جاوبو كان واضحاً. مفاده تسريح شي شو شين ووانغ شين تشي قائدي الجيش الملكي من السلطة العسكرية. كانا من ضمن حاشية الإمبراطور القديمة ولهما دوراً كبيراً في النجاح العسكري فتولا القوة الملكية. كان لا يطيق هذه الفكرة وقال إنهما لن يخونانني فلما هذه المخاطر؟

استطرد جاوبو: لم أكن قلقاً منهما بل لاحظت أنهما ليسا رجلين صالحين لقيادة الجيش بعدما رصدتهما عن كثب. لن يقدرا على تقييد نفوذ رجاله. إذا خطر على بال أحد منهما الانقلاب من أجل الثروة فلن يكبتاهما.

وعى بذلك فجأة وقال: أنت على حق. لأتأمل في الأمر.

بعد أيام عزم الإمبراطور شي شو شين ووانغ شين تشي إلى قصره لذوق الخمور. بعد فناجين من الخمر لاحظا أن الإمبراطور عابس الوجه ويتحسر. سأله شي شو شين بحذر: ما الذي يشغلك يا جلالة الإمبراطور؟ لنتقاسم همومك.

أمر الإمبراطور حاشيته بالخروج وقال: لولا أنتما لما أكون على ما أنا عليه اليوم. إلا أني لم أنعم بنوم هانئ حتى يوم واحد منذ تولي السلطة. هناك ما لا يحصى من الناس يبتغي الاستيلاء عليها. وربما جاء أحد يوماً مكسواً بالجلباب الذهبي مثلما كنت أنا.

فهم الاثنان فحوى كلامه فركعا أمامه مذهولين وقال: إنا لخاشعين لجلالتك!

أسرع لإمبراطور إليهما ورفعهما حتى يقفا على الرجلين. قال: إني أصدقكما إلا أن البعض من رجالكما قد ينقلب عليّ طلباً للغناء والرخا فما العمل؟

تصبب شي عرقاً وتوسل إلى الإمبراطور قائلاً: يا جلالتي دبر الأمور نيابة عنا!

أجاب: لقد انشغلتم في العمل طويلاً ولم ترجعوا إلى بلدكم بعد. فما رأيكم في شراء بعض العقارات وقضاء آخر أيامكم في أمان؟

وعى بأغوار الإمبراطور حالاً فلم يبق إلا أن يركعا ركعات ويتلفظا شكراً وامتناناً. في اليوم التالي عند البلاط قدم جمع من القادة استقالتهم طلباً للعودة إلى بلدهم. أجاز لهم ذلك في طبيعة الحال وكافأهم من الثروات كثيراً حتى عادوا سالمين غانمين.

هذا ما يعرف في التاريخ بـ «إعفاء القادة من السلطة العسكرية بفنجان من الخمر».

استطاع الإمبراطور تسريح قادة عسكريين في مأدبة. حينما رأى ذلك بقية الحكام سلموا سلطاتهم إلى المركز علماً بأنهم لا يجازون للسلطة المركزية. فتدرج البلد نحو الاستقرار.

136

أصر كو جون على مقاومة دولة لياو

لننتقل الآن إلى الولايات الـ 16 الشمالية.

سبق أن أشرنا إلى أن الولايات الشمالية الـ 16 كانت تعتبر معقلاً لوسطى الصين. وأشرنا إلى أنها قد وقعت في يد دولة لياو، مما بعث قلقاً عند حكام سونغ الشمالية. لقد تعلقت نفوسهم باسترجاع الأراضي المفقودة. فقد شيد الإمبراطور سونغ تاء زو خزانة خاصة لاستيداع غنيمة الحرب. كلما استطاع استرجاع بلد تم نقل الذهب والفضة المصادر إلى العاصمة، ذلك إلى جانب الأموال الفائضة في الإدارة. قال الإمبراطور للوزراء المقربين مرة إن أفعاله لم تكن شرهاً للثروات بل إشفاقاً للشعب الذي يعيش في الأراضي المنقسمة خارج الوطن الأم بسبب تنازل القائد شي جينغ تانغ. إذا تخطى الرصيد في الخزانة ثلاثمائة أو خمسمائة ألف ليانغ (يساوي ليانغ 50 كرام تقريباً) سأبعث رسولاً على الفور إلى تشيدان للتباحث مع ملكهم لافتداء أراضي وشعبي بهذا المقدار من الأموال. لو لم يتم عقد المعاهدة فسأصرف الأموال لتجنيد الشباب وتكوين الجيش واسترجاع الأراضي بالقوة.

إن خطاب الإمبراطور كان طموحاً إلا أن وقت الوفاة قد أدركه والأراضي الشمالية لم تنضم مجدداً إلى الدولة. تولى سلطته أخوه الصغير جاو كوانغ يي وهو من يعرف بسونغ تاي زونغ. لقد كان يركز على دولة هان الشمالية التي لم يسعفه الوقت لكي يقتحمها ودولة لياو القوية. تم التغلب على دولة هان الشمالية في سنة 979 الميلادي، أما الولايات الـ 16 فرغم محاولتين اثنتين لاستردادها لم يفلح.

منذ ذاك الوقت انقلب ميزان القوة بين الدولتين وغدت دولة سونغ عاجزة عن غزو لياو صوب الشمال إلا أن دولة لياو كثيراً ما تشن هجوماً صوب الجنوب. كانت نيران الحرب كاوية

على الشعب أينما حل فرس جيش لياو. على كل حال، لم تعد هذه التحرشات كافية لكي يهتز لها الإمبراطور سونغ تينغ جون. إن الصدمة الكبرى التي ضربته كانت اتفاقية تشان يوان التي تم انعقادها سنة 1004 الميلادي.

يجب أن نبدأ برئيس الوزراء الشهير كو جون لكي نسهب في الحديث عن الاتفاقية.

لقد توفي الإمبراطور سونغ تاء زونغ وخلفه الإمبراطور سونغ جين زونغ، إلا أن اضمحلال الدولة لم يتبدد. إن الوضع بات يتحسن بعد ظهور كو جون.

كان كو ذكياً منذ الضغر. قيل إنه نظم قصيدة عند صعود جبل هواشان مع أبيه وهو في السابع من العمر حيث أنشد لشموخ الجبل الذي لا يجاريه ولا يباريه أي شيء سوى السماء. وعندما يرفع الإنسان رأسه يرى قرص الشمس الأحمر وعندما يطل على الأفق يرى الغيوم المتمايلة. كان كو في صباه شاباً بارعاً ذا بطش ويتقن الكتب التاريخية حتى أفلح في امتحان الكفاءة في الـ 19 من العمر. كان يشغل مناصب خطيرة عدة وكان يشتهر بجرأته في النصائح. ذات مرة كان يسب الإمبراطور لأخطائه وجهاً لوجه وهو مستشار الدولة مما أثار غضب جلالته. أشار إليه بقية الوزراء بالكف عن الكلام.

إلا أنه لم يعتنِ بآرائهم وظل متمسكاً برأيه هو حتى اشتاط الإمبراطور غضباً وهم بالانصراف. وقتئذ فعل شيئاً فاجأ الجميع. إنه كان يخطو خطوة إلى الأمام وأمسك بكم الإمبراطور طالباً منه بالجلوس حتى سمع كل كلامه.

وقع الإمبراطور في الحيرة بين البكاء والضحك. هذا لم يمنعه من الإعجاب بمقدرة كو وكان يثني عليه مرات عديدة وشبهه بأحد الوزراء المشهورين في التاريخ. إن الإنسان ذا الشخصية المستقيمة دائمة يبعث قلقاً للأباطرة. صدق الإمبراطور أقاويل المتملقين فأحال كو خارج البلاط.

لم يتم تعيينه مجدداً إلا بعد تولي الإمبراطور سونغ جين زونغ حيث وقعت المنطقة الحدودية في أزمة في الغزو.

في شتاء 1004 الميلادي نزل جيش لياو صوب الجنوب وغزى الحدود حتى قد وصلت نيران الحرب إلى مدينة تشان وهي اليوم تسمى بويانغ في مقاطعة خنان. أثار هذا الخبر ضجة

الدولة بأكملها. إن هذه المدينة بمثابة أهم معقل للدولة وإذا تم احتلالها فالعواقب ستتكون وخيمة. لكن ما العمل؟ الدفاع أو الفرار؟ لقد تردد الإمبراطور.

نصح الإمبراطور سونغ جين زونغ المستشار السياسي وانغ تشين رو والوزير تشين ياوسو بالفرار بحجة تقليل الخسائر والحفاظ على القوة لكي ينهض في المستقبل القريب. كان الإمبراطور يشتهي الراحة والطمأنينة. عند سماعه لهذا الكلام أعجبته هذه الفكرة.

علم كو بالأمر فقابل الإمبراطور. قال له بصرامة: من يا ترى نصح جلالتك بالفرار؟ إنه بغيض يستحق الموت. جلالتك تجمع بين البسالة والقوة إذا تقود جيشاً لمكافحة العدو فالوزراء والقادة ستتضافر جهودهم للقتال والأعداء سيلوذون بالفرار. وإن لم يفروا بإمكاننا التدبير لاختلال خططهم. يمكننا الدفاع داخل المدن حتى أصابهم العياء. من الوارد أن ننتصر دون أن نجهد أنفسنا كثيراً فلما نتخلى عن البلاد مما يؤدي إلى حالة الانقسام داخل صفوفنا؟ لو استطاع التوغل إلى وسط البلاد فهل بإمكاننا الحفاظ على أراضينا؟

سمع هذا الكلام الإمبراطور فصار في حالة معنوية عالية وقرر قيادة الجيش.

دب الجيش تعداده أكثر من مائة ألف جندي صوب العدو. إلا أن الأخبار تواردت بخصوص بطش جيش لياو. كما كان هناك وزراء يوسوسون إلى الإمبراطور يسدي النصيحة بالانسحاب. لذا توقف الإمبراطور عندما وصل إلى جنوب مدينة تشانجو.

صار متردداً من جديد.

استدعى كوجون. كان يتمنى سماع نصيحة الانسحاب منه. إلا أن كو كان مصراً على رأيه. كان يأمل أن يعبر الإمبراطور النهر الأصفر لرفع معنوية الجيش هناك. قال: لو لم يعبر جلالتك فسيزداد الجنود هلعاً من الأعداء ولن يستطيعوا كبح جماحهم. إذا فعلت ذلك فكيف تستطيع صنع سمعة حسنة لجيشنا وتحقيق النجاح؟

ما زال الإمبراطور متردداً فدعا القائد قاو تشيونغ لإعراض الإمبراطور عن فكرة الانسحاب. أخيراً وطد عزيمته للعبور وصعد إلى برج البوابة الشمالية للمدينة.

عاين القادة والجنود المنهمكون في القتال إشراف الإمبراطور فهتفوا متهللين وارتفعت معنويات الجيش.

عند وصوله إلى مدينة تشانجو، أوكل جميع الشؤون العسكرية إلى كوجون. لم يخب أمله إذ استطاع رد غزو جيش لياو مرات عديدة. رغم ذلك لم يطمئن إليه في فؤاده. فبعث حاشيته لتفقد كو حيث رآه يلعب القمار ويشرب الخمر حتى يتغنى بصوت مرتفع ويتلذذ بالحديث والضحك. افتعل كو هذا المشهد حتى يطمئن الإمبراطور أخيراً. قال ببهجة: ماذا يبعث القلق إذا كان كو مرتاحاً إلى هذا الحد؟

تقاتل الجيشان لأكثر من عشرة أيام حتى نحا الأمر منحى آخر.

عندما تفقد القائد العام لجيش لياو شياو تالين خارج المدينة قتل بالقوس الآلي لجيش سونغ. إنه كان قائداً يجمع بين الفطنة والبسالة. أدّى موته إلى تدني معنوية جيش لياو. فصار بنيته المصالحة. ابتهج الإمبراطور لهذا الخبر فقال لكو: إذا أرادوا مني التناول عن الأراضي فلن أوافق. كيف إذا نعطيهم مزيداً من الذهب والقماش وغيره من الثروات؟ هز كو رأسه نفياً عند سماع هذا القول. الواجب أن يردوا علينا الأراضي الشمالية فلما نعطيهم المزيد؟

إلا أن الإمبراطور لا ينوي إلا المصالحة. فبعث تساو ليبونغ للمفاوضة بغض النظر عن معارضة كو. قبل انطلاق تساو، التقى معه كو مهدداً: إذا تجاوز المبلغ 300 ألف، ضربت عنقك. فزع تساو. عندما وصل إلى معسكر لياو، بعد جولة من المساومة حدد أن تعطي دولة سونغ كل سنة 300 ألف ليانغ من الفضة ونفس المقدار من القماش. علم الإمبراطور أن مقدار التعويضات أقل بكثير من توقعاته تهلل من شدة المرح يشيد بمقدرة تساو في التفاوض.

على حسب الاتفاقية على سونغ تسليم 200 ألف قطعة قماش ومائة ألف ليانغ فضة. بما لا شك فيه أن الشعب هم الذين تحملوا هذا العبء. تعرف الاتفاقية بين البلدين «حلف تشانيوان». إن هذا الحلف وضع حداً للنزاعات بين الدولتين. منذ هذا التوقيت اعترفت الدولتان ببعضهما البعض مما أدى إلى التواصل المستمر بين الطرفين.

كان الإمبراطور ممتناً لإصرار كو للمقاومة. إن سونغ الشمالية استطاعت تفادي خسائر أكبر لفضله. إلا أن المستشار السياسي وانغ تشين زور تهماً ضده فغير موقفه. قال وانغ: هل جلالتك

تلعب القمار؟ عندما خسر المقامرون كافة ما لديه من الأموال جازف بما تبقى لديه وأودع كل ما لديه. كنت يا جلالتك آخر رهان لكو.

إن قوله كسهام خفي يتصل بين جبانته وجبانة الإمبراطور مسدداً كوجون. في السنة التالية قام الإمبراطور بإعفاء كو من منصب رئيس الوزراء.

137
أقام يوانهاو دولة شيا الغربية

لنفترش خريطة الصين في عهد أسرة سونغ الشمالية.

هناك دولة لياو تتجمع في الشمال كالنسور تلقى ظلالاً على أراضي سونغ الشمالية جبالها وأنهارها ومدنها وقراها. أما الزاوية الواقعة في شمال غربي الصين، ثمة دولة ثالثة قوية ألا وهي شيا الغربية التي كانت تهزم جيش سونغ مرات وضربت ضربة موجعة للياو. إنها سقطت بين سونغ ولياو كحجرة حادة الرأس.

إذاً ننظر إلى القضية من إطار أوسع نجد أن الدول الثلاثة شكلت حالة من التوازن. شأنها شأن الدويلات الثلاث. ليس عصر هان الملكية وعصر تانغ منها بشيء. إن عصر سونغ الملكية لم يتمكن من إقامة إمبراطورية موحدة بالمعنى الحرفي بعد أن وضع حداً لعصر الدويلات العشرة. مع ذلك، لا ننكر أنها توسط بين عصري هان وتانغ الملكية وبين عصري مينغ وتشينغ.

لقد أشرنا في الفقرة السابقة إلى هدوء نيران الحرب بين الدولتين فلنحول أنظارنا إلى شيا الغربية.

عندما استعجل بلاط سونغ للمصالحة نهضت على الحدود الشمال الغربية لها دولة ثالثة: شيا الغربية.

أُنشئت دولة شيا الغربية من قبل القائد لقومية دانغشيانغ. كان يقرأ الكتب الحربية منذ صغره حيث كان منعكفاً على الكتب مثل ((أناشيد الحروب)) حتى لا تكاد تفارقه. كان يتقن اللغة الصينية والتيبيتية وألمَّ بالعلوم البوذية. كان يملك حيلاً في التدابير ومن المواهب العسكرية الفذّة. كان طموحاً يأبى خشوع أجداده لدولة سونغ.

قبل تولي السلطة من أبيه كان يسدي أباه لي دمينغ نصيحة تسوية الخلافات مع القوميات التابعة وتوزيع الخير عليها على حساب التعويضات والهدايا التي قدمت لسونغ سنوياً.

حذره لي أنه عاش حروباً طويلة وقد سئم منها. إن ثلاثين سنة من الأمن والرفاهية كمثل لباس الحرير وغيره كانت نعمة أنعمت سونغ علينا. فلا يمكن خيانتهم.

لا يستسيغ يوان هاو كلامه بل قال إن قومنا كساهم جليد ورعى الأغنام والأبقار. إن ذلك شيمة من شيمنا. ولد البطل عازماً على النفوذ فهل يجدي اللباس الحريري بشيء؟

لم يكن لي طموحاً بل اكتفى بالعيش تحت ظلال سونغ الشمالية ولم يسع لمحاربتها. إلا أن يوان لم يكتف بذلك. عندما توفي أبوه وتولى السلطة أعلن التنصيب كإمبراطور سنة 1038 الميلادي. بما أن دولته تقع غربي دولة سونغ (القومية الأغلبية فيها تدعى شيا) فتعرف في التاريخ بشيا الغربية.

كان الإمبراطور سونغ وان زونغ على العرش في ذلك الوقت. رأى أن هذه القوميات الضئيلة لن تقدر على فعل شيء كبير. فاكتفى بعرض مكافأة لمن استطاع القبض على يوان هاو. ولم يخصص جيوشاً للاعتداء عليه.

قرر يوان صفع سونغ ران زونغ صفعة موجعة. فقاد جيشاً صوب الجنوب سنة 1039. وبما أنه كان يعتني بتدريب الجنود وكان صارماً في التعامل معهم، إضافة إلى استيعابه لفنون الحرب وتفننه في التدبير، انتصر أينما هبّ ودب. ومني جيش سونغ بانكسارات متعددة حتى لاذ بالفرار.

أمر الإمبراطور سونغ رن زونغ بتسريح والي مقاطعة جيجو فان يونغ في عجلة وكلف هان تشي وفان جونغ يان بمواجهة العدو. بدأ الوضع يتحسن بفضل تمهر الاثنين في قيادة الجيش. وقتذاك كان جيش شي شيا يهيب لفان جونغ يان وقالوا إن في صدر فان يكمن عشرات الآلاف من الجنود المدججة وهو ليس من فان يونغ بشيء. أما الجمهور القاطن على الحدود الشمال الغربية فقد أنشد للاثنين أناشيد تتغنّى بالاثنين قائلة: إن كان في الجيش هان يذرع له العدو، وإن كان في الجيش فان صار العدو مشدوهاً.

إلا أن الاثنين تخالفا فيما بعد في ما يخص الدفاع أو الهجوم. كان برأي فان تدعيم القلاع والأبراج بغية تقوية الدفاع أما هان فكان يروم الهجوم بغية استئصال قوى العدو. في أول الأمر غلب رأي هان على فان. في شباط 1041 الميلادي جاء يوان هاو بعشرة آلاف جندي لغزو مدينة وي جو. رغماً عن إثناءات فان، كلف هان ران فو قائداً عاماً وجابه الأعداء.

لم يجر على انطلاق ران فو إلا أوقات قصيرة حتى التقى بنفر من جنود شي شيا وكان معه خيالة تعد بالآلاف.

عندما رآهم ران فو ظن أن هذه فرصة سانحة يجب اغتنامها، فاندفع للقتال. ذهل جنود شي شا وهموا بالفرار لما لاحظوا الجيش المجهز بالخيول. كان بينهم عدة جنود حاولوا المقاومة إلا أنهم انهزموا بسرعة. بعث ران قسم الاستطلاع لتفحص وضع الأعداء فرجع بخبر أن ثمة نفر آخر في الأمام. قال ران: جنود شي شا لا أكثر من ذلك: سأجهز عليهم غداً عندما نلتحق بالقسم الآخر لجيشنا. بعد هنيهة من الاستراحة اتجه الجيش غرباً نحو شيو تشوان. عندما وصل إلى جبل ليو بان شان فاجأتهم صناديق فضية على جانبي الطريق. أثارت الصناديق فضول ران فأمر بمناولتها وفتحها حتى سمع صوت خفقان الطيور وخرجت منها مئات الحمائم إلى السماء. تعالى الصفير من كل صوب وحدب.

تهادت من الجهات الأربع صيحة القتال إثر ذلك فوعى بأنه وقع في فخ إلا أنه قد فات الأوان.

مني جيش سونغ بانكسار ذريع وتوفي في المعركة ران فو. فالنفر الضئيل من جيش شي شا لم يكن سوى طعم لإغراء الجيش بالمطاردة. صمم جيش شي شا شركاً في جبل ليو بان شان الذي يشتهر بالموقع الاستراتيجي واتخذ صناديق الحمائم إشارة للاقتتال. بما هو المتوقع وقع جيش سونغ في الفخ.

انتصر جيش شي شا على سونغ في هذه المعركة ومني الآخر بخسائر فادحة. خضع هان الذي كان يقف وراء فكرة الهجوم للتنزيل في الرتبة، أما فان الذي كان يعاكسه فهو الآخر الذي تعرض للتنزيل فيما بعد لسبب تافه. تحين يوان هاو فرصة الانتصار لنزع فتيل الحرب على الحدود

بين الدولتين حتى في نهاية المطاف اضطر بلاط الدولة لإعادة تعيين الاثنين. ولم يخف غرور يوان هاو إلا بعد عودة الاثنين.

138
هموم فان جونغ يان بالدولة

تم تنزيل تنغ زي جينغ إلى بلدة بالينغ بمدينة يواجو سنة 1044 وهي اليوم في مدينة يوايانغ مقاطعة هونان.

وصل إلى بلدة بالينغ إلا أنه لم يبال بالتنزيل بل قام بعدد من المشاريع من بينها ترميم برج يوايانغ لو. كتب رسالة إلى صديقه فان جونغ يان لإنشاء مقالة للبرج بمناسبة ترميمه. كان يلحق في الرسالة ((رسم مناظر بحيرة دونغ تينغ في ليلة خريفية)).

وقتذاك خضع فان للتنزيل بسبب إصلاحاته إلى مدينة دنغجو. كان يلازمه الهموم فعبر عن أغوار قلبه بالاعتماد على مناظر الرسم وكتب ((تذكار لبرج يوايانغ لو)).

كتب وكأنه قام على البرج مطلّ على البحيرة المتنوعة مناظرها حيث عاش فيها الرذاذ الخفيف والخلاء الموحش كما عاش فيها صفاء الربيع وراحة النفس. بعد الغيوم والشمس والربيع والخريف والبهجة والغضب استطاع تنفيساً عن الهموم.

قال: كنت أسعى وراء أفكار الصالحين القدماء. إنهم لا ينفعلون أمام المكاسب والخسران، بل كانوا يخشون على الشعب وهم في البلاط ويخشون على الإمبراطور وهو قد خرج منه للانزواء في الجبال. إذاً يهم الواحد سواء أكان في البلاط أو في الجبال فمتى سيرتاح؟ لا بد أن يقولوا: إنهم قبل أن يهم الجميع ونفرح بعدما يفرح الجميع. لو لم يكن أمثالهم في عصري فمن سأجالسه؟

قال فان: إنهم قبل أن يهم الجميع ونفرح بعد أن يفرح الجميع. إن هذه المقولة من روائع الحكمة. وقد عبر عن مسار يخطوها كل من سعى لإصلاح البلد في قديم الزمان. إذن، فلنرَ كيف كان يطبق رؤاه؟

منذ التعرض للتنزيل في الرتبة بسبب انكسار ران فو ظل فان جونغ يان يلاحقه الهم والغم أينما حل وارتحل. تتوقد نيران الجزع حينما شهدوا غزوات شي شا المتتالية وانهزامات بي سونغ المتتالية. لحسن الحظ أعاد الإمبراطور سونغ ران زونغ تعيينه بعد تدهور الأوضاع. تفنن فان في إدارة الجيش واستطاع قلب الأوضاع المزرية بالتدرج، حتى لم يعد جيش شي شا يستخف بجيش سونغ. ونظراً لضآلة قوة دولة شي شا وعجزها عن الحروب المستمرة قررت الخضوع لسونغ سنة 1043 الميلادي بشرط أن تقدم دولة سونغ دفعة من الفضة والشاي سنوياً لدولة شيا.

وافق الإمبراطور على هذه الشروط القاسية فنحت حدود البلدين منحى الاستقرار.

كان لفان مساهمات جليلة في الحروب ضد شي شا فأحس الإمبراطور بأنه كان ذا كفاءة حقاً. فنقله إلى العاصمة لإعطائه صفة المستشار السياسي. لما ألمَّ الوزراء في العاصمة بالخبر قصدوه أفواجاً للتهنئة. وكان من بينهم عدد غير قليل أتوا بهدايا ثمينة فرفضهم فان رفضاً بتاتاً: الرجاء العودة بهداياكم فإني في غنى عنها. لم يبقَ لهم إلا العودة فاقدي الهم.

كان لفان شخصية مستقيمة فأول ما شغل منصب الوزير الناصح كان جريئاً في نصاحته وكان يفضح فضيحة استغلال السلطة من قبل رئيس الوزراء آنذاك أمام وجهه، فتعرض للتنزيل إلى المناطق الجنوبية. ولم يتم إعادة تشغيله إلا الحين. كان بنية الإمبراطور إزالة الخلل وإصلاح البلاد فاستشاره مرات عديدة حول هذه القضية.

ظن فان أنه لا بد من إطلاق الإصلاح رويداً رويداً وقال إن لكل الأمور ترتيباته. منذ إقامة دولة سونغ لقد تراكمت أنواع وأصناف من العيوب والخلل ليس بالإمكان القضاء عليها بين ليلة وضحاها.

أصاب الإمبراطور هم وغم وكان يحث فان باستمرار، حتى كتب الوصية الشهيرة عبر التاريخ ((عشرة إجراءات إجابة لطلب الإمبراطور)). كان الإمبراطور رخص لها بالنشر في أرجاء البلاد فور استلامها. يعرف هذا الإصلاح في التاريخ باسم السياسات الجديدة في عصر تشين لي. تشين لي عبارة عن اسم الإمبراطور.

إن الإجراءات الجديدة لا مفر من انتهاك مصالح ذوي الشأن. ذات مرة عند تفتيش قائمة المراقبين وجد فان أن من بينهم من ارتكب الفساد والذنوب فأخذ قلماً وشطب أسماءهم استعداداً

لاستبدالهم. كان بجواره تاجر غني لم يطق الأمر فقال له: إنه لأمر سهل أن تشطب حضرتك أسماء هؤلاء، غير أن أسرهم سوف تتصبّب دموعاً.

رد عليه فان ببساطة: لولا أبكيها فالشعب هم الذين سوف يبكون.

سمع التاجر الغني هذا الكلام فزاد من هيبته لفان، غير أن حقد الوزراء الذين فقدوا أشغالهم بسبب الفساد قد تزايد. واستهزأ مقربو الإمبراطور للسياسات الجديدة زماناً. وهم عزواه الذنوب وتشدقوا بكلام السوء أمام الإمبراطور. كان الإمبراطور حكيماً عازماً في الإصلاح في أول الأمر وكان يفهم أن البعض يتذمرون لكنه تزعزع وبات يشك في فان.

تعرضت السياسات الجديدة لعوائق كثيرة فطلب من الإمبراطور قيادة الجيش في المناطق الحدودية. بعد رحيله تخلى الإمبراطور عن كافة الإجراءات الجديدة. باء الإصلاح بالفشل وكان عند فان شيء من الاكتئاب إلا أنه دائماً كان يضع الدولة في المقام الأول وقد عبر عن نفسه في ((على برج يويانغ)) مفادها: نهم قبل أن يهم الجميع ونفرح بعد أن يفرح الجميع.

139
المصلح وانغ آن شي

باشر وانغ آن شي إصلاحاً على قدم وساق سنة 1069.

قد نرتاب في معنى الإصلاح وأسبابه. إنه بمثابة إحداث تغيير كبير في أنظمة الدولة القانونية. مثله مثل إصلاح تشين لي الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة، رغم أنه كان ينحصر في إطار ضيق. أما السبب الذي دعا إلى الإصلاح فنشبهه بقصور الملوك. إن الملوك الفاتحين للدولة كالعمال الكادحين لبناء القصر، فقد كان يجوبون الأرض شرقاً وغرباً حتى أقام قصراً فخماً وبهياً وخلفوه لأبنائهم. ومن ثم اختبأوا في هذا القصر من شر الرياح العاتية والأمطار الغزيرة وكانوا يعيشون الرفاهية والدعة. حتى إذا دارت الأفلاك وتبدلت الأزمان اهترئ القصر.

وقد تشعبت فيه الحشائش وظهرت فيه الذئب والوحوش بين فينة وأخرى. اندثرت الأدراج المصنوعة من الأحجار الزرقاء ولم يعد يتيسر على الناس صعودها. أما من داخل القصر فقد سقط قشر الجدران وتكدس الغبار على الكراسي وتثقبت أعمدة القصر بأعمال الديدان واهترأت الطوب الأحمر واللبنة الخضراء حتى لم يعد قادراً على تحمل الأمطار والرياح.

ما العمل آنذاك؟ من الطبيعي أن ترممه. استقلعت الأعشاب واستخرجت الأحجار الزرقاء لترميم الأدراج. جئت بالكلس لطلاء الجدران وبدلت الأطواب القديمة لأنك تفهم أن القصر سوف ينهار يوماً ما إذا كففت عن هذه الأشغال.

إن الإصلاح بمثابة الترميم إلى حد ما.

منذ إقامة دولة سونغ لم يعد النظام القديم قادراً على التساير مع الظروف الجديدة فقد كانت الدولة تعاني من الصعاب المتعددة داخل البلاد وخارجها. لا يمكن تبديل الوضع إلا من خلال

الإصلاح أي إحداث تغيير كبير للأنظمة القانونية العتيقة. لقد أشرنا فيما سلف إلى فان جونغ يان ومحاولاته الإصلاحية التي باءت بالفشل. وبما أن الإصلاح قد فشل إن المآزق التي عاشتها الدولة تزال قائمة دون حل. فكان لا بد من إحداث إصلاح ثان ألا وهو إصلاح وانغ آن شي. فهل محاولاته سوف تتكلل بالنجاح؟

وانغ آن شي سياسي وأديب شهير في عصر سونغ الشمالية. ولد في لين تشوان بمحافظة فو جو وهي ما تعرف اليوم بغربي فو جو بمقاطعة جيانغ شي. كان مولعاً بالقراءة وبارعاً في الكتابة. كان أديب آخر وهو زن قونغ قد أحضر مقالته إلى زعيم الأدب الصيني وقتذاك أويانغ شيو. أطرى أويانغ عليه بالمديح بعد قراءة المقالة وتشدق بالمدح أينما ذهب. فاز وانغ بالمرتبة الأولى في الامتحان الأعلى لتعيين الكفاءات في العشرين من العمر وتم تعيينه مساعداً لمحافظ هواينان.

فور وصوله إلى كل المناصب الحكومية انتهج سياسة تخفيف الضرائب وتطوير الإنتاج الزراعي مما أكسبه حب واحترام الشعب المحلي حتى ذاع له صيت في عموم البلاد. عينه الإمبراطور سونغ ران زونغ مسؤولاً عن الشرون المالية في العاصمة. لاحظ وانغ فراغ خزانة الدولة فقدم وصية عشرة آلاف كلمة دعوة إلى الإصلاح المالي. إلا أن الإمبراطور لم يبالِ بها واستحقره الوزراء الآخرين وقالوا إن مراده لا يعدو مجرد شهرة. أحس وانغ أن مطامحه السياسية لا يمكن تطبيقها فتحين وفاة والدته للاستقالة والعودة إلى بلده لتشييع أمه.

توفي الإمبراطور سونغ ران زونغ وتولى السلطة الإمبراطور سونغ يينغ زونغ إلا أنه مات بعد أربع سنوات فقط من الحكم. من ثم تولى الحكم الإمبراطور سونغ شين زونغ.

سادت الاضطرابات والفتنة في بلاط دولة سونغ الشمالية ووهنت قوة الدولة، وفي الوقت نفسه تعاني من انتهاكات دولة لياو ودولة شي شيا بين حين وآخر. أراد الإمبراطور تغيير هذا الوضع إلا أنه لا يجد وزيراً معتمداً في البلاط.

حينئذ هناك من قدم له وانغ آن شي.

أمر وانغ بالعودة إلى العاصمة حالاً وعينه كاتب الإمبراطور. ابتهج وانغ للخبر ووعى بأن فرصته جاءت. عندما التقى مع الإمبراطور استفاض في شرح رؤيته وقد أعجبت الإمبراطور. تلذذ

الاثنان بالحوار وتحسرا للقاء المتأخر. عاد وانغ إلى بيته واستخرج وصية خلال الليلة حيث عرضت فيها الإجراءات الإصلاحية. كانت الوصية لقيت رضى الإمبراطور.

في 1069 الميلادي رفعه الإمبراطور إلى منصب المستشار السياسي ليباشر الإصلاح. أنشأ وانغ جهازاً خاصاً لوضع القوانين الجديدة حيث كان يعين مسؤولين شباب ذوي المساهمات الكبيرة فانزاح بذلك عن عوائق الوزراء المحافظين واستطاع تطبيق الإصلاحات غير مقيد اليدين. كان الإصلاح يتمحور حول الشؤون المالية والعسكرية بما في ذلك قانون الشتلة الخضراء وقانون المنشآت المائية وقانون إعفاء الخدمة العسكرية وقانون الضريبة وقانون الوحدات الإدارية.

استطاع الإصلاح زيادة خزانة الدولة وتدعيم الحكم إلا أنه كان على عجلة ولا يخلو من بعض العيوب، خاصة أنه اختل بمصالح ذوي الشأن الكبير مما اعترضوه ومن بين المعارضين سيما قوانغ الناصح الكبير ذو الشهرة الواسعة.

كان الاثنان صديقين حميمين إلا أنهما خطا طريقين مختلفين فيما بعد بسبب الخلافات في الرأي.

كان يكتب إلى وانغ ثلاث مرات لانتقاد القوانين الجديدة وكانت الرسالة الثانية أشد نبرة حيث استنكر وانغ لانتهاكه السلطة وإثارة المشاكل وسلب الثروات ورفض النصائح. رد عليه وانغ بنفس المقدار من الشدة وهذه الرسالة هي ما تعرف بـ ((إجابة لنصائح الناصح سيما)).

جاءت في الرسالة: إني أجدد القوانين بتكلفة من الإمبراطور فلماذا تتهمني بالانتهاك؟ أعمل لزيادة المصالح وإزالة الخلل فلماذا تتهمني بإثارة المشاكل؟ أخدم الدولة لإدارة شؤونها المالية فلما تتهمني بالسلب والنهب؟ أرد على الخطابات الخاطئة فلما تقول إني أرفض النصائح؟ هذه الرسالة بمثابة الرد على كل الانتقادات الموجهة له وتوكيد لعزيمته لتطبيق القوانين الجديدة.

حصل على الرسالة وعلته ابتسامة صفراء وعرف أن الانتقاد لا يجدي بشيء.

بعد خمس سنوات من القوانين الجديدة وعلى وجه التحديد في سنة 1074 منيت مقاطعة خبا لضربة القحط على المستوى القياسي وكانت الأناشيد تنتشر تسب الإصلاح وهناك من اغتنم

الفرصة ورسم ((لوحة المتشردين)) وهداها للإمبراطور. رسم فيها حالة التشرد والعوز. تحينت والدة الإمبراطور وجدته هذا الفرصة للتذمر من سيئات القوانين.

لم يكن الإمبراطور وطيداً في الإصلاح بل صار يشك فيه بعض الشكوك. رأى وانغ أنه لا منفذ لمطامحه الإصلاحية فاستقال وعاد إلى مدينة دونغ جينغ وهي ما تعرف اليوم بكايفونغ بمقاطعة خنان.

إن عودة وانغ يرمز إلى النهاية المؤقتة للإصلاح.

في السنة التالية ندم الإمبراطور ودعا وانغ إلى العاصمة مجدداً. كان ذلك يصادف ظهور المذنب في السماء فبات المحافظون يهاجمون على الإصلاح بالاعتماد على هذه الظاهرة الفلكية. غدا الإمبراطور متردداً وبارداً في التعامل مع وانغ، كما تعرض للاستواء أينما حاول تطبيق القوانين الجديدة فاستقال مجدداً للعودة إلى مدينة جيانغ نينغ ومن ثم عاش عزلة في جبل جونغشان. فور رحيله غلب المحافظون وتم دعوة سيما قوانغ إلى البلاط لشغل منصب رئيس الوزراء. تم إلغاء قوانين وانغ على الفور.

ذهبت عشرات السنين من الجهود أدراج الرياح. اكتظت نفسه بالهموم حتى توفي بعد مرض قصير.

باء الإصلاح بالفشل الذريع. من فان جونغ يان إلى وانغ آن شي انتهى كلاً من الإصلاحين بالفشل. مذ ذاك الوقت صار الجدال يفرغ الإصلاح من مضمونه ولم يعد إلا إصلاحاً اسمياً. بالتدرج بما أن قصر سونغ الشمالية لم يخضع للترميم وبات مهترئاً، فإنه سوف يفاجئه الانهيار.

140
الشاعر سو شي الواسع الأفق

سنة 1936 الميلادي انتقل الأديب لين يو تانغ إلى أمريكا مع أسرته.

بالنسبة لكل أديب مهما كان ثقل الحِلِّ ومهما كانت مشقات السفر فلا بد من إحضار بعض الكتب في الارتحال. لم يكن لين استثناء. فقد انتقى مجموعة من الكتب عن أسس العلوم والثقافات الصينية من بين مقتنياته الوفيرة. إن هذه الكتب تشكل اللبنة الأولى لجميع العلوم التي اكتسبها طوال حياته بحيث يحتاج إلى مراجعتها بين حين وآخر. إلى جانب ذلك أخرج من صفوف الكتب عدة من أعمال أحد القدماء بعد التمحيص.

السبب في إحضار هذه الكتب أنه كان يروم صحبة أحد الشخصيات ذات الحس بالعدالة والصدر الرحب والنظرة النافذة والخلق الجذاب. إذاً، من هذه الشخصية التي استهوت الأديب لين إلى هذا الحد؟

إنه سو سي.

شخصية سو شي تذكرنا بالكثير، مثل لحم دونغ بو (أحد الأطباق التي ابتكرها سو) وجسر سو والقصائد الشهيرة وأخته سو شياو مي وطرائفه مع الراهب البوذي فو يين. إن هذه الأحاديث خليط من الجد واللعب. إلا أن الإشاعات دليل على حب الناس له. إن أنس الشاعر سو شي يذكرنا بالأخ الساكن في البيت المجاور. بإمكاننا المزح معه ما دام ذلك لم يتجاوز الحد. إذاً، كيف كانت شخصيات سو شي؟

سو شي، له اسم آخر زي جان، ولد في جبل ميشان بمدينة ميجو، وهي ما تعرف بمي شان في مقاطعة سي تشوان. كان على قسط كبير من النبل والذكاء وهو ما زال قاصراً. في العاشرة من

عمره كان أبوه سو شوين يجوب الأرض طلباً للعلم وكانت أمها تعلمه أخبار الكتب التاريخية. لقد استمع سو إلى الانكسارات والانتصارات في مسيرة التاريخ وكان بإمكانه الإشارة إلى جوهر القضايا فور السماع. لما امتلك العلم قدم في امتحان الكفاءة مع أبيه بالعاصمة وهو في العشرين من العمر.

ضربت شهرته آفاق البلاد في هذا الامتحان.

الذي كان يشغل منصب الممتحن الرئيسي كان زعيم الأدب أويانغ شيو. عند تصحيحه للأوراق لاحظ أن إحدى المقالات كانت في غاية البلاغة وذات الرؤية النافذة حتى لم يتمالك في أثنائها. كان بنيته وضع هذه المقالة في المرتبة الأولى إلا أنه تأمل في الأمر وخرز أن الذي كتبها لا بد أن يكون تلميذه زنغ قونغ. كان يخشى اتهامات الناس بالمحاباة، فأعطاها المرتبة الثانية بعد حيز من التفكير. عندما طلعت النتيجة علم أن هذه المقالة لم تكن بقلم تلميذه بل بقلم سو شي. بعد حصوله على المرتبة الثانية قام بزيارة أويانغ شيو.

تبادل الاثنان أطراف الحديث وأحس أويانغ بالموهبة المتدفقة والكفاءة البارزة وقد أعجبه. عند رحيل سو لم يتمالك في مدحه أمام زميله مي ياوتشن: إن مثل هذه الكفاءات لنادرة للغاية. ينبغي علي رفع مقامه. كانت هذه القصة الظريفة غدت مقولة شهيرة في اللغة الصينية.

إثر إصداره هذا الكلام هزت شهرة سو العاصمة. وفي الوقت نفسه قد جنت على نفسه غيرة الناس وحسدهم. إلا أنهم فطنوا إلى صواب رأي أويانغ بعد قراءة قصائده ونثره.

البعض منا قد يظن أن مسيرة سو لا بد أن تمر بسلاسة، خاصة أن الإمبراطور قد قال بمرح إنه قد انتقى لأبنائه رئيس الوزراء المستقبل عند قراءة مقالته. إلا أن الأمر لم يكن كذلك، بسبب أحاسيسه القوية بالعدالة وعدم انصياعه لتيار العالم وحفاظه على المسطرة في المعاملة. كان الأديب سونغ قون في عصر سونغ الملكية سجل القصة التالية في كتابه ((ليانغ شي مان جي)) (أحد الكتب التاريخية لعصر سونغ الملكية).

ذات يوم بعد اجتماع البلاط عاد إلى منزله. عندما انتهى من الأكل مس بطنه وهو يمشي متثاقلاً. سأل جاريات البيت ما في بطنه.

قالت إحدى الجواري إن الذي يكمن فيه نثر. استخطأه سو. وقالت أخرى إنما هو المعارف. هز سو رأسه نافياً رأيها. أخيراً قالت الجارية تشاو يون التي كانت أحب إليها بمهل: بطن سيدنا ممتلئ بعدم الاكتراث بالظروف.

لم يتمالك الضحك وقتذاك.

إن تشاو يون لا تكن مجرد جارية في بيت سو بل صديقته الحميمة التي صاحبته في مضرة، لذلك بإمكانها الإدلاف إلى أغوار قلبه. من هذا الضحك نلاحظ خلافات سو شي مع عصره المتدهور. كان سو على وعي يقين من ذلك وكان عازماً على عدم الانصياع لذلك العصر.

كان عدم اكتراثه يتجلى في عدة نقاط.

على سبيل المثال كان بإمكانه التناغم مع آراء المصلحين خلال إصلاح وانغ آن شي لكي يلقى اهتماماً عند الوزراء إلا أنه لم يحن رأسه بل أشار إلى العيوب والضعف في القوانين الجديدة بنظرة نفاذة. وعندما شغل سيما قونغ رئيس الوزراء وأراد شطب جميع القوانين الجديدة خرج يتهمه بعدم مراعاة الواقع وإلغاء التشريعات لأسباب سياسية محضة.

تأرجح سو بين الثلة الحديثة برئاسة وانغ آن شي والحزب القديم برئاسة سيما قوانغ، إلا أنه كان ذا آرائه الخاصة بعد تفكير عميق. إن مثل هذه الشخصيات المميزة تجلب لنفسها الحقد والغيرة في طبيعة الحال.

سنة 1079 الميلادي باتت تكتنفه شبكة من الناس يحاولون تلفيق التهم ضده.

نظم سو ذو المواهب والشهامة قصيدة في وجه محنة الشعب والخلل الشائع. لم يعجبه الوضع السائد. إن الاتهامات الواردة في القصيدة سببت في عدم ارتياح الكثير. فابتسروا أبياتاً من سياق القصائد لاتهامه بطعن الحكومة. أخيراً تم إعفاءه من المنصب واعتقاله في سجن العاصمة.

هذا هو يعرف في التاريخ باسم قضية شعر في مصطبة الغراب.

لم يتم إطلاق سراحه إلا بعد أكثر من مائة يوم. تجرع خلال هذه المدة مرارة التعذيب، حتى خطر على باله الانتحار مرات عدة. بعد محاولات الناس لانتشاله استطاع التحرر. تم تنزيله إلى

مدينة هوانغ جو وهي ما تعرف اليوم بهوانغ قانغ مقاطعة هوبي.

أنزلتها القضية إلى هوانغ جو النائية. كان يعيش عوزاً وفقراً. كان يغرس في الأراضي القاحلة ويزرع. كان يقرأ في عزلة عن الناس وكان يخط بيده ((كتاب سوترا الألماس)) (من عيون الكتب البوذية). هل انغرق سو في المحنة والمشقات؟

لا.

حقيقة الأمر أن الذي استهوى القراء أكثر من جوانب شخصيات سو شي لم يكن بلاغته المتدفقة التي لا يجاريها أحد، بل انبساطه أمام محن الدنيا. ربما كان يحس بالحرمان والحيرة وربما كان يتذمر من عدالة الدنيا وصعابها إلا أنه في نهاية المطاف تملص من ذلك. استطاع كتابة ((زيارتي الأولى إلى الجرف الأحمر)) و((الزيارة الثانية)) التي انتشرت عبر التاريخ.

رغم أنه تأوه لسرعة زوال الحياة إلا أنه كان يذكر نفسه دائماً إن الرياح الخفيفة على سطح البحيرة والبدر المتألق في سفوح الجبل هو ثورات الخالق التي لا تفنى والتي يمكن الاستمتاع بها. رغم الحياة لا تخلو من لحظات الحرج إلا أنه لن يكف عن الصيحة والتقدم في استقبال رياح الربيع الشبمة وظلال الشمس عند قمة الجبل.

لقد استطاع الانفلات من المجال الضيق إلى أفق الحياة الأوسع.

إن انبساطه أمام الدنيا ليس اللامبالاة وعدم الاكتراث للظلم لا يساوي التخلي عن الإصرار السابق بل ذلك يمثل الخطوات المتثاقلة في طريق الحياة أمام الريح العاتية والأمواج الصادمة. بإزالته لجزع النفس واستهجانه للمحن تمكن من إعادة تخطيط للحياة.

إن انبساط سو شي كان الجزء المتألق من شخصيته الذي تشكل من خلال الشدة والتعثرات.

141
الإمبراطور سونغ هوي زونغ وتسا جينغ

عند بسط رسم جانغ زي دوان الشهير ((على طول النهر في عيد كنس القبور)) نلاحظ الأجواء الربيعية حيث تتجمع الدكاكين والمحلات في الشوارع والأزقة وتتكثف العمارات والبناءات، ناهيك عن العدد الكبير من المشاة الراجلين، فالبعض منهم على ظهر الفرس والبعض منهم يرفعون الهوادج والبعض منهم يركبون عربات الخيول والبعض منهم يمشون على القدمين، البعض منهم يحملون الحمولة. أصناف وألوان من المناظر الخلابة لا يمكن استقصاءها.

عندما نحول أنظارنا صوب الشرق ثمة نهر بيانخه الذي تبحرها السفن. إن ساريات السفن تحتشد كأنها غابة إذا ينظر إليها من بعد. وهنالك عشرات مما يتسكعون على القنطرة يشاهدون ربان السفن يحشرون العيدان الخشبي إلى النهر لسبر أعماقها. لنتحول إلى الشرق حيث ضواحي المدينة. يتناثر فيها المشاة وتتواجد فيها الأكواخ والبيوت الريفية كما تتواجد فيها الأشجار الكثيفة والحقول. إنها منظر مغاير للمدينة.

قد تكون هذه مجرد زاوية من جنوب شرقي مدينة بيان ليانغ. إن هذه الزاوية وحدها دليل صارخ لعمران المدينة، ناهيك عن معبد شيان قو سي وشارع يوجي الذي يصل عرضه إلى أكثر من مائتي رجل. إلى جانب ذلك، يشكل كتاب ((العاصمة الشرقية: حلم الروعة)) بقلم مينغ يوان لاو البراهين الإضافية لازدهار المدينة. إن هذا الرسم بمثابة خلاصة لرخاء وغناء المدينة.

إذا نظرنا إلى ذلك العصر من إطار أوسع نجد أن ازدهار سونغ الشمالية لا يقتصر في العاصمة بيا ليانغ وحدها.

ثمة في الجنوب مدينة تشوانجو حيث تطفو السفن على بحر الصين الجنوبي ذاهبة آيبة. إن الخزف الصيني الباهر تم نقله عبر طريق الخزف هذا إلى جنوب شرقي آسيا بدون انقطاع ومن هنا

إلى المحيط العربي عبر السفن العربية وإلى العالم بأسره. وقد أثارت هذه المنتجات الرائعة الإعجاب.

من الجدير بالذكر أن البارود والبوصلة والطباعة التي من ضمن الاختراعات الأربعة قد شاع استعمالها في ذلك الوقت وصارت جزءاً من حياة الشعب في عصر سونغ. وإن صناعة الورق التي دخلت الإمبراطورية العربية في عهد أسرة تانغ الملكية كانت على الأرجح قد دخلت في هذه الحقبة القارة الأوروبية مما دفع الخضارة الغربية إلى الأمام وشيئاً فشيئاً غدت تغير نمط الحياة عند الغربيين. إلا أن الأزمة الكبرى تتوارى وراء مظاهر الازدهار والعمران.

لقد أشرنا إلى محاولات فان جونغ يان ووانغ آن شي لاحتواء الأزمة. إلا أنها باءت بالفشل. ومن ثم انغمس الأباطرة والوزراء في الضجيج والتفاخر وقد نسوا الأزمة والتناقضات. وبالتدرج حان وقت الفناء بعد الازدهار.

بعد وفاة الملكة قاو تايهو، تولى الإمبراطور سونغ جه زونغ الحكم وكان عين مجموعة من الوزراء المؤيدين للحكم إلا أنهم لم يكن من أمثال وانغ وفان بل كانوا يسعون وراء المصالح الشخصية باسم الإصلاح وكان الفساد يسود بلاط الإمبراطور.

بعد وفاته تولى أخوه الصغير الإمبراطور وكان غارقاً في اللهو. اغتنم الوزير الفاسد تسا جينغ هذه الفرصة لاستئثار شؤون الدولة.

كان تسا على قسط كبير من العبقرية إذ كان لا يجاريه أحد في فن الخط وقته إلا أن ذلك لم يجلب عليه شهرة. فحاول التملق إلى الإمبراطور بغية الارتقاء. ذات مرة علم أن أحد كبار مقربي الإمبراطور تونغ قوان كان يقوم بجمع الجوهر والرسوم وأعمال الخطاط فأهدى أحد أعمال وانغ شي جي (كبير الخطاطين) إليه وكان يصحبه في النهب والسلب. استفاد تونغ من تسا فذكره أمام الإمبراطور. كان بنية الإمبراطور رفع منزلة تسا إلا أنه لم يتوفر على حجة. صادفت هذه الحيرة رسالة التوصية كانت موجهة للإمبراطور حيث أطرى بالمديح لتسا.

حقيقة الأمر أن هذا المسؤول كان قد قبل رشوة من تسا جينغ. صار العديد من الوزراء يقترحونه على الإمبراطور. فعينه الإمبراطور سونغ هوي زونغ رئيس الوزراء. عند وصوله إلى سدة الحكم، اعتبر الوزراء المستقيمين الذين لم يتفقوا مع أفكاره الحزب الفاسد في بلاط الإمبراطور.

كما أقام نصباً حجرياً أمام بوابة دوانلي مون باسم الإمبراطور نقشت عليه أسماء سيما قوانغ وسوشي وسو جه وغيرهم ممن اعتبرهم مفسدين عددهم مائة وعشرون شخص. كان «يوانيو» لقب لتقويم الإمبراطور سونغ جه جونغ. فعرف النصب بنصب الحزب يوانيو. إن جميع المسؤولين الموجودين على النصب تم تنزيلهم أو نفيهم إلى المناطق النائية. أما إذا كان قد توفي فيتم إعفاءه من صفة المنصب. إضافة إلى ذلك، حول تشين القوانين الجديدة لوانغ آن شي إلى وسائط لنهب ثروات الشعب تحت اسم الإصلاح، حيث أضاف ضرائب جديدة على الشعب. كان معاناتهم لا يمكن التعبير عنها.

عرف تسا أن الإمبراطور كان منهمكاً في الديانة التاوية ويؤمن بالسحر. فجاء راهب تاوي اسمه لين لينغسو سريع البديهة. كان كلامه مليء بالهراء حيث قال إن الإمبراطور الابن البكر للإمبراطور السماوي نزل لإدارة الدنيا، مما نال رضى الإمبراطور وزاده سروراً. كما كلف تسا جينغ بمجموعة من الرهبان التاويين قاموا بتفسير التعاليم التاوية يومياً في القصر الإمبراطوري حتى تلطخ القصر بالدخان والأوساخ. لم يعد الإمبراطور ليكترث بشؤون الدولة بل كان منعكفاً على الشؤون والشعائر الدينية.

تحت تأثير تسا جينغ وتونغ قوان، تقلب الإمبراطور في العبث واللهو.

كان مولعاً بالتحف الفنية والأغراض الثمينة فقام الاثنان بجمع النوادر والعجائب، كما قاما بتشغيل آلاف من الحرفيين من مدينة سوجو وهانغجو لصناعة النقوش والتطريز. طبعاً كانت المواد الخام مسلوبة من الشعب. بعد أيام أثارت الزهور والنباتات النادرة والحجارات العجيبة انتباه الإمبراطور.

تلبية لذوق الإمبراطور أنشأ تسا مصلحة المصادر في مدينة سوجو لجمع الكنوز والنوادر. كفل جوميان لجمع الزهور والأحجار، فاستكشف الجبال والبحيرات في منطقة جيانغنان. لم يتخل عن أي شبر من الأرض. إن بيوت الناس سواء أكان مسؤولاً حكومياً أو البسطاء، إذا عرف أنهم كانوا يخبئون الأحجار الغربية أو النباتات الثمينة فيها أمر الجنود بإقحامها ووسم بوابة البيوت بالإشارة الصفراء. من لم يطع الأوامر يتهم بعصيان الإمبراطور. إذا كان حجم الأحجار أو الأشجار أكبر من البوابة قاموا بإزالة سور البيت أو حتى الغرفات لكي يخرجوها.

ترتب على هذه الإجراءات تشرد الشعب والفقر والعوز.

أما الزهور والأحجار فيحتاج إلى طلعات من السفن لإيصالها إلى العاصمة بيانجينغ. فتم تسخير سفن الأغذية والسفن التجارية قسرياً لحمل الأحجار. كان بعض الشعب يضطر لجر السفن الضخمة المحملة بالأحجار ذاهباً آيباً في النهر. كانت هذه السفن تدعى سفن الأحجار والزهور.

على هذا المنوال تم نقل الأحجار والزهور العجيبة والخيزران إلى العاصمة بدون انقطاع. تكدست فصارت حديقة أنيقة متألقة. تردد الإمبراطور إليه فرحاناً ورفع منزلة جوميان على الفور. تلقى جو دعم الإمبراطور فقام بما شاء كما شاء. نالت مصلحة المصادر التي أشرف عليها لقب «البلاط الصغير في جنوب الشرقي».

إن الضغوطات الكبيرة تقتضى المقاومة.

إن الذي نقل على مجرى نهر بيانخه لم يكن مجرد أحجار وزهور بل دماء الشعب وعروقه. تصببت الدموع وتجففت الدماء فحان الوقت للنضال. ما يجدر الذكر في هذه السلسلة من المقاومة ثورة فانغلاع. رغم أن ثورة قامت على قدم وساق لم تتمكن من إطاحة دولة سونغ الشمالية. إلا أنها قد تشققت كثوب مهترئ. والرياح إذا مالت عليها استطاعت إسقاطها. إذاً، أين ستهب هذا الريح؟ إنها لم تكن من دولة لياو ولا تكن من دولة شيا، بل من الأصقاع الشمالية النائية.

142
دخل آقودا في حلف مع دولة سونغ لمقاومة لياو

في سبتمبر 1118، اشترى رسول الإمبراطور ما جانغ سفينة في شبه جزيرة شاندونغ للإبحار.

إلى أين كان يتوجه؟ دولة جين.

انطلق من شبه جزيرة شاندونغ على ظهر سفينة بحجة شراء الأحصنة. دارت السفينة على أراضي دولة لياو سرية وقطعت الخليج بوهاي. استطاعت الوصول إلى شبه جزيرة لياودونغ بعد مواجهة الرياح العاتية والأمواج المتلاطمة. لسوء الطالع تم أسر ما جانغ فور صعوده إلى الشاطئ من قبل جنود جين، مع مصادرة كافة لأغراض الشخصية. لم يتسن له الذهاب إلا بعد شرح طويل. أخيراً وبعد قطع أكثر من 1500 كيلومتر من الطريق المليء بالمشقة التقى مع ملك جين وانيان آقودا. سأل الملك عن أسباب الوفود.

قال أراد الصلح مع دولة جين لمقاتلة دولة لياو بجهود مشتركة تكلفة من الإمبراطور سونغ هوي زونغ.

لم يفطن الملك إلى المداخل والمخارج للوافد فلم يعبر عن رأيه لرسول دولة سونغ التي قطع آلاف الأميال. اكتفى ببعث رسول بجوار ما جانغ مع أوراق الاعتماد إلى دولة سونغ، إضافة إلى الهدايا النفيسة من أمثال اللؤلؤ الشمالي والذهب الخالص وجلد النمس ورانشين وحبات الصنوبر. كان يريد سبر أخبار دولة سونغ. منذ ذلك الوقت بدأ التواصل بين سونغ وجين.

الدعامة الأساسية لدولة جين قومية جورشين التي كانت تنحدر تحت إدارة دولة لياو. بعد مقاومات شرسة بقيادة الملك وانيان أقودا تمكنت من الانفلات من اضطهاد لياو.

قبل زمن طويل كان الإمبراطور يلويانشي قامت بجولة تفقدية إلى مدينة تشونجو بشمال شرقي الصين حيث كانت تصادف وليمة أول سمكة. دعا رؤساء القبائل لقومية جورشين لسقي الخمر. إن وليمة أول سمكة عبارة عن أولى الأسماك التي تم اصطيادها في فصل الربيع وتقديمها قرباناً للأسلاف. في الوليمة سكر الإمبراطور وأشار بإصبعه إلى رؤساء القبائل طلباً منهم الرقص على التوالي. كانوا يأبون الفكرة إلا أنهم قبلوا على مضض وبدأوا الرقص.

إلا أن ثمة رجل شاب وقف جامداً نظر إلى الإمبراطور بأطراف عينيه وأشبك ذراعيه أمام الصدر كأنه يقول: تباً لك أن نرقص من أجلك. إن هذا الشاب هو وانيان آقودا. كانت قومية جورشين عاشت اضطهاد دولة لياو طويلاً وظل يكن في نفسه حنقاً. والآن أمره الإمبراطور بالرقص. فقابله ببرودة.

لاحظ الإمبراطور عصيان الشاب فتحرج وقال فيما بعد لرئيس المكتب العسكري الشمالي شياو فونغشيان. إن هذا الشاب ذو قوة والبطش وليس من الناس العاديين. يجب اغتنام فرصة لقتله بحجة شؤون الدفاع في المناطق الحدودية. إلا فسيشكل مخاطر محتملة في المستقبل. رأى شياو أن قبل الشاب سيثير حفيظة القومية بأكملها.

فلم يبقَ سوى التخلي عنه.

بعد العودة من تشون جو، شرع وانيان في شد أزره استعداداً للتملص من رق لياو. كان يتفانى في الحكم ويأمر بصناعة الأسلحة وإنشاء القلعة حتى استطاع توحيد قبائل القومية على نحو متدرج. وقد حان الوقت لمقاومة دولة لياو. في 1114 الميلادي قاد جيشا لشن هجوم مباغت على جيش لياو. كان الجنود نزلوا كأنهم من البلاط السماوي. فقد جيش لياو عقله إزاء هجوم فرسان جورشين عددهم 2500جندي. حار وانهزم أمامهم وهمَّ بالفرار. فيما بعد، جرت اشتباكات بين جيش لياو وفرسان وانيان على ضفة نهر هونتونغ جيانغ. هذه المرة وقع جيش لياو في حالة فوضى عارمة وقد قتل منهم ما لا يحصى من الجنود.

تدريجياً ازداد جيشهم عدداً وعظمت قوة دولتهم. في 1115 الميلادي جرى تنصيب وانيان إمبراطوراً في هوينينغ وهي اليوم في جنوب مدينة آتشانغ بمقاطعة حيلونغ جيانغ. صار فاتح دولة جين.

بعد التنصيب عزم على إزالة دولة لياو كاملة. فجرت بين الطريفين اشتباكات عنيفة في معقل مهم بشمال شرقي الصين، ألا وهو هوانغ لونغ فو الواقع في بلدة نونغآن بمقاطعة جيلين اليوم. كان جيش جين يتحلى بالبسالة والدهاء. قاد إمبراطور لياو أكثر من مائتي ألف جندي للدفاع إلا أنه مني بالفشل وهم بالهروب. من أجل التفادي عن خسائر أكبر، أرادت دولة لياو المصالحة إلا أن كل ما نواه وانيان الهزيمة الكاملة للياو وإخضاعها لحكمه.

غضب الإمبراطور تيانزو من الخزي فقاد 700 ألف جندي لغزو دولة جين.

فقد قام الإمبراطور جين تاء زو بأهبة الاستعدادات الدفاعية إذ حفروا الخنادق ودعموا سور المدينة. إذا باضطرابات داخلية حصلت مع دولة لياو. فاضطر إمبراطور لياو إلى الانسحاب. تحين جين الفرصة لمطاردتهم، مما خسر جيش لياو أكثر من نصف جنوده. كاد أن يقع الإمبراطور في يد جين. بعد هذه المعركة تدهورت قوى دولة لياو.

وصل الخبر إلى دولة سونغ حيث أراد الإمبراطور سونغ هوي زونغ اغتنام الفرصة لاستعادة أراضي الولايات الشمالية الـ 16. فبعث ما جانغ رسولاً له إلى دولة جين. بعد تبادل البعثات والمفاوضات اتفق الطرفان على إرسال قوات في آن واحد لمهاجمة دولة لياو من جهات مختلفة. بعد القضاء على لياو تنضم الأراضي الشمالية إلى سونغ لكن على سونغ إرسال قوات لامتلاكها. إضافة إلى إحالة الـ 500 ألف عملة التي كانت تفتدي به دولة سونغ مقابل عدم الاحتكاك مع لياو.

تدعى هذه الاتفاقية فيما بعد بـ «حلف البحر».

بعد سنوات من الحروب الطاحنة أخذت دولة لياو تتلاشى تحت هجوم الدولتين. إلا أن مدينة يانجينغ (الشمالية) ما زالت تنازع للبقاء ولم تتمكن سونغ من اقتحامها. على حسب الاتفاقية كان على جيش سونغ مهاجمة المدينة إلا أن قدرة الجيش كانت متدنية والالتزامات شبه منعدمة. هزم في بادئ المعركة. فقد خسر جنوداً وقادة بل وقعت الأقوات التي خزنها لسنوات في يد جيش لياو. كان

قائد الجيش تونغ قوان يخاف من معاقبة الإمبراطور إذا علم، فطلب من جيش جين مهاجمتها نيابة عن دولة سونغ، بشرط تقديم مليون عملة سنوياً إلى دولة جين. فتمكن من استعادة يانجينغ في نهاية المطاف.

احتفلت الدولة لهذا الخبر.

إلا أن هذا الفرح الهش لا يدوم طويلاً، إذ تجلى ضعف إمبراطورية سونغ الشمالية بكل وضوح وجلاء إبان حرب مكافحة لياو. إن وانيان الطموح قد حول أنظاره إلى الجنوب. قام جنوده بإطعام الأحصنة وصقل سيوفهم استعداداً لمهاجمة بياجينغ. إن دولة سونغ الشمالية يتعرض لنكبة يظن البعض أنها مقدمة لنكبة جينغ آن. إنهم لم يفقدوا صوابهم.

143

استمات لي قانغ للدفاع عن العاصمة

قبل أن نستطرد للحديث عن نكبة جينغ كانغ، لنقم بتعريف للقب الإمبراطور.

((معجم اللغة الصينية المعاصرة)) يفسره بـ «طريقة التأريخ الخاصة للأباطرة». على سبيل المثال، كان الإمبراطور تانغ تاه زونغ يلقب بـ «جين قوان» ويشار إليه حالياً للدلالة على التاريخ الميلادي.

منذ زمن الإمبراطور هان وو دي جرى التأريخ على أساس ألقاب الأباطرة وبات يتشكل هذا النظام بالتدرج. فأحياناً إذا صادف تنصيب إمبراطور جديد أو إذا نزلت إشارات تؤذن بالخير أو أزمات داخلية أو خارجية، جرى تغيير الألقاب تعبيراً عن التبدد والتجدد. كثيراً ما تحمل الألقاب النية الطبية للأباطرة أو دعوة لتبديد القديم ليحل محله الجديد أو دعاء للحصاد الوفير وازدهار البلاد وأمن المواطنين.

لقد تحدثنا عن كثير من الألقاب بما فيها إصلاح فان جونغ يان الحاصل في زمن تشينغ لي وإصلاح وانغ آن شي الواقع في حقبة شي نينغ. إن تشنغ لي عبارة عن لقب الإمبراطور سونغ ران زونغ وشي نينغ لقب الإمبراطور سونغ شين زونغ.

سنة 1126 الميلادي غير الإمبراطور سونغ تشين زونغ لقبه إلى جينغ كانغ. كانت 1126 فاتح هذه الحقبة. لفظ جينغ كانغ تعرب عن تمنيات الإمبراطور لتوقف الحروب والاضطرابات وإعادة الاستقرار. من سخرية الأمر أن هذا اللقب كان آخر لقب في عصر سونغ الشمالية. وأن التمنيات الإمبراطور لم تتحقق بل وقد هالت عليه نكبة أوقعت بدولته وكانت بمثابة عار وطني كبرى.

لنواصل الحديث عنها فيما بعد.

قبل فاتح جينغ كانغ بسنة أي 1125 الميلادي جرى تنصيب الإمبراطور جين تاء زونغ وهم بالقضاء على دولة لياو. لم يمض على ذلك طويلاً حتى أمر اثنين من قادته هما وانيان زونغوانغ ووانيان زونغهان بالنزول صوب الجنوب. في عضون عشرين يوم قهر فرع من جيش جين إلى حدود المدينة تائيوان. أما الفرع الثاني فكان يحاصر مدينة جونغ شان التي تبعد عن العاصمة بمسافة يمكن قطعها في عشرة أيام.

عندما لاحظ الإمبراطور تدهور الأوضاع اعترف في صميم قلبه أنه عاجز عن فعل أي شيء فتخلى عن العرش وفر إلى مدينة هاوجو مع 20 ألف جندي في الجيش الملكي. اكتفى بالحياة في الذل وترك الوضع المضطرب لولي العهد جاوحينغ. وهو الإمبراطور سونغ تشين زونغ.

بعد ستة أيام من التنصيب صادف السنة الجديدة فغير لقبه إلى جينغ كانغ، متمنياً الأمن والرخاء. لكن، كيف السبيل إلى ذلك؟ أيختار المصالحة أو المقاومة؟ لا بد من مواجهة هذه المعضلة. كانت في البلاط نقاشات حامية الوطيس. الأغلبية منهم اتخذوا فكرة التخلي عن الأراضي للمهادنة إلا أن نائب وزارة المراسيم لي قانغ جازم على المقاومة قائلاً: إن الأراضي التي خلفها لنا الأسلاف لا يمكن التنازل عنها لو حتى شبر. بل يجب أن نستميت للدفاع عنها.

كانت صيحات المقاومة تعلو في أرجاء البلاد، فلا مفر من اتخاذ رأي لي قانغ. عينه وزير الدفاع وزعم أنه سوف يقود جيشاً لمحاربة جين. إلا أنه كان شبيهاً بأبيه من حيث النزوات. أحياناً استعلى يظن أن الانتصارات وشيكة، أحياناً صار جباناً لا يريد إلا المصالحة والاستسلام. رغم أن لي قانغ كان يشجع الإمبراطور على الدوام إلا أنه تحت نصائح الوزراء المؤيدين للمصالحة لم يستقر على رأي واحد، خاصة تواردت أخبار الانهزام من الخطوط الأمامية إلى البلاط مما زعزع ثقة الإمبراطور.

علم توجسه لي قانغ فقصد البلاط لاستمالته.

قال: عندما تنازل الإمبراطور السابق عن عرشه لجلالتك كان أمنيته أن تحافظ على العاصمة لكيف بالإمكان الانصراف؟

وقع الإمبراطور في حيرة، حتى شاهد رئيس الوزراء حرج الموقف عند الإمبراطور خرج من الصف قائلاً: إن المنشآت الدفاعية للعاصمة لم تكن ثابتة فكيف تصبر أمام هجمات جيش جين؟

رد عليه لي بعبارات قاطعة: إن الأبراج في بوابة العاصمة أقوى من جميع المدن الأخرى. إذا جلالتك تراقب الحرب داخل المدينة استقرت معنوية الجيش فكيف يعجز عن الدفاع عن العاصمة. هناك من أثار شغباً عند الناس ولا يعرف شيئاً سوى الاستسلام.

لاحظ باي أن سهام الكلام اتجه إلى نفسه فكف عن الكلام.

سأل الإمبراطور: إذاً من يمكن أن يضطلع بالمهمة؟

قال لي: لو لم يشك جلالتك الإمبراطور في لأقوم بهذا الدور. إني أقسم للدفاع عن العاصمة.

أجاب له بالجواب لكن رئيس الوزراء كان يخاف على حياته وتوسوس عند الإمبراطور تزعزع مرة أخرى. في الصباح التالي قد جهز باي للإمبراطور عربات الحصان. تحت حماية الجيش الملكي استعد الهروب مع الإمبراطور. عندما وصل لي إلى البلاط ولاحظ هذا استشاط غضباً. فحال أمام جنود الجيش الملكي يسأله: هل تريدون الدفاع عن المدينة أم الفرار؟

أجاب الجنود بصوت واحد: نريد الدفاع.

فانتهز هذه الفرصة ينصح الإمبراطور: إن أقرباء الجنود كلهم قاطنون في بكين. إن أرغمتموهم على الانصراف لن تستقر المعنوية ولن يقوموا بدورهم لحماية جلالتك. هذا الكلام أيقظ الإمبراطور فلم يعد يجرؤ على الفرار.

إذن، أطلق لي استعدادات للدفاع على قدم وساق حيث نشر قوات حول العاصمة وأمر بتجهيز الأحجار والأغصان لدحرجتها عند وصول الأعداء، كما جند ألفين مقاتل يتعهد بالموت في وجه العدو. بعد ثلاث أيام نزل قائد جين وانيان بجيشه على المدينة. كان الجيش استقل بعشرات من سفن الحرق تهبط على طول النهر استنفاراً لهجوم باب شوانزا. إلا أن السفن توقفت فجأة قبل الاقتراب من الباب. السبب أن جيش سونغ كان قد خطف السفن بالصنارة حتى عجزت عن المضي

قدماً. كان جنود جين ما زالوا في حالة الذهول. إذا بأحجار تتهاوى كالجليد. سقطوا في الماء وهم ينتحبون وتم إسقاط سفن الحروق قاطبة.

وقف لي مدججاً على برج المدينة لإعطاء الأوامر في الميدان. تسلق جنود جين من على السلم لقهر المدينة فأمر رماة السهام بالإطلاق كما أمر بإهباط السلالم المؤدى إلى البرج وإحراقها مما سبب خسائر فادحة لجيش جين. لم يستطع جيش جين احتلال المدينة بعد هجوم طويل. إلا أن الإمبراطور أرسل بعثة للتفاوض معهم ووقع اتفاقية العار في حين استمات لي للدفاع عن المدينة.

على حسب شروط التي طرحتها دولة جين يفترض أن يوقر الإمبراطور سونغ تشين زونغ إمبراطور جين ويدعوه بالعم، إلى جانب التنازل عن المدن الثلاث هي تاء يوان وجونغ شان وهاجيان. علاوة على تسليم كميات هائلة من النقود الذهبية والفضية والمواشي والمنتجات الحريرية تعويضاً عن الخسائر. كان لي قانغ عن المهادنة جملة وتفصيلاً وكان يتمنى من الإمبراطور تعزيزات إلا أن الإمبراطور وبخه واستعجل في تأدية التعويض لإبعاد جيش جين.

بعد عشرة أيام وصلت التعزيزات بعدد مائتي ألف جندي.

كان بجيش جين ما لا يعدو ستين ألف جندي فلم يبق سوى أن يختبأوا في حصنهم. لما وصل معسكر سونغ داخل المدينة هذا الخبر تعالت معنويات سونغ حالاً. على حسب تعليمات قائد الجيش المعزز زونغ شي داو، إن جنود جين سافروا طويلاً وهم عاجزون عن ضمان الأقوات. بناء على هذه الظروف يجب إيقاعهم في ورطة بالتحصن في المدينة حتى إذا ما بدأ الانسحاب باشر في الرد عليهم. إلا أن القائد الثاني في الجيش ياو بينغجو كان يعترض مقترحاته وكان مؤيداً لفكرة الهجوم الطارئ والقضاء عليهم بسرعة. بعث ياو فريقاً من جنود الأحصنة ليلاً ليطرأ على معسكر جين إلا أن الخبر تسرب قبل ذلك وقد استعد جين كل الاستعداد.

وقع الجيش في فخ وخسر أكثر من ألف جندي البعض منهم توفوا والآخر تعرضوا للجروح.

استغل الوزراء المؤيدين للمصالحة هذه الفرصة ليبالغوا أمام الإمبراطور في خبر الخسارة ومدى بطش جيش جين. تعجل الإمبراطور في إرسال البعثات للاعتذار قام بإعفاء لي قانغ وزونغ شي داو من منصبيهما. استنفر الخبر جنود المدينة وشعبها، خاصة قد استنفر طلبة المدرسة

الحكومية. حاصروا القصر الملكي بقيادة الطالب تشين دونغ طلباً لإعادة تعيين القائدين ومعاقبة لي بانغتشن وباء شيجونغ.

صار الإمبراطور على علم بطلب الحشود وكان يخشى وقوع شغب داخل المدينة الذي قد يخاطر بعرشه ففسر الإعفاءات بأن تسريح لي كان بسبب أغلاطه في قيادة الجيش وتعهد بشطب الأمر حينما انسحب جيش جين.

إلا أن هذه العلة لا تنل رضا الجمهور الغاضب حيث اندفعوا إلى البلدية وضربوا على الطبل تعبيراً عن الاحتجاجات. فاضطر الإمبراطور للتنازل وأعلن إعادة الاثنين إلى منصبيهما. رحل الجمهور مهللاً حينما عين وصول الاثنين على عربة الخيول. تكلل طلب الجمهور وطلبة المدرسة بالنجاح وقد ارتفعت معنوية الشعب لطرد جيش جين، إضافة إلى عودة لي وقدرته على إدارة الجيش. لاحظ جين أن الوضع لم يعد في صالحهم فهم بالفرار وهو ما زالوا في انتظار تتمة المبلغ.

144

الإمبراطوران الأسيران

أول قصيدة دونت في ((ثلاثمائة قصيدة في عصر سونغ)) تحمل عنوان «عند مشاهدة زهور المشمش في الرحلة إلى الشمال».

كتب في الجزء الثاني من القصيدة ما يلي: هذا الأسى، من يبعثه إلى بلدتي نيابة عني؟ هل الطائران هما اللذان سيقومان بالعمل؟ إلا أنهما كيف يفهمان كلامي وخواطري؟ أجيل بصري وأين بلدي؟ إن بلدي يبعد عني بمسافة بعيدة الآن حيث الآلاف من الجبال والأنهار. أحلم ببلد في الحلم أحياناً لكني لا أبرهن على الحلم. كما أن الحلم عندي بات قليلاً في الآونة الأخيرة.

هذه القصيدة التي يفيض فيها الحنين إلى الموطن والأسى كان بقلم الإمبراطور سونغ هوي زونغ.

ذاك الوقت كان قد وقع أسيراً عند معسكر جين قاصداً الشمال وكان يعيش عناءً كبيراً. في هذه الهجرة التي ساءت ظروفها وكثرت الاضطرابات لم يتمالك استحضار ذاكرة الأيام في فناء الإمبراطور المبنى بدماء الشعب ودموعهم في العاصمة والدعة والراحة التي كان يتمتع بها. إلا أنه مهما استرجع من الذاكرة لن يرجع إلى تلك القصور والأيام.

إذن، لقد انسحب جيش سونغ فلماذا وقع الإمبراطور أسيراً؟ لنستطرد في الحديث. فقد تراجع قائد سونغ وانيان زونغوانغ واسترخى الإمبراطور سونغ تشن زونغ وظن أن الأزمة قد تم انفراجها ولا داعي للقلق. طرح القائد جونغ شيداو فكرة الهجوم المباغت عندما يعبر جيش جين النهر الأصفر للقضاء عليهم مرة واحدة. لم يعمل بهذا المقترح بل أعفاه من المنصب من جديد. كذلك كان لي يذكّر الإمبراطور مرات عديدة بأهمية تدعيم الدفاعات إلا أن الإمبراطور غدا ممتعضاً حينما كثرت المقترحات ولم يعد يتجاوب معه.

رغم انسحاب جيش وانيان زونغوانغ إلا أن الفرع الثاني وانيان زونغهان ما زال يحاصر مدينة تائيوان ولم يتراجع. تم إبادة الجيش المعزز بقيادة شي جونغ تشوان بالكامل. اشمأز الإمبراطور من كثرة الأمور عند لي قانغ فبعثه لنجدتهم حتى يستطيع فعل ما يشاء في البلاط. رغم أن لي قانغ كان قائد الجيش إلا أن التابعين من القادة لم يطيعوا أوامره. أما الجيش الحديث فتم حله إجبارياً من قبل البلاط والنفقات العسكرية التي كان يحتاجها لم يتم تخصيصها على حسب مقتضيات الحاجة.

تحت هذه الظروف باءت معركة تائيوان بالفشل الذريع.

اغتنم الوزراء المؤيدين للمصالحة هذه الفرصة لتلفيق الافتراءات ضد لي قانغ. فقرر الإمبراطور تنزيله إلى الجنوب. إن أكثر القادة الذين كان يخشاهم قادة جين لي قانغ، أما الآن فقد تم إقصاءه ولم يعد من وازع ولا رادع. فحث وتيرتهم في محاصرة المدينة. رغم المقاومة الشرسة التي خاضها جيش المدينة وشعبها إلا أن القوت قد استنفد وكان لا مفر من الفشل. بعد فتح باب المدينة خاض وانغ بينغ قائد المدينة معركة شرسة مع الجنود في أزقة المدينة فضربهم ضربة قوية إلا أن محاولاته باءت بالفشل في نهاية المطاف.

أخذ جنود جين مدينة تائيوان ونزل صوب الجنوب باتجاه بيانجينغ. كان الإمبراطور سونغ تشين زونغ يشغل باله للمصالحة فأمرهم بالبقاء حيث هم. هاجم القائدان من جهة الشرق والغرب على مدينة بيانجينغ على حدة. عندما وصل وانيان زونغهان إلى الشط الشمالي للنهر الأصفر ما زال في الشط المقابل أكثر من مائة جندي لجيش سونغ أقام خيمة للدفاع. لم يجرأ على العبور في بادئ الأمر، إلا أنه يعرف جبانة جيش سونغ فأمر بضرب الطبول.

سمع جنود صوت الطبل فظنوا أن جيش جين سيعبر النهر. ففروا أفواجاً.

في اليوم التالي لم يبق في معسكر سونغ إلا الأسلحة المنبوذة في الأرض والخيم الفارغة. إن أكثر من مائة ألف جندي لاذوا بالفرار خلال ليلة واحدة. كيف بإمكانهم التصدي لجنود جين؟ على هذا المنوال وفق في عبور النهر دون خسران جندي واحد. في الوقت نفسه، استطاع الفرع الثاني من جيش جين العبور صوب الجنوب.

تقدم الفرعان صوب مدينة بيانجينغ. فزع الإمبراطور لهذا الخبر فأوصى بأخيه جاوقو للمصالحة في معسكر جين. مر جاو بمدينة فواجو وزونغجو. عندما وصل إلى تسيجو بمقاطعة خبي منعه الشعب المحلي من السير قدماً. استقبله قائد المدينة قائلاً: لقد ذهب الوافد شياووانغ في المرة السابقة دون الرجوع. والآن أراد الأعداء أن تروح إليهم بالافتراءات. فقد وصل جنودهم إلى مشارف المدينة وبات العاصمة في متناول أيديهم فما جدوى المصالحة؟ يرجى عدم القدوم. جاو كان هو الآخر الذي يخشى أن يقبض جنود جين عليه فاختار البقاء في مدينة شيآنجو وهي اليوم تعرف بمدينة آنيانغ في مقاطعة خنان.

اندفع الفرعان من جيش جين إلى العاصمة لشن هجوم عنيف. كان تعداد الجيش الملكي ثلاثين ألف إلا أن النصف منهم قد هربوا. إن هذا الجيش لا يقدر على المقاومة. في مواجهة هذا الوضع البائس ندم الإمبراطور شديد الندم لإصغائه للأخبار الملفقة وإصراره على المصالحة وتنزيله للقائد لي قانغ وإبعاد جيوش الإغاثة.

لقد فات الأوان فهل تجدي الندامة بشيء نفعاً؟

وقتذاك جاء أحد الوزراء بسحري اسمه قو جينغ قال إنه يستطيع نشر جيش ضخم بمجرد رش العدس على الأرض حتى يقبض على قائد الجيش العدو. يصدق الإمبراطور هذا الافتراء الرديء جد التصديق. سيّر قو جيشه السحري عدده 7700 جندي خارج المدينة لمجابهة العدو. وما لبث أن انكسر فور الالتحاق بالعدو. لاحظ الإمبراطور أن كل السبل قد انقطعت فاستسلم وقصد معسكر جين للمصالحة. كان وان يان يتطلب منه التخلي عن كافة الأراضي في شرقي النهر الأصفر وشماليه والافتداء بعشرة ملايين سبيكة ذهب وعشرين مليون فضة، إلى جانب عشرة ملايين قطعة من القماش. مهما كانت الشروط من القسوة كان لا بد منه الانصياع خوفاً من حياته.

بعد عودة الإمبراطور قام بسلب ما لا يحصى من التحف الفنية والذهب والفضة وأعمال الخطاطين والرسامين تلبية لطلب دولة جين. إلا أن مطامع جين كانت لا يحدها شيء إذ أخلف وعد الانسحاب ودخل العاصمة وأسر الإمبراطورين سونغ هوي زونغ وسونغ تشن زونغ وغيرهما من الأسر الملكية وقام بتنصيب جانغ بانغ تشانغ الإمبراطور الجديد بعجلة.

وقد وضع بذلك حداً لإمبراطورية سونغ الشمالية التي حكمت الصين 167 سنة.

هذه السنة صادفت 1127 الميلادي وهي السنة الثانية منذ تغيير اللقب إلى جينغ كانغ. يمثل شهر أبريل زمن تفتح الزهور إلا أن الاثنين من الأباطرة لن يستسيغ فرح انتعاش الدنيا في هذه الأجواء الربيعية. وبالضبط في الطريق إلى المنفى الشمالي نظم الإمبراطور سونغ هوي زونغ عند مشاهدة «زهور المشمش في الرحلة إلى الشمال». إن العمران ميال إلى الانهيار وكل تلك القصور الفخمة والحدائق الملكية الخلابة باتت أثراً بعد عين. إن الذي سوف يستقبله هو حياة الأسير في غربة عن الموطن، هو حياة الكوخ المهترئ، وهو ما لا يحده من الذكريات والندامة.

حقيقة الأمر أن الإمبراطور سونغ هوي زونغ لم يكن الوحيد الذي تغيرت مسيرة حياته بفعل الانقلابات الكبرى بل هنالك ما لا يحصى من ذوي الشأن والأدباء والجمهور الغفير قد تغير مصيرهم. في تيارات العصر الجارفة يبان الفرد ضئيلاً لا يعتد به. إن القصص التالية سيرد فيها الكثير من الشخصيات التاريخية التي انجرفوا لهذا التيار وتقلب بفعل ذلك مسار حياتهم.

نأخذ على سبيل المثال تشن هوي. في هذه السنة كان المسؤول تشن الذي شغل منصب نائب الرقابة لم يكن خالياً من الاستقامة. كان يعارض التخلي عن المدن الثلاث والآن يعارض تنصيب جانغ بانغ تشانغ فوقع أسيراً لجين. لم يتمكن من الانفلات إلا بعد ثلاث سنوات. إلا أنه لم يعد على ما هو عليه بعد العودة.

ليكن يوا في مثال آخر. فقد أمسك يوا في الشاب من أصل مدينة تانغ يين بالرمح وقرر الانضمام إلى جيش زونغ زي ليباشر بعد ذلك بوقت قصير مسيرته كقائد شهير.

مثال ثالث ألا وهي لي تشنغجاو. في هذه السنة أيقظتها الحروب الطاحنة من حلم الحريم فتسرعت في انتقاء التحف التي جمعتها واستعدت للهجرة إلى الجنوب. رغم أنها قد تخلت عن كثير من الرسوم النفيسة والتحف والكتب إلا أن ما تبقى لديها قد ملأت 15 عربة الخيول. كيف تنقل هذه الدفعة من التحف في زمن سادت فيها الفتنة والحروب؟

145
الشاعرة لي تشنغجاو

لها قصيدة تحمل عنوان «أنشودة كالحلم».

تتميز القصيدة بالبحر الخفيف والأسلوب السهل المتألق. تحس بما رسمتها القصيدة من المناظر تتجلى تدريجياً إذا قرأتها. إنها ترسيم لنزهة صيفية رحلة قصيرة على ظهر جورب بجوار صاحباتها في الحريم. إن مقصدهن كان سقيفة خشبية مطلة على البحيرة.

فقد نقلن جرة خمر إلى السقيفة وقد فرشن الحلويات والفواكه وغيرها من الأكل. بصحبة الشمس وحفيف الرياح والمناظر الخلابة للبحيرة والجبل، استقن فنجاناً بعد فنجان.

تدريجياً هبت الرياح الشبمة وغربت الشمس وكثفت ظلال السقيفة وقد جنح اليوم إلى إسدال ستاره. لا بد من العودة إذاً. غرفت البنات ما خلفنه من الأغراض المبعثرة وجرفن المجذاف للعودة. تحرك المجذاف وئيداً وئيداً على سطح النهر فتقدم الزورق بأناة وهدوء. يتكئن بعض صاحباتها المتعبات في زاوية من الزورق يغرقن في القيلولة وقد علت وجوههن ابتسامة غير واعية. انحط الغروب على البحيرة واعتلى من على سطحها شيء كأنه الغلالة السوداء الشفافة.

همّت البنت التي كانت تحرك المجذاف واقفة وتركت المجذاف تجيل النظر وكانت حائرة، إذ أخطأت الطريق بفعل الخمر وقد دخلت غابة من زهور النيلوفر. أيقظت صاحباتها في ذهول، ما العمل؟ كانت البنات في شيء من الجزع فحركن المجذاف جميعهن. تعالت التأوهات وصوت سير المجذاف حتى وقد باغت النورس القاطنة على شاطئ البحيرة. خفقت أجنحتها مذعورة تحلق في السماء ولا تعرف أين تحط.

لم تتمالك البنات في الضحك عند مشاهدة هذا المنظر واستيقظ الغسق على ضحكات البنات.

قد أفرغنا من ((أنشودة كالحلم)) لننتقل إلى ((أناة الأصداء)).

في الجزء الأول من القصيدة وردت فيها الخمر الخفيف والإوز البري والزهور الصفراء والأمطار الرذاذة والغروب. فقد طغت علينا الرموز حاملة صيحات حياة المرأة البائسة الكئيبة ونحن على حين الغرة. ما هذا الأسى والحزن؟

لقد اعتراك هذه الإحساس: الأولى من القصيدتين تتحلى بالشروق والبهاء أما الثانية فيغص بها الكآبة والبأس. هذا الفرق الشاسع بين القصيدتين يحدونا إلى التساؤل: ماذا حصل مع شاعرتنا؟ كيف انتقل وجدانها من البهجة والسرور إلى التعاسة والأسى؟ ما الذي أدى إلى تآكل صفائها؟ ما هي الأيام التي تكدست فيها آلام الشاعرة؟

لنتحدث عن مسيرة حياة شاعرتنا في عجالة.

كانت لي تشين جاو من مواليد مدينة لي تشانغ وهي ما تعرف اليوم بجينان في مقاطعة شاندونغ. ولدت في أسرة ساد فيها جو العلم والأدب حيث كان أبوه تلميذاً لسو شي وهو الآخر الذي كان أديباً شغل منصباً حكومياً في عهد الإمبراطور سونغ هوي زونغ. لذا اكتسبت فنون الشعر والأدب والخط الرسم منذ صغرها، خاصة في مجال نظم القصيدة الذي كانت بارعة فيه.

في الـ 18 من العمر تم تزويجها إلى ابن نائب وزير التنظيم جاو مينغتشانغ. كان الزوجان يتشاركان نفس الهموم حيث كانا يحبان الأحجار الذهبية. ما يقصد بالأحجار الذهبية الخط أو الرسم المنقوش على الأدوات النحاسية القديمة أو على النصب الحجري. كادا يفرغان كل أموالهما لشراء هذه التحف حتى بعد أكثر من عشرين سنة من الجهود استطاعت لي مساندة زوجها في إنجاز أول كتاب دونت فيها التحف التاريخية القديمة في الصين يحمل اسم ((سجلات الأحجار الذهبية)).

ما زالت مدينة بيانجينغ مستقرة بحيث عاش الاثنان حياة هانئة.

في هذه الحقبة كان الغالب في شعر لي تشين جاو التعبير عن هموم الحريم إذ لما تجرب تقلبات العصر فالهموم وقتذاك كانت ضحلة خفيفة، من أمثلة أعمالها ((أنشودة كالحلم)) السهلة الترتيل التي أعربت عن الحب للأشياء البهية والتعلق لشبيبة الحياة والأسف لفقدانها من خلال ترسيم قيام بنت الحريم من النوم وحوارها مع جارياتها.

هزت القصيدة مدينة بيانجينغ كلها. قيل إن كل الأدباء والمثقفين كانوا أطروا عليها بالمديح بعد قراءتها. ابتدعت لي في نشيدتها غير مقيدة بأعمال السابقين وكثيراً ما كانت تستعمل اللغة الشفوية السهلة المسترسلة وخلقت صيغة أدبية فذة من نوعها. كانت تدعو نفسها «ييآن» فصارت لهذه الصيغة اسم «ييآن».

غير أن جنود جين نزلت صوب الجنوب في وقت ندت في إمبراطورية سونغ الشمالية الأغاني والرقص، مما أيقظ الإمبراطور سونغ هوي زونغ من الحلم وأيقظ شاعرتنا من حلم الحريم.

هذا قد وضع حداً لحياة الزوجين الهانئة. ما جاء بعدها هو الطريق الواعر المليء بالعناء والحرمان والكآبة. استعجلت لي تشين جاو في انتقاء التحف الفنية التي جمعتها خلال السنوات العشرين المنصرمة احتياطاً للحرب واستعدت لتهاجر إلى الجنوب. رغم أنها قد تخلت عن كثير من الرسوم النفيسة والتحف والكتب إلا أن ما تبقى لديها قد ملأت 15 عربة الخيول. لم تتمكن من الالتحاق بزوجها مع هذه التحف النادرة إلا بعد عناء كبير في أيام الحرب والفتنة.

إلا أنه من غير المتوقع أن يتوفى زوجها جاو مينغتشانغ بعد مرض عضال. إن الوجع الكبير لفقدان زوجها وما يعتريها من الحزن إبان سقوط الدولة كان يشكلان ضربة موجعة لها. استهلت في حياة التشرد بعد ذلك حيث انتقلت بين عديد من المدن مثل هانغجو ويواجو وتائجو وجينهوا وغيرها. تناثرت عربات من التحف التي تجلت فيها جهود الزوجين شيئاً فشيئاً، شأنها شأن الأيام السابقة التي لا يمكن التشبث بها.

كانت الشاعرة تعيش العزلة حيث لم يكن أحد يكترث بكآبتها وأوجاعها. لم يبقَ سوى أن تكبها في جنبات قصائدها.

ولدت لي في زمن الاستقرار والعمران ورحلت عن الدنيا كئيبة في زمن الاضطرابات.

إن مسيرة حياتها نحت منحى آخر بفعل نكبة جينغ كانغ. بالنسبة لها كانت النكبة تشكل مصدراً للبلاء والمحن. إلا أنها تمثل حظاً موفقاً للأوساط الشعرية لأن ما خلفته من القصائد غدت من عيون الأدب الصيني التي لا تمحى في التاريخ الثقافي. صار الأدباء الشعراء في العصور المتعاقبة يعتبرونها ممثلة لشعر اللطف.

تصنف أعمالها إلى المرتبة الأولى من بين قصائد اللطف المتنوعة.

146

يوا في الذي رد الجميل على بلده بالولاء

تم نفي الأسر الملكية إلى الشمال ولم يبق منها سوى جاوقو الذي هرب إلى الجنوب كئيباً.

في مايو 1127 تولى جاوقو السلطة في مدينة نانجينغ وهو من يعرف بسونغ قاو زونغ. فيما بعد نقل العاصمة إلى لين آن وبما أن المدينة تقع في جنوب شرقي البلاد مطل على البحر تسمى بلاده بدولة سونغ الجنوبية. في نضالات ضد دولة جين انبثق في التاريخ عدد كبير من القادة المشهورين الذين يحملون على أكتافهم مهمة استعادة الأراضي، كان أشهرهم القادة الأربع الذين نهضوا بالدولة. كان يوا في يأتي في المرتبة الأولى من بينهم. إنه قائد يكاد يعرفه الجميع وقد صار رمزاً لحب الوطن.

إنه بطل بلادنا الذي ضرب صيته الآفاق. لقب ببينغ جو ومن مواليد بلدة تانغ يين لمدينة شيأنجو الواقعة في مقاطعة خنان اليوم. كان عازماً في صباه صامتاً وفياً قليل الكلام. كانت أسرته تعيش الفقر والعوز وقد تجرع مرارة الحياة إلا أنه انكب في الدراسة وكان مولعاً بقراءة ((تاريخ عصر الربيع والخريف)) و((فن القتال)). غرس يوا أمنياته لرد الجميل على بلده وسط الحروب الطاحنة بين الدولتين. وشمت أمه على ظهره «رد على بلدك بالولاء» تشجيعاً له. صارت هذه القصة معروفة باسم «وشم أم يوا في».

من أجل القتال في المستقبل، اعتكف على تعلم القتال خاصة تسديد السهام. كان تفنن فيه. تدفقت فيه القوة حتى استطاع شد قوس وزنه 300 كيلو وتشغيل قوس آلي بوزن 480 كيلو وهو ابن أقل من عشرين سنة.

عندما نزل جنود جين إلى الجنوب انضم إلى الجيش وكان ضابطاً عسكرياً تحت القائد زونغ زه. ذات مرة كان يدرب أكثر من مائة فرسان جنب ضفة النهر الأصفر وإذا بأضعاف من الجنود.

كان رجاله وقعوا في حالة الفزع إلا أن يوا قال بتثاقل: بإمكاننا الهجوم المباغت عليهم وهزمهم.

قال هذا فاندفع بحصانه على الأعداء وضرب رأس أحد قادتهم قبل أن يدرك جنود جين الأوضاع. تحت قيادته كان جنوده يستميتون في القتال حتى اضطر جيش جين للفرار.

عرف يوا بالبطش وكان زونغ زه يهتم به ويراه كفؤاً نادراً في كفاءته. واقترح عليه تعلم فنون القيادة بدلاً من مجرد الاندفاع في ميدان المعركة. أعطاه خريطة نشر الجنود حتى يتعلم منها.

فهم يوا قصد زونغ فهم بدراسة فنون ترتيب الجيوش.

بعد تولي الإمبراطور سونغ قاو زو السلطة رفع يوا رسالة إلى الإمبراطور متمنياً أن يقود الإمبراطور شخصياً الجيش لاسترداد الأراضي المفقودة. طبعاً لم يصغ الإمبراطور لأمره بل يسبه بتجاوز وظيفته. بعد رحيل زونغ انضم تحت لواء دوتشونغ. كان دو غروراً جباناً. حينما حاصر مدينة بيانجينغ جنود جين، تخلى عن المدينة على الفور هرباً إلى جيانكانغ. إلا أن جين حاصروا جيانكانغ بسرعة ولم يعد قادراً على الهرب هذه المرة فاستسلم.

كان يوا في الوحيد الذي عزم على مواصلة النضال.

عندما تراجع ووشو أخذ يوا في زمام المبادرة للهجوم وهزم جنود جين. لفضل مساهماته في ميدان الحرب ارتقى يوا من قائد بسيط إلى القائد العام محلياً. فقد وضع الأولوية القصوى لاسترداد الأراضي المحتلة ولم يكن ساعياً للمصالح الذاتية حتى إذا كافأه الإمبراطور سونغ قاو زونغ بيتاً فخماً ذات مرة لم يقبلها بل قال: كيف أعتني بأسرتي طالما لم يتم القضاء على الأعداء؟

كان صارماً مع رجاله فاستطاع تكوين جيش ذو انضباطات صارمة. عند السير الجيش والمبيت في الهواء الطلق لا يمكن تحرش الشعب مهما كان الجو بارداً. قيل إن جندي استخدم كومة من الحشيش للشعب لإشعال النار دون الترخيص فعوقب حسب أنظمة الجيش. شاع في جيش يوا مقال: لا يمكن تدمير بيوت الناس وإن نموت من البرد ولا يمكن نهب الشعب وإن نموت من الجوع.

لم يكن يكتفي يوا بالصرامة وحسب بل يعتني بجنوده وكان يصنع أدوية لجندي مريض. بعد كل معركة كان يتفقد المعسكرات ليسلم على الجنود. إذا لقي جندي حتفه في المعركة تكفل برعاية أبنائه ولم يستأثر بمكافآت البلاط مرة بل كان يوزعها على جنوده.

صار الجيش جيشاً لا يقهر بفضل قائده السهل المعشر الذي تفنن في القتال.

حينما رأى جنود جين علم جيش يوا هموا بالفرار لذا شاع مقولة ثانية في ذاك العصر: أن تهز جبلاً أسهل من أن تهز جيش يوا.

سنة 1140 الميلادي بعثت دولة جين القائد ووشو للنزول إلى الجنوب. فقد أقلع عدد من المدن حتى وقد اقترب من مدينة لينآن. كان يأمر الإمبراطور سونغ قاو زونغ بالمقاومة في ذهول. تلقى يوا في الأمر فنزل إلى مدينة يانتشغانغ لقيادة الجيش بشخصه. شعر ووشو بالهلع عندما علم الأمر حتى استدعى قادته للاستشارة. جل قادته كانوا يظنون أن جيش يوا صعب ولم يبق سوى المجابهة بالصبر. فوقعت بين الجيشين معركة كبيرة في جوار مدينة يانتشغانغ.

باشر ابن يوا في وهو يوا يون القتال وظفر بأول نجاح. فاضطر ووشو إلى استخدام «البرج الحديدي» هو عبارة عن ترتيب ثلاثة فرسان في صف واحد، مع تدجيج الأحصنة حيث يندفع الحصان في وسط الصف ويتبعه الاثنان الباقيان من الشمال واليمين. لقد ظفر بالعديد من النجاحات بتسخير هذه الاستراتيجية إلا أنها فشلت أمام يوا في.

استشف يوا إلى نقاط ضعف هذه الاستراتيجية عند أول مجابهة.

أمر الجنود بقطع أرجل الحصان. حينما بدأت المعركة اندفع جنود سونغ الجنوبية على الأعداء واستهلوا في قطع أرجل الأحصنة عند جنود جين حتى سقط من عليها ووقعوا في حالة الاضطراب. مُني جيش جين بخسائر فادحة وعندما علم ووشو الأمر أجهش بالبكاء إلا أنه لا يروق له الاستسلام فقاد جيشاً ضخماً بعدد 120 ألف جندي لغزو المدينة يانتشغانغ.

استطاع القائد يانغ زاشينغ قهر جنود جين بمجرد ثلاثمائة فرسان.

فيما بعد نزح ووشو إلى مدينة يينغ تشانغ إلا أنه قد التقى مع جيش يوا مرة أخرى ومُني بفشل ذريع. لم يبق له سوى الانسحاب صوب الشمال. طارده جيش يوا اغتناماً لهذه الفرصة حتى وقد وصل إلى بلدة جوشيان التي على بعد 25 كيلومتر من المدينة بيانجينغ. تراءت أمامهم فرصة استعادة الأراضي وقد قصدهم الجمهور لاستقبالهم أفواجاً. قال يوا في لجنوده بنشوة: لننفان في القتال الآن وعندما نقهر عاصمة لياو سنقيم وليمة للاحتفال.

إنه كان يحلم باستعادة أراضي وسط الصين.

والآن قد تأتت له الظروف فهل له أن يحقق أمنياته؟

كان الجواب نفياً وقد توقف مشروع يوا في عند هذا الحد، إذ صار هناك من عرقله وأوقعه في سجن تعسفي وكان العدل منعدماً. من هو؟ إنه تشين هوي الذي كان يعارض بشدة التخلي عن المدن الثلاث والآن يعارض تنصيب جانغ بانغ تشانغ فوقع أسيراً لجين. لم يتمكن من الانفلات إلا بعد ثلاث سنوات. إلا أنه لم يعد على ما هو عليه بعد العودة.

147

غدر تشين هوي دولته لكسب المناصب

بانت على سطح النهر القريب من مدينة تشوجو سفينة في أكتوبر 1130 الميلادي.

كانت المنطقة يقع فيها معسكر جيش بلدة ليانشوي. أجرى الجنود جولة تفقدية وقد وجدوا السفينة حيث خمسة رجال ومرأتان. كان الواحد منهم يزعم أنه النائب السابق لهيئة المراقبة تشين هوي. وقال إنه بعد سقوط بيانجينغ اضطر للهجرة مع الإمبراطورين وكان يتبع جنود جين للقدوم إلى الشرق وكان يتأتى له الهروب. لم يتمكن من العودة إلا بعد عناء ومشقة. لم يصدق قائد الجيش مزاعمه وقرر نقله إلى مدينة شاوشينغ بعد استشارة الحكومة لكي يتأكد منه وزراء البلاد.

انقطع الطريق البري المؤدي إلى المدينة فكان لا يد من الإبحار.

في شهر نوفمبر وصل فريق تشين هوي حيث قص لبلاط الإمبراطور ما حصل. قال إنه قتل مراقبه واستحوذ على السفينة للعودة. أثار كلامه نقاشات البلاط حيث هناك الكثير من الوزراء يحتج بأن من بين الأسرى خه لو وسون فو وسيما بو وغيرهم إلا أن تشين كان الوحيد الذي تمكن من التملص. لماذا؟ ذلك إلى جانب البعد الجغرافي بين يان وتشو الذي وصل إلى 1400كيلومتر والحاجة إلى الإبحار على السفينة، كيف استطاع الإنسان الأعزل قتل مراقبه بهذه السهولة؟

في وجه هذه التساؤلات لم يكن قادراً على التبرير عن النفس.

إلا أن فان زونغيين رئيس الوزراء ورئيس مكتب الشؤون العسكرية كانا يأنسان لتشين هوي فدفعا شكوك الجموع وكانا يؤكدان على ولائه، إضافة إلى أدائه قبل نكبة جينغ كانغ قبله بلاط إمبراطورية سونغ الجنوبية. استدعاه الإمبراطور جاوقاو في اليوم الثالث بعد وصوله للعاصمة.

كان ذلك العاشر من ديسمبر 1130، يوم يستحق الذكريات في تاريخ سونغ الجنوبية.

قال تشين أمام الإمبراطور: إذا نريد إيقاف الحرب فيجب أن يكون الجنوب للجنوب والشمال للشمال. إن فحوى كلامه كان واضحاً ألا وهو التخلي عن الأراضي في وسط الصين للاعتراف بدولتين دون التنافر والتقاتل. لا سبيل إلى ذلك إلا المصالحة. كان كلام تشين هو بالضبط ما كان يفكر عنه الإمبراطور. نظر إلى تشين نظرة الإعجاب ولم يتمالك في طأطأة رأسه تعبيراً عن الموافقة.

كان يكتفي الإمبراطور بالحفاظ على نصف مساحة دولته.

أعجبه تشين هوي أكثر حينما لاحظ سرعة البديهة والمواهب الأدبية والفكرية عند تشين هوي. فرفعه إلى منصب وزير الشعائر وفي الأشهر القليلة القادمة ارتقى مرات عديدة لشغل منصب رئيس الوزراء ورئيس المكتب العسكري. في الأيام القادمة انتهج سياسة المصالحة بقوة لكي يحافظ على نصف الدولة والأمن. لنفكر كيف السبيل إلى ذلك؟

أولاً، استدعى تشين يوا في الذي كان يقاتل في وسط الصين.

فقد وطد عزيمته لاقتحام هوانغ لونغ فو إذا الإمبراطور جاء يطلب منه الانسحاب في أسرع وقت. في هذا الوقت لقد صار جنود جين كالكلاب الشاردة حيث يتأتى ليوا في أن يجهز عليهم. رأى أن قضية استعادة وسط البلاد سوف تتحقق فطلب من الإمبراطور إذن التقدم. إلا أنه تلقى الأوامر العاجلة واحداً تلو الآخر تلح على ضرورة الانسحاب في أسرع وقت. صار يوا متردداً إذاً بحصان يحضر معه الميدالية الذهبية.

من الصباح إلى العشية في ذلك اليوم تلقى إجمالي 12 ميدالية ذهبية.

فعرف يوا أنه لا مناص من الانسحاب. إذا خالف الأوامر فذلك يتساوى مع العصيان والمؤامرة ضد بلاط الإمبراطور. فقال مفجوعاً: لم أكن أتوقع أن جهودي لعشرة سنين سوف تذهب أدراج الرياح. إن هذه الأوامر تقف وراءه تشين هوي رئيس الوزراء يتملق إلى الإمبراطور. غدا مقتنعاً لجميع ما قاله تشين.

علم الشعب المحلي أن يوا في سوف ينسحب من بلدو جوشيآن فدخلوا المعسكر أفواجاً لمنع الصفوف من المغادرة. كانوا يبكون قائلين إن جيش جين يعرفون احتفاءنا لجيشك. إذا رحلتم فلن

يتركنا جنود جين سالمين.

أخرج الأوامر الملكية منهمر الدموع وقال: إن أوامر الإمبراطور لا يمكنني عصيانها.

رأى الجمهور أن يوا في لا بد من الرحيل فتبعوا الجيش ينتحبون كما كان الجنود يمسحون دموع وجوههم. غرقت البلدة في بكاء الناس. فور رحيل يوا احتل ووشو أراضي جنوبي النهر الأصفر. على هذا المنوال فاتت دولة سونغ الجنوبية الفرصة السانحة لاسترجاع وسط البلاد. في الحقبات التالية رغم أن هنالك هجومات صوب الشمال إلا أن كلها تختتم بسرعة وباءت بالفشل. لم يعد يمتلكون مثل هذه الفرصة الذهبية.

بعد استدعاء يوا في باشر تشين هوي المصالحة.

قدم تشين للإمبراطور مقترح بأن يرفع هان شيجونغ إلى منصب رئيس مكتب الشؤون العسكرية ويعين يوا في نائبه. إن هذا الترتيب ارتقاء في الظاهر وتنزيل في الباطن إذ سلبه من السلطات العسكرية. وظلت فقدوا القادة السلطة في القيادة لن يعترض المصالحة أحد. فيما بعد استمرت البعثات بين الدولتين للتباحث بشأن المهادنة. في سنة 1141، تم توقيع اتفاقية شاوشين المخزي بين دولة سونغ الجنوبية ودولة جين. إن شاوشين عبارة عن لقب الإمبراطور. نصت الاتفاقية على أن تقع الحدود بين الدولتين اعتباراً من نهر هوائخه شرقاً إلى معبر داسانقوان غرباً الذي يقع في جنوب غربي مدينة باوجي بمقاطعة شانشي اليوم. كما يفرض على سونغ الانصياع لدولة جين مع تقديم 250 ألف ليانغ (مقدار) من الفضة ونفس المقدار من قطعة القماش.

في نهاية المطاف تحققت تصورات تشين هوي. هل ستهدأ الدنيا بهذا التناول؟ هل سيكون الجنوب للجنوب والشمال للشمال؟ مهما كان الأمر فقد أنعمت إمبراطورية سونغ الجنوبية بالأمن في الذل. بعدما حث تشين الإمبراطور سونغ قاو زونغ على توقيع اتفاقية العار، يبدأ التخطيط في إزالة يوا في سنتحدث عنه في الفصل القادم.

في نظرة ناس اليوم، إن تشين هوي في طبيعة الحال وزير فاسد إلا أن في نظرته هو، كان وفياً يستحق المكافأة. في مسيرته شغل منصب رئيس الوزراء التي استمرت لـ 19 سنة كان هناك إعفاء لـ 6 سنوات نظم خلالها قصيدة حيث شبه نفسه بوزراء مشهورين في عصر سونغ الشمالية مثل فان جونغ يان وهان تشي.

148
سجن يوا في بظلم

مات يوا في في سقيفة فونغ بو تينغ.

كان حارس السجن اسمه كوي شون قد عاين كل ما حصل. كان يقدر شخصية يوا في ويتعاطف معه. فخاطر بحياته لحمل بقايا جسده واجتاز سور المدينة المرتفع خلال الليل ليدفنه بعجلة جنب معبد جيو تشو تسونغ تسي. هل كان لا بد أن يكابد الظلم الفظيع في الحياة ويستلقي في الموحش بعد الممات؟

لن يكون الأمر كذلك.

بعد 21 سنة سيتم نقل بقاياه إلى سفوح جبل تشي شيا لينغ جنب بحيرة شيهو في مرسوم رسمي حتى يتمتع بعد ذلك بالمناظر الجبلية الخلابة والبحيرة ولقبول تقدير الناس له. إلى حد اليوم، إذاً نقصد مدينة هانغجو. أغلب الظن إنا سوف نزور معبده حيث تمثاله واللوحة المكتوبة عليها»أرجع لي أراضي» وراءه وكان يركع بجواره تمثال تشين هوي الحديدي.

يعزى موت يوا في إلى تشين هوي فيما يعتقده أغلب الناس. لكن كيف كانت حقيقة الأمر؟ لماذا قتل وهو قد أحرز تقدماً كبيراً في الميدان العسكري؟ لنستطرد في الحديث عن وفاته فيما بعد.

فقد سبق الحديث عن إعفاء يوا في عن السلطات العسكرية إلا أن تشين هوي لم يطمئن فاستهل في التخطيط للإيقاع بيوا في.

أولاً، كان يحشد مجموعة من مناصريه لتلفيق التهم ضد يوا في.

فرفع رسالة للإمبراطور قائلة إن يوا كان متعجرفاً يستخف ببلاط الإمبراطور كما أضافت أنه كان يهرب من الأعداء ويقف مكتوف الأيدي أمام جنود يتصارع مع جنود جين. كانت فكرة يوا

لو تعجب الإمبراطور أصلاً فصار يحتاط ليوا. فهم أن الفساد سائداً في البلاط ومن الأفضل الانفلات منه. فقدم رسالة الاستقالة ووافق عليها الإمبراطور حالاً.

وبدأ تشين الخطوة الثانية حيث أغرى جانغ جون الذي كان ينحدر يوا في تحته والذي كان غيوراً للكفاءات كما حرض اثنين من قادة جيش يوا في هما وانغ قوي وانغ جون على اتهام قائد آخر في الجيش هو جانغ شيان حيث اتهمه بالتمرد تحت أمر يوا في، بل وقد ورط ابنه يوا يون في هذه القضية.

انشاط الإمبراطور غضباً عند قراءة الرسالة فأمر باعتقال جانغ شيآن وتعذيبه في السجن لإرغامه إلى الاعتراف بتحريض يوا في للانقلاب. إلا أنه أحكم أسنانه وكان يأبى الاعتراف بالتهم الباطلة للإيقاع بيوا في ولو كان يواجه خطر الموت.

لم يبق من تشين هوي إلا أن يحرض الإمبراطور على اعتقال يوا في وابنه يوا يون. عندما تم القبض عليه كان واثقاً مرتاحاً قال للرسول: أؤمن بأن السماء شاهدة على براءتي. إن أول من سأله كان مو تشي شيا كبير المراقبين الذي لفق تهمة باطلة ضده. فقد عرض عليه رسالة الاتهام وقال بعنف: لم يتوانَ البلاط في مكافأتكم فلما خططتم الانقلاب؟

أجاب يوا في بصوت مدوي: إن ولائي للبلاط يشهد عليه الشمس والقمر. لم أقم بشيء أضر بمصالح الدولة.

كان مسائلوه أغلبهم مناصرو تشين هوي حيث كانوا يتلفظون بالعتاب ليتناغم مع ما قاله مو. علم يوا أن المجادلة معهم لن تجدي بشيء فتاواه وكف عن الكلام.

بعث تشين هوي رئيس هيئة المراقبة خه جو لمساءلة يوا في.

حينما نظر إلى خه لم يلفظ شيئاً بل خلع ثيابه العسكري إذا بـ «رد على بلادك بالولاء» ينحشر في شحمه. تأثر خه بالمشهد فأمر بإعادة يوا في إلى السجن وبات يتصفح سجلات قضيته وأحس بعدم توفر الأدلة والحيثيات التي تثبت الجريمة فبلغ تشين هوي نتيجة المساءلة كما هو.

لم يحصل على ما يرومه من النتيجة فأمر مو بمواصلة المساءلة حيث استقصى كافة الطرق لتعذيبه إلا أن يوا في صبر وكان يرفض أن يحني عنقه أمام الطغاة.

مضى على اعتقال يوا في شهران دون أية نتيجة، مما بعث قلقاً وجزعاً عند تشين هوي.

هناك وزير مستقيم قدم رسالة التبرير كيبرهن على براءة يوا إلا أنه تعرض لوشية تشين. قصد تشين القائد هان شيجونغ زعلاناً وسأله عن برهان الانقلاب. من الطبيعي أنه لا يتوفر على أدلة فقال بحنق: فقد بعث ابن يوا في رسالة سرية إلى جانغ شيآن، هذا يعني أنه ربما ارتكب الجريمة وإن لم نحصل على الأدلة.

رد عليه هان بصوت مرتفع: كيف تقنع أرجاء البلاد بـ «ربما ارتكب الجريمة»؟ بعد عودته إلى البيت قدم الاستقالة.

لم يطمئن قلبه طالما انعدمت البراهين. يوماً استقى خمراً مع زوجته وانغ تحت الشباك. لاحظت حيرته فقالت: كيف تتصرف بهذا التذبذب؟ أعلم لن يتيسر عليك إطلاق سراحه بعد القبض عليه. خضع لتحريض زوجته فبعث قصاصة ورق إلى السجن آمراً بقتل يوا في.

في يناير 1142 الميلادي توفي يوا ظلماً في سن يناهز 39 سنة. قتل في الوقت نفسه ابنه يوا يون وقائده جانغ شيآن. لم يتم رد الاعتبار في قضية يوا في إلا بعد وفاة الإمبراطور سونغ قاو زونغ وتولي سونغ شيآو زونغ العرش. كان الإمبراطور 500 ألف عملة نحاسية لمن وجد بقايا يوا في. قام الحارس هوائشون بحفر بقاياه جوار المعبد فأقامت الحكومة تشييع جنازته ونقل قبره إلى ضفة البحيرة الغربية تحت سفوح جبل تشي شيآ لينغ. كما تم إقامة معبد قريب من قبره تذكاراً له. على الرغم من الظلم الذي عاناه خلال الحياة إلا أنه صار يتمتع بتقدير الناس وتمجيدهم بعد الممات. إن روحه سيتناقل جيلاً بعد جيل.

149

استطاع العالم يو يونوون الذي لا علم له بالقتال رد الأعداء

منذ توقيع الاتفاقية كانت دولة جين تقبل تعويضات مالية وأغراض كثيرة من دولة سونغ الجنوبية، إلا أن التحرشات التي هدفت المناطق الحدودية خفت ثقلها وشكل هذا تنفيساً لوزراء البلاط والإمبراطور. اعتقدوا أن بإمكانهم الانزواء في زاوية الجنوب والاستمتاع بالأمن.

طالما توقفت الحروب في الحدود، بدأوا ينغرقون في اللهو والمتعة، إذ أقاموا سقفاً ومصاطب وعمارات وبناءات. كما كانت تتألق عندهم العمارات المزركشة التي بهرت الأنظار. كادوا يعيشون بين الخمر والحلم. ساد جو الترفيه في البلاط كأن مناظر واردة في ((على طول النهر في عيد كنس القبور)) عادت من جديد.

مقابل هذا الوضع لا مفر من ذوي النظرة النافذة أن يهتفوا مفجوعين. نظم الشاعر لين شينغ قصيدة على جدران فندق داخل مدينة لينآن بسخرية: ما وراء الجبال الخضراء جبال خضراء وما وراء البناءات الشاهقة بناءات شاهقة. الذين يملكون السلطة يبحرون على البحيرة الغربية يصغون إلى الأغاني ويتلذذون الرقص نهاراً وليالي. متى سيتوقف هذا الحال المزري؟ إن الرياح الربيعية زادت سكرانهم وفي لحظات الغرة نسوا نكبات دولتهم والأراضي المفقودة وقد اكتفوا بشبك البحيرة وأشباح الراقصات واكتفوا ببهجة الولائم. اعتبروا مدينة هانغ جو التي تنزوي في الجنوب العاصمة القديمة بيانجينغ التي شهدت العمران.

عندما انغرقت دولة سونغ في الأمان المذل كانت جين تقوم بأهبة الاستعداد للإجهاز عليها.

في ديسمبر 1149 حصل انقلاب داخل دولة جين حيث قتل وانيان ليانغ الإمبراطور جين شي زونغ وتولى العرش بلقب الملك هايلينغ وانغ. كان طموحاً لم يعد يروقه وجود دولة سونغ

الجنوبية في الزاوية الجنوبية. كان يرسل رساماً من بين البعثات فتأمل في ترسيم مناظر المدينة لينآن جبالها وأنهارها. تفرس الإمبراطور النظر في الرسم ونظم قصيدة عليه كان يتجلى مفادها بوضوح ألا وهو ابتلاع دولة سونغ الجنوبية.

قيل إنه قرأ قصيدة ليو يونغ التي تحمل اسم ((عند مشاهدة الأمواج)) فعزم على شن حرب إلى الجنوب. فرغماً عن اعتراضات الوزراء قاد جيشاً صوب دولة شونغ الجنوبية.

غير أن الإمبراطور ما زال غارقاً في المتعة آبياً الاكتراث بأخبار انطلاق جيش جين. لم يصدق الخبر. في سبتمبر 1161 قسم 600 ألف جندي إلى 32 فرع اتخذ كل واحد منه سبيله صوب دولة سونغ. قبل الإقلاع قال لوزرائه مرفوع الرأس: إني سأقضي على سونغ الجنوبية في مدة لا تزيد على مائة يوم كالحد الأقصى وقد ننتصر في غضون شهر كالحد الأدنى.

اقترب جيش جين من الضفة الشمالية لنهر هوائهه. كان قائد شمالي النهر وانغ تشوان قد هرب عند سماع وصول الأعداء إلى مدينة تساشي الواقعة إلى الجنوب من نهر اليانتسي.

على هذا المنوال لم يخسر وانيان ليانغ ولو جندياً واحداً لاحتلال مناطق شمالي النهر. علم الإمبراطور الخبر فأُعفي وانغ تشوان من منصبه وحل محله لي شيآن كما كفل رئيس الوزراء يي يي ون بتفقد الجيش المدافع. كان يي هو الآخر الذي كان جباناً فبعث أحد مقربيه يو يونوون إلى تسا شي لمكافأة القادة والجنود. وقتذاك لم يصل لي شيآن جونغ إلى منصبه بعد فلم يكن في الجيش قائد عام. كان الجيش في حالة شبه شقاق وكانت المعنوية متدنية. عندما وصل يو إلى الجيش وجده متناثراً يجمع جنوده أفواجاً وأزواجاً. البعض قد أزال سرج الحصان فجلس على جانب الطريق. أما في الضفة الأخرى لنهر يانغتسي كان جنود جين مستعد لعبور النهر.

ظن يو لو كان ينتظر وصول لي سيكون قد فات الأوان. فجمع قادة الجيش وأحال الذهب والحرير جانباً قال: كل الهدايا وُضعت هنا إن بطشتم كوفئتم. ظل القادة يرومون المقاومة فوافقوا على مجابهة الأعداء واحداً تلو الآخر.

إلا أن من بين مرافقيه مسؤول قال بخفة: كانت الأوامر الملكية مكافأة الجنود لا قيادة الجيش. إذا فشلت فهل ستحمل عواقبه؟

قال: ولكننا في أوقات الشدة الآن فهل أفر من المسؤولية حسباناً للمصالح الذاتية؟

كان يو عالماً ضعيف الجسد لم يقد جيشاً قط إلا أنه اضطلع بمهمة مراقبة الجيش عند تردي الأوضاع حيث قسم السفن إلى خمسة فرق. خصص الفريق الأول للمواجهة والفريقين الثاني والثالث للسير على طول شرقي الضفة وغربيها كما أبقى فريقين يختبآن في الممرات المائية الصغيرة. قد عبأ القوات البرية والفرسان للحرب.

لم يمض طويلاً حتى جاءت سفن جين قاطعة النهر، على سطح النهر نزلت عليها سفن جيش جين كأنما هي سكنية حادة. البعض منها كانت تحشر في أسطورة الأعداء حتى أحدثت ثقباً في بعض السفن مما أغرقها وأسقط جنود جين.

أسدل الليل ستاره على النهر إلا أن الجيشان ما زالان يتحاربان. إذا جاء فريق من جيش سونغ من مدينة قوانغ جو إلى تسا شي. أمرهم يو بتلويح الأعلام والضرب على الطبل لكي يتضلل جيش سونغ. رأى جنود جين الأعلام المترفرفة وضجة الطبول فاعتقدوا أن دفعات كبيرة من القوة المعززة جاءت وهموا بالفرار.

مُني إمبراطور جين بضربة موجعة قبل عبور النهر. أمر بإعدام كافة الجنود الفارين في غضب. فهم يو أن وانيان جازماً على عبور النهر ولا بد من إعادة الحملة. فقسم السفن إلى فريقين حيث الأول انتظر في المعبر والثاني في أعلى النهر. لم يخطأ في ظنه بل جاء وانيان في اليوم التالي للعبور.

شن الفريقان هجوماً على جين من الجناحين عندما أمره يو. فحبست ثلاثمائة سفينة جين بين الفريقين. أشعل جيش سونغ نيران في السفن. لم يصل لي شيآن جونغ إلى معسكر سونغ إلا بعد انتصاره في مدينة تسا شي. كان مقدراً ليو.

رأى يو أن وانيان لا بد من الانتقال إلى مدينة يانغجو بعد الانهزام هنا. كانت المدينة المقابلة ليانغجو مدينة جينغكو. لم يكن ليطمئن إليها فخصص فريقاً من جيش لي شيآن جونغ ليدافع عنها.

صنع جيش سونغ مركبة حربية فائقة السرعة فأمر الجنود بتجريبها تحت إرشاده. بلغ جنود جين هذا الخبر لوانيان عند النظر إليها. ضحك باستخفاف قائلاً: ليست سوى سفينة ورقية.

بسبب انكسارات جنود جين والهروب المستمر للجنود أمر وانيان بإعدام القائد إذا فر جندي وإعدام القائد العام إذا فر قائد. من تردد في القدوم ضرب رأسه. إن هذا الأمر القاسي أثار حفيظة الجنود. اندفعوا إلى خيمة وانيان وقتلوه خلال الليلة.

بعد وفاته ولى بعض وزراء دولة جين الممتعضين لوانيان ليانغ العرش لوانيان يونغ، وهو من يعرف بجين شي زونغ في التاريخ.

استدعى الإمبراطور الجديد الجنود وبعث رسولاً للتباحث مع سونغ في خصوص المهادنة. مالت الحدود إلى الاستقرار من جديد.

150
لقاء بحيرة الإوز

ثمة لقاء في العالم يخلب لبناً.

مثل ما ذكرنا في الفقرات السابقة من الأمثال: رحلة كونفوشيوس إلى دولة جو لاستشارة لاوتسي عن الآداب ونزهة الشاعر لي باي مع الشاعر دو فو. كثيراً ما نتصور أن لقاءاتهم كمثل لقاء الرياح والغيوم أو لقاء التنين والأسد حيث تتلاطم فيه الأفكار مما يولد أشعة الضوء المتوهجة. نتصور أن لقاءاتهم سيفتح علينا مغاليق الوجود في القديم والحديث وتبلل النفوس المائلة نحو الجفاف والدكنة من شدة القحط الفكري. لنحيل في الفقرة القادمة فتنة سونغ الجنوبية لنسرد عن لقاء فكري بهدوء وبساطة: لقاء بحيرة الإوز. إنه يمثل لقاء ذائع الصيت في تاريخ الفلسفة الصينية.

كان اللقاء المنعقد في هانتشون مقدمة للقاء بحيرة الإوز.

في شتاء تلك السنة كان ليو زوتشيان من بين «المواهب الثلاثة في جنوب شرقي الصين» ينزوي في بيته للقراءة. في الشبم الخفيف انعكف على الكتب رغم ما فيها من اللذة كان لا بد من تحمل الوحدة إذا اكتسب شيئاً من الكتب إذ لا أحد بجواره يشارك فرحه ويصغي إليه. لحسن الحظ كان صديقه الحميم جوشي وهو كبير علماء الكونفوشيوسية الجديدة كان يريد القدوم إلى مدينة جينهوا لزيارته.

انتظر ليو بفارغ الصبر إلا أن جوشي لم يفِ بوعد لالتزام آخر.

طالما لم يأت عليه جوشي فشد رحاله لزيارة جوشي المقيم في فوجيان. في الـ 21 من مارس سنة 1175 الميلادي، وهي السنة الثانية للقب تشون شي، تحين الأجواء الربيعية المعتدلة انطلق ليو من مدينة جينهوا في مقاطعة جه جيانغ قطع سبيله بيسر وراحة حيث كان يتلذذ في طريقه بالمناظر الخلابة كما كان يقوم بزيارة إلى معبد القائد الشهير في عصر جين الملكية يين هاو وقد زار العديد

من المقاصد السياحية الشهيرة والتقى مع المثقفين يسهر طويلاً معهم لتبادل الأفكار. على هذا المنوال وصل إلى مدينة تشوان آن بفوجيان في فاتح أبريل ملتقى الربيع والصيف.

خرج جوشي من البيت لاستقباله قبل أن يصل.

فيما بعد، مكث ليو زو تشيآن في بيته بهانتشوان لأكثر من عشرة أيام. قام الاثنان إبان هذه الفترة بتدوين ((سجلات الأفكار القريبة)). سبب ذلك أن بعد قراءتهما وتمحيصهما لكتب المفكرين الكونفوشيوسين في عصر أسرة سونغ الشمالية من بينهم جو دونيي وجانغ زا وتشانغ يي وتشنغ يو، اتفقا على أن مؤلفاتهم في غاية الفسحة والعمق لا يحدها شيء. بالنسبة إلى المبتدئين في هذا العلم يتعذر عليهم اكتساب جوهره في وقت قصير والأصول إلى مغاليقه.

ما العمل إذاً؟

قرر أن يقتطف كل واحد من الاثنين من مؤلفات العلماء الأربعة فصولاً لتدوينها في كتاب واحد يحمل اسم ((سجلات الأفكار القريبة)) كان تصور جوشي لهذا المشروع تصوراً جميلاً. لا يمكن الوصول إلى البعيد دون التفحص في القريب. إنه يهم ببناء الأدراج في صرح العلم لكي يمكن المبتدئين في العلم من الصعود درجاً بعد آخر حتى يصل في نهاية المطاف إلى مجال العلماء الأربعة. ومن هنا بإمكانه الانطلاق إلى الصرح العظيم للكتب الكونفوشيوسية الستة.

كان الاثنان يناقشان ويجادلان مرات عديدة عند بزوغ فجر وعند الغسق، حتى قد تم استخراج النسخة المسودة للكتاب. إلا أنه لا يزال يحتاج إلى التدقيق حتى النسخة النهائية. مع ذلك كان بإمكانه أخذ استراحة. فيما بعد، صحب جوشي ليو زو تشيان لزيارة الجبال والأنهار وقضيا أكثر من 30 يوم في فوجيان.

اجتمع الاثنان خلال هذا اللقاء أكثر من 40 يوم وقد شارفت على النهاية. إن لقاء بحيرة الإوز الذي يذاع له الصيت في تاريخ الفلسفة الصينية حدث عندما استعد ليو للعودة بعد رحلته إلى فوجيان.

هم ليو بالرحيل وكان جوشي لا يطيق الفراق فصحبه في الطريق حتى وصل الاثنان في نهاية مايو إلى معبد بحيرة الإوز في مدينة شانغياو بجيانغشي.

كان الفراق وشيكاً.

ربما للتردد في الفراق وربما للمناظر الجذابة في بحيرة الإوز، وجد ليو لنفسه حجة للبقاء المؤقت، ألا وهي تقديم الدعوة إلى لو جيولينغ ولو جيويوان (هما أخوان) للاجتماع في معبد بحيرة الإوز. كانت مزاعمه في الدعوة التوفيق للخلافات بين مدرستين للكونفوشيوسية الجديدة، واحدة منها بقيادة جوشي والأخرى بقيادة لو جيويوان وكان يحاول إرجاع أصول الفلسفة عند الاثنين إلى نقطة واحدة. لكن لا يمكن نفي أن الجو السائد في اللقاء الأول مفاده التعلم من البعض وعدم تحمله للفراق كانا قد ساهما في إنشاء اللقاء في بحيرة الإوز. فدعا الاثنين ليلتقيا مع جوشي.

في بداية شهر يونيو قدم الأخوان إلى بحيرة الإوز تلبية لدعوته.

إن العلماء القلائل الذين وقفوا على قمة الكونفوشيوسية سيلتقون. في هذه السنة كان جوشي في الـ 46 من العمر وقد ضرب صيته الآفاق من زمان. أما لو جيويوان فكان عمره 37 سنة عرفت له شهرة حديثاً. ما هي الشرارات الفكرية التي تولدت من خلال نقاشاتهم التي اتخذ كل واحد منهم الكلام كسيف.

منذ قرار الأخوين على القدوم كانا قد تبادلا وجهات النظر ووفقا بين أفكارهما حتى اتفقا على رأي واحد. من أجل هذا اللقاء نظم كل واحد منهما قصيدة استعداداً لترتيلها في الاجتماع.

كان اللقاء يصادف فصل الصيف ينعقد جنب الجبال الشامخة وبحيرة الإوز الهادئة حيث أوراق النيلوفر تغطي سطح البحيرة. إن الطحالب كانت تتولد على الأحجار بجوار البحيرة كما قد يقطن حشرة الزيز بين جنبات الأشجار. وسط المناظر الخلابة وترنيمات الزيز التي استمرت طوال النهار انعقد اللقاء على مصطبة المعبد. رغم أن المشاركين في النقاش جوشي والأخوين فقط، كان من بين الحضور ليو زيتشانغ وجاو جينغمينغ وبان شودو من مقاطعة جه جيانغ وتلاميذ لو جيويوان هم تشو هنغداو وزو بين كما حضر هذا اللقاء عدد من العلماء لأن المعبد وقع على الحدود بين مقاطعات فوجيان وجه جيانغ وجيانغ شي.

يمكن القول إن هذا اللقاء أثار ضجة في الأوساط العلمية.

ساد الاجتماع شيء من الخمود في بادئ الأمر. إلا أن لو جيولينغ قد أبرز سيفه حيث قرأ على الحضور القصيدة التي نظمها عندما سأله ليو زوتشيان عن التجارب العلمية في الآونة الأخيرة. جاء في القصيدة: الإنسان ولد على الأخلاق وعرف حب الوالدين واحترام الكبار وهو صغير. إن الأفكار المتوارثة عبر أجيال لا تعدو هذه طبيعة. الإنسان إذا حافظ على طبيعته وانعكف على شحذها يستطيع الارتقاء إلى منزلة الإنسان الخالص. لا يحتاج إلى مثل جهود جوشي في تفسير عيون الكتب القديمة واكتشاف المعاني بين السطور.

إذا أردنا فهم فحوى كلامه هنا نحتاج إلى تعريف بسيط لفرعي الكونفوشيوسية الجديدة. اعترف علماء الكونفوشيوسية في عصر سونغ بأن يمكن الوصول إلى الإنسان الخالص من خلال التعلم. السؤال هو كيف سيستطيع تحقيق هذه الغاية القصوى في الكونفوشيوسية طالما يمكن التعلم. ما هو المسار الذي يجب سلوكه؟

برأي جوشي أن القراءة المستمرة والاطلاع الواسع يمكن الإنسان من الوصول إلى ذلك. إن هذا هو الطريق المستقيم. لذا كان يشغل باله كثيراً في التفاسير والقراءات. أما الأخوان فكان يرى أن الإنسان ولد على القلب الخالص، بحيث لا يتوقف عن حمايته وتدعيمه يستطيع بلوغ الغاية. فلماذا يجهد نفسه في الأشياء الخارجية؟

لقد عبر لو عن أفكاره في هذه القصيدة. كيف رد عليه جوشي؟

رغم أن جوشي قد فهم قصد لو عندما أنهى نصف قصيدته، ووسوس لليو زوتشيان أن لو جيولينغ قد سلك مسلك أخيه، إلا أنه كان حائراً يعتريه الشكوك. مع ذلك كان لا بد من الرد عليه.

على هذه الطريقة كانت تتبادل فيها الأفكار وكانوا يعرضون على البعض ما في صدورهم من العلم. في هذا النقاش هم لوجيويوان بالمداخلة حيث أراد ترتيل قصيدة أخيه القائلة: الطريق المستقيم لموصل إلى طبيعة النفس إنما هو طريق سهل يسير، هو القضية الخالدة. أما الاطلاع الواسع والتأمل الدقيق عند جوشي فهو علم متجزئ لا يمكن تحديد طبيعته. إن هذا الانتقاد السافر لم يقبله جوشي في طبيعة الحال.

قيل إن جوشي عند سماعه لهذه المقولة تغير منظره.

رد جوشي على هذا الاتهام فدارت بين الطرفين نقاشات حامية الوطيس لأيام عدة. طبعاً لم يكن اللقاء على هذه الدرجة من التوتر دوماً. في أول ثلاثة أيام ما زالوا يتجادلون. إلا أن الأيام الخمسة أو الستة شهدت أجواء جنحت نحو التناغم فإذا الجموع يأخذ العلم من بعضهم البعض.

رحل ليو زوتشيان وجوشي والأخوان كما انصرف المستمعون. يبدو أن بحيرة الإوز قد رجعت إلى هدوئها. إلا أن الحبك المنتشر من هذا اللقاء يتجلى شيئاً فشيئاً يغشي مئات السنين من تاريخ الفلسفة الصينية وقد أثار ما لا يحصى من الجدال. إن اللقاء المستمر لعشرة أيام لم يكن مثلما تصوره ليو حيث اندمج الفرعان في صيغة واحدة، بل ازداد الشرخ بين الفرعين بفعل اللقاء.

إلا أن جوشي ولو جيويوان قد تغذيا من هذا اللقاء. اعترف لو بأنه على شيء من التقلب. أما ما كسبه جوشي فكان أعمق. بات يراجع مشكلة التجزؤ عنده حتى استطاع تحقيق قفزة كبيرة وتشكيل نظام علمه العميق، ليكون القمة الجديدة في كونفوشيوسية بعد كونفوشيوس ومونشيوس التي لا يمكن تجاوزها.

بعد لقاء بحيرة الإوز جرى بين جوشي ولوجيويوان لقاء آخر.

رغم أن الاثنين اجتمعا في بحيرة الإوز وكان يتجادلان في العلوم التي فيها بينهما كثير من نقاط الخلافة. إلا أن لو كان يقوم بزيارة إلى جوشي عندما شغل الثاني منصب المسؤول المحلي في مدينة نانكانغ. كان جوشي أحال لو إلى مدرسة بائلودونغ ليلقي محاضرة عن فصل من فصول ((كتاب الحوار)). تأثر الحضور بشدة حتى البعض منهم أجهش بالبكاء. اعتقد جوشي أن ما قاله لو كان يتجه إلى المشاكل الخفية عند الكثير من العلماء وقته. إن هذا اللقاء بالمقارنة مع لقاء بحيرة الإوز كان أقل توتراً وأكثر عمقاً.

151
تشانغ جي سي هان البطل الذي لا يجاريه أحد

إن الأزمنة كالأنهار تترقرق وئيدة ولا تعود. لكن في لحظات الغرة تحس بأنها رجعت لأن بعض الأمور تتكرر في التاريخ.

نعم. إن التاريخ أبداً يكرر نفسه. لقد وصلت دولة سونغ الجنوبية إلى منتهاها، كأن ما وقع في نهاية عصر سونغ الشمالية تكرر. بالتزامن مع انحطاط دولة سونغ الجنوبية تردى الوضع في دولة جين. في المروج التي حكمتها جين نهضت دولة كانت تجري وراء الماء والكلأ. وظهر في التاريخ بطل لا يجاريه أحد. سوف يقود جيشا ليعصف به العالم كله، كما سوف يوسع مساحة الصين حتى امتدت إلى آسيا الوسطى وشرقي أوروبا. هز هذا التيار الجارف دولة سونغ الجنوبية ودولة جين ودولة شيا الغربية بل وحتى هز العالم. إن الذي وقف على قمة هذا التيار بطل يشد القوس ليسدد النسور.

لنتحدث عن قصته فيما بعد.

عندما انحطت الدولتان جين وسونغ الجنوبية في آن واحد بزغت في أراضي جين قومية قوية ألا وهي قومية منغولية. ظهر في هذه القومية بطل ألا وهو تياموجين. إنه الابن البكر لرئيس قبيلة بورجين وكان أبوه في غاية الصرامة في التعامل معه. لذا، صارت أكثر نضوجاً من أقرانه.

تعرضت قومية المنغولية لاضطهاد دولة جين كما أن هناك خلافات كبيرة بين قبائلها حتى جرت بينها معارك كثيرة.

كان بين آل برجين وآل التتار حقد لا صلح له على الإطلاق. في التاسعة من العمر كان أبوه وقع في فخ آل التتار ومات. تولى تياموجين منصب الرئاسة إلا أنه لا زال ناشئاً ضعيفاً لا يقدر على

الوساطة بين القبائل. تشقق فرع تائيشي من القبيلة فلم يبق سوى تيموجين وأخته ووالدته.

سأل أمه باكياً: لقد رحل رجال القبيلة فعلى من نعتمد؟ قالت الأم بجزم: يا بني إننا لا نعتمد على أحد. نعتمد على أنفسنا. إن الشبل لا بد أن يكون أسداً يوماً ما.

ترعرع في محن فتشكلت لديه شخصية قوية. إلا أن مصيره كان مليئاً بالنكبات. رغم انفصال فرع تائيتشي إلا أنهم خافوا من انتقام تيموجين إذا كبر فقرر القبض عليه وقتله. علم الخبر فاختبأ في الغابات لتسعة أيام حتى إذا ما صار لا يطيق الجوع والعطش خرج منها. إلا أنه وقع في يد تائيتشي حال خروجه من الغابة. استطاع الفرار من الحراسة لفطنته بعد ذلك.

فيما بعد، توارى مع أمه في الغابات الموحشة. رغم شظف العيش حتى اضطرا أحياناً إلى التغذي بالفئران، كانت الأسرة تعيش في وئام. ظل تيموجين ينوي أن يستعيد مشروع أبيه فتعامل مع الناس بصدر رحب وعقد الصداقات وحاول لم شمل القبيلة والأقرباء.

تدريجياً بدأت القبيلة تزدهر من جديد حتى لجأ إليه من لم يعرفه في حياته.

كان لتيه مو تشن صديق اسمه تشا مو خه وكان رئيساً لقبيلة أخرى. وكانت قوة تيه مو تشن تصبح أكبر وأكبر، فبعض الأشخاص من قبيلة تشا مو خه ذهب إلى قبيلة تيه مو تشن. وهذا جعل تشا مو خه غير مسرور. فقام بأشياء محتكّة مع تيه مو تشن. كان تيه مو تشن يحتمل على تصرفاته في البداية، لكن أخيراً، في نزاع ما، قُتل أخ تشا مو خه من قبل جندي تيه مو تشن بخطأ.

فغضب تشا مو خه كثيراً، فجمع ثلاثين ألف من الجنود لتحارب تيه مو تشن. لا بد لتيه مو تشن أن يتحداه وكانت الحرب حادة قرب نهر اسمه وه نان. ولا يمكن لتيه مو تشن الصمود فانسحب. لكن كان تشا مو خه يقتل أخيذا دفعة تلو دفعة بلا رحمة، الأمر الذي يجعل جنوده غير مقتنعين، فذهبوا إلى جيش تيه مو تشن.

فأصبحت قوة تيه مو تشن أقوى على الرغم من فشله في الحرب.

ذات يوم، بعثت أسرة جين مبعوثاً اسمه وان يان شيانغ وهو ذهب إلى معكسر تيه مو تشن سرياً، وطلب مناقشة الشؤون معه. فكان يعرف هناك نقمة بين قبيلتي تيه مو تشن وتا تا أر، ويريد المحاربة مع تيه مو تشن. فاعتقد تيه مو تشن أنه فرصة الانتقام منه فوافق معه. فتحالف الجانبان

للهجوم على قبيلة تا تا أر ونجحا موفّقاً. فلم يأخذ الثأر لتيه مو تشن من قبيلة تا تا أر فحسب، بل يحصل على عدد كبير من الأخيذ والبهائم، ونال المكافأة من أسرة جين، وبهذا، أصبحت قوته أكبر في حد كبير.

بعد ذلك، قاد تيه مو تشن الجيش ليهجم على القبائل الصغيرة وأخيراً حكم على منطقة منغوليا بكامله.

في عام 1206، أقام رؤساء قبائل منغوليا اجتماعاً عند ضفة نهر وه نان، وجعلوا تيه مو تشن ملك منغوليا. في هذا العام، كان تيه مو تشن أربعة وأربعين في عمره، وسُمي بجنكيز خان في التاريخ. فكلمة ((جنكيز)) يعني أكبر وأعلى، وكلمة ((خان)) يعني رئيس أو ملك. فحكم جنكيز خان على منغوليا بحكمة وجهود، وأصبحت منغوليا أقوى تحت حكمه. لكن ما زالت منغوليا تابعة لأسرة جين، وبحاجة إلى تقديم الأموال إلى أسرة جين. ففكّر جنكيز خان في تغير الوضع الذليل وإطاحة أسرة جين.

في عام 1211، قام جنكيز خان بالحرب مع أسرة جين. كان إمبراطور جين وان يان يثق بأنه سيدمّره بثلاثمائة ألف من الجنود. ولم يخطر بباله أن جيش جنكيز خان استدار إلى خلف جيش جين وأخذ الغذاء الاحتياطي كله، إلى جانب إحراق معسكر جين. ففشل جيش جين. وواصل جنكيز خان في الهجوم واحتلّ بجيوي يونغ قوان.

وقتئذ، حدثت ثورة دخل أسرة جين، الجنرال الفاشل قتل إمبراطور وان يان وينغ جي وجعل وان يان شيون الإمبراطور. واختار وان يان شيون الاستسلام إلى جنكيز خان. ثم نظر جنكيز خان إلى الغرب بعد احتلال أسرة جين. ففي عام 1219، قاد مائتي ألف من الجنود إلى الغرب وتم احتلال الدول في أواسط آسيا، حتى إلى شرق أوروبا وشمال إيران اليوم.

قبل دخل أراضي الغرب، سبق لجنكيز أن حالف أسرة شي شا. لكن رفضت أسرة شي شا أن يرسل الجيش، فتحالف جنكيز خان مع جين أخيراً. أما الآن فقرّر جنكيز خان تدمير أسرة شي شا. لكن أثناء إحاطة عاصمة شي شا، أصابه مرض شديد. فقال: يمكننا التحالف مع أسرة سونغ لتدمير جين تماماً، ثم القيام بهجوم أسرة سونغ. لا تُقِمْ الحربين في نفس الوقت، أما شي شا فلا يمكننا نتركها قط. وفي عام 1227، توفي جنكيز خان في جبل ليو بان. ورث عرشه وه كوه تياي. فكان

لجنكيز خان يحكم على الدولة لمدة اثنين وعشرين سنة، وتوفي في ستة وستين من عمره، لقبه المحترم يوان تياي تسو.

فحالف وه كوه تياي أسرة سونغ الجنوبية ودمّر أسرة جين بعد الورث. ثم استهدف إلى هجوم أسرة سونغ الجنوبية.

في عام 1258، انقضّ جيش منغوليا على أسرة سونغ الجنوبية عن ثلاثة طرائق. وقاد ملك منغوليا منغ قه الجيش الرئيسي إلى مدينة خه تشو أي مدينة خه تشو اليوم في مقاطعة سي تشوا. كان شعب خه تشون يدافع عن بيتهم بالحياة. وصد هجوم جيش منغوليا. هكذا تحارب الجانبان لمدة خمسة أشهر. أما ملك منغوليا فسارع إلى النجاح، لكن أُصيب بحجر في إحدى الحروب، ومات في اليوم القادم بسبب الجرح الشديد.

هكذا فشل الهجوم على أسرة سونغ الجنوبية. في عام 1271، ادّعى قوبلاي نفسه الإمبراطور، وغيّر لقب الأسرة إلى يوان، وهو يوان شي تسو أي أول إمبراطور لأسرة يوان. وهذا يعتبر تقرّب خاتمة أسرة سونغ الجنوبية رسمياً.

152
أنشأ قوبلاي أسرة يوان

قد ذكرتُ في المقالة السابقة كان الملك أصيب بالحجر أثناء هجوم مدينة خه تشو في عام 1258، ومات في اليوم التالي.

إنها قصة مسرحية جداً، وكثير من الروايات تذكر هذه الحبكة فيها.

فعلى سبيل المثال، كان سيد جين يونغ يصفها في كتابه ((أبطال كوندور)): كان بطل يانغ قه يطرق رأسه للتجنب، وتقدم إلى الأمام، وقد أمسك بحجر في يده فسرعان ما ألقاه إلى جهة ملك منغ قه، وأصاب قلبه الخلفي بضبط. كانت قوة يانغ قوه كبيراً جداً، فسقط منغ قه من الحصان فوراً وانكسرت أعصابه وأعظمه.

طبعاً، في الواقع أن منغ قه ليس متوفى في مدينة شيانغ يانغ، وليس مقتولاً بيانغ قه أبداً.

إن موت منغ قه يعني خلاء العرش بالنسبة إلى منغوليا، أي يعني ثورة كبيرة في أراضي المروج الشاسعة. والفائز هو قوبلاي بعد تم إسدال ستار الثورة. وأنه يعتبر أقوى إمبراطور بعد جنكيز خان في المروج. وقد تم توحيد الأراضي الشمالية والجنوبية تحت قيادته، وتم إنشاء أكبر أسرة في التاريخ أي أسرة يوان. إنه يهتمّ بالحكم بالأدب، وبادر إلى دراسة العادات الصينية وتقاليدها، وأصرّ على حكم الدولة بأسلوب كونفوشيوسي. إنه في العرش لمدة خمسة وثلاثين سنة، وإنجازاته حوالى ثلثها لأسرة يوان كلها.

لكن، كان يستغرق أربعة أعوام له للحصول على العرش بعد موت منغ قه. والآن لنتحدث عن سيرته.

إن قوبلاي ولد في يوم الثالث وعشرين في سبتمبر عام 1215، في مروج منغوليا الشمالية. كان جده يحدّق إليه تحديقاً وقال أخيراً: إن أولادي الآخرون كلهم يمتلك بجلد أحمر، أما هذا، فأسود جداً ويشبه أمه. وقتئذ، لا يعرف جنكيز خان أن هذا الابن الأسود هو الذي يوحّد الأراض بعده، ويصار نسراً فوق المروج.

فهذا هو أول انطباع من جنكيز خان عن قوبلاي، فما هو أول انطباع لقوبلاي عن جنكيز خان؟ فما الحاجة إلى جانب أشكاله الشجاعة في الحروب؟

ففي أحد عشر من عمر قوبلاي، كان يتقن بالفروسية والصيد، وهذا العام قام بأول صيد حقيقي. فأصاب سيفه أرنب برية. ففي عادة منغوليا، لا بد لوالد أن يدلك إبهام الولد إذا كان نجح في أول صيده. وهذا يعني الحصول على الإنجازات الأكبر والأموال الأكثر. وكان جنكيز خان يعود من حربه الغربية قبل قليل، وقام بتدليك إبهام قوبلاي على الرغم من تبعه.

ففي انطباع قوبلاي، إن جنكيز خان حنون.

وبعد ذلك، توفي جنكيز خان، وورث عرشه وه كوه تياي. ثم مات وه كوه تياي، أصبح قوي يو الإمبراطور. لكن لم يسبق سنتين فمات. والعرش صار في يد منغ قه. وهم الملوك الأربعة في بداية أسرة ويوان. وأمر منغ قه أخاه أي قوبلاي أن يسيطر على الأراضي الجنوبية بعد ورثه من العرش.

فكان قوبلاي يمتلك حلماً كبيراً منذ طفولته، وأراد أن يحقق إنجازات كبيرة. وكان يتأثر من الثقافات الصينية عميقاً. وكان يحيطه عديد من الأكفاء الصينين في وقتئذ، بما فيهم: ليو بينغ تشونغ، وتشانغ ون تشيان وانغ، وهاو جينغ، وياو شو. وكان يحب أن يتحدث الثقافات الكنفوشيوسية مع قوبلاي في الأوقات الفارغة. وهذا له تأثير عميق بالنسبة إلى قوبلاي.

مع مساعداتهم، نجح قوبلاي في الحصول على العرش الإمبراطوري.

في عام 1256، طلب قوبلاي من ليو بينغ تشونغ أن يبني مدينة جديدة في الضفة الجنوبية لنهر لوان خه، وسمياها بكاي بينغ. وجعلها قائمته لتعزيز القوة العسكرية، وأعدّ الطيران كنسر. لكن ما إن فتح جناحيه حتى واجهه تهديد كبير. فكان يدعو حكم على الدولة بكنفوشيوس، وهذا أثار

استياء كثير من الأرستقراطية منغوليا. فشكا أمام منغ قه عدة. وأخيراً بعث منغ قه صديقه أراندا كمبعوث إلى موه نان لاستفهام حالة أمواله.

كان أراندا شخصاً صارماً، وقام بمراجعة الشؤون الجريمية بعد وصوله، وطلب القصاص من كثير من الناس، بما فيها كثير من الأكفاء الذين كانوا يحيط قوبلاي. وأراد أراندا أن يخفّف قوة قوبلاي عن هذه الطريقة. فكيف لقوبلاي أن يعالج الوضع المزعج؟ فأخذ الاقتراح من ياو شو وأطاع سلوك أراندا، وأرسل زوجته وأولاده إلى العاصمة كرهينة. وقابل منغ قه بنفسه، وقال إنه لا يمتلك أي طموح. فوثق به منغ قه.

ففي عام 1258، قاد منغ قه ثلاث قوات لهجوم أسرة سونغ الجنوبية، وهو قاد القوة الرئيسية إلى مقاطعة سي تشوانغ، أما قوبلاي فقاد إحدى القوات إلى مدينة أر تشو. وسمع خبر وفاة منغ قه أثناء الحرب مع جيش أر تشو. في البداية، أراد أن يعود إلى العاصمة لأخذ العرش بعدما تم الاحتلال بمدينة أر تشو.

لكن سمع أن أخاه الصغير علي بوق هو أراد أخذ العرش أيضاً.

إن علي بوق هو أصغر ولد لتوه لي. ولأسرة منغوليا عادة، وهي أن ورث الولد الأصغر أموال الوالد. وكان علي بوق يبقى في عاصمة منغوليا. وكانت الأرستقراطية غير راضية عن دعوة قوبلاي الكونفوشيوسية، وجمع حول علي بوق وأرادوا أن يؤيدوا علي بوق كالإمبراطور القادم. وكان علي بوق قد احتل بمناطق بكين ومقاطعة شانشي، وهذا من أجل صد خطوة قوبلاي إلى الشمال. فإذا ما يمكن لقوبلاي أن يخلّص من مدينة أر تشو، فسيقع في الضيق وربما مات في المدينة.

فماذا يمكن لقوبلاي أن يفعل مواجهة هذا الوضع الخطر؟

فجمع الاكفاء والوزراء ليتناقشوا. وقال هاو جينغ، قد بادر علي بوق علينا أن يتحرّك أولاً، على الرغم من أننا نتمتع بقوة عسكرية أكبر، لكن إذا ادعى علي بوق بأنه يمتلك بالوصية الإمبراطورية وأخذ العرش قبلنا، فلا يمكننا أن نفعل أي شيء. فاقترح هاو جينغ أن يذهب قوبلاي إلى العاصمة دونغ لين فوراً، وأخبر الأمراء أن يجتمع إلى العاصمة لإقامة الجنازة الإمبراطورية،

ثم أعلن بأنه سيرث العرش أمام الجماعة. وفي الوقت نفسه، يرسل قوبلاي المبعوث لاستقبال جنازة منغ قه من أجل الحصول على الختم الإمبراطوري.

فوافق قوبلاي على ذلك. وبالمناسبة، بعثت أسرة سونغ الجنوبية مبعوثاً لتناقش شأن الهدنة. فسرعان ما عقد قوبلاي اتفاقية الهدنة معه بكل سرور.

ثم اتجه قوبلاي إلى الشمال بعد عقد التفاقية، ووصل إلى كاي بينغ في مارس عام 1260.

والوزراء المستشارين ليان شي شيان وتشاو ليانغ بي وشانغ تينغ يقترحون أن يبادر إلى التحرّك، ويقوم بأخذ العرش فوراً. واقترحوا عليه أن يدعي الإمبراطور في مدينة كاي بينغ. فوافق على الفكرة، وجمع الأمراء لإقامة اجتماع يناقش شأن الورث فيه. وحصل على العرش تحت مساعدة أمراء تا تشا أر ويه تشان قه وخه دان ومي قه.

لم يخطر ببال علي بوق أن تصرفات قوبلاي سريعة هكذا. فأقام اجتماعاً في أبريل وأعلن أنه الإمبراطور. لكن كيف لدولة واحدة أن يوجد إمبراطوريان فيها؟ فلا يوجد أي سبيلة إلا أن تحارب الجانبان.

ففي مايو عام 1260، بعث قوبلاي جنرال ليان شي شيان إلى منطقة تشين لينغ. أما علي بوق فأرسل ليو تياي بينغ وهوه لو هواي إليها. وكان لتشين لينغ جنرال اسمه هون دو هاي وكان يدافع على المنطقة. ما إن وصل ليان شي شيان حتى قبض على ليو تياي بينغ وهوه لو هوان، وسرعان ما نجح في الحرب مع هون دو هاي، فانكسرت قوة علي بوق في منطقة تشين لينغ. وفي الوقت نفسه، قاد قوبلاي الجيش متجهاً إلى العاصمة دونغ لين، وهي تعتبر قائمة علي بوق الأصلية.

إن قوة علي بوق أضعف من قوبلاي، إلى جانب كان مضطرباً جداً، فلم يفكّر في التحدي مع جيش قوبلاي قط، فهرب إلى مدينة تشان تشو.

وإنه خشي على أن جيش قوبلاي يسعى وراءه، فأرسل مبعوثاً لمناقشة الهدنة، وقال إنه سيستلم إليه. وسيذهب مع الأمراء الآخرين إلى العاصمة بعد إفشاء قوة الحصان.

ووافق قوبلاي على ذلك.

بعد ذلك، عيّن قوبلاي جنرال اسمه يه تسون قه أن يشرف على جيش العاصمة ويدافعها، أما هو فعاد إلى كاي بينغ. في فصل الخريف عام 1261، بمناسبة الأعشاب الخصبة، قاد علي بوق الجيش إلى الجنوب. وبعث مبعوثاً إلى يه تسون قه وادعى أنهم ذهبوا للاستسلام. وكان يه تسون قه يثق بذلك فلم يحتذر منهم. فهجم على المدينة علي بوق، واحتل المدينة مرة أخرى. فسرعان ما أن قاد الجيش إلى الشمال قوبلاي بعد معرفة الأمر، وتقابل الجانبان في منطقة اسمها شي مو تو ناو أر.

فهُزم هنا جيش علي بوق مرة أخرى.

بعد مشاهدة الفشل الأخرى، قرر أمير أروهو أن يتمرد عليه، وكان الأمير يؤيده في البداية. فلا يوجد أي طريقة لعلي بوق إلا الهروب إلى منطقة شينجيانغ سريعاً. وبعد ذلك، واجهت علي بوق الهزائم المتكررة، إلى جانب نكبة المجاعة في المروج، الأمراء الذين وقفوا على جانب علي بوق استسلموا إلى قوبلاي واحد تلو واحد.

في عام 1264، استسلم علي بوق إلى قوبلاي.

هكذا، إنه استغرق أربعة أعوام لقوبلاي أن يحصل على العرش الإمبراطور تماماً. والآن يمكنه أن يفتح جناحيه للطيران. وفي عام 1271، غيّر لقب الدولة إلى دا يوان حسب اقتراح الوزير المستشار ليو بينغ تشونغ. هكذا بدأت أسرة يوان، وهو يوان شي تسو لأسرة يوان.

153

حقق ون تيان شيانغ رسالته الشريفة

كتب أديب يو كيو يو في كتابه ((الظل لأسرة إمبراطورية)):

فأنا أتأوه آهات خفيفة، كانت الأسرة تحكم على الأراضي الشاسعة لمدة مئات أعوام، ودائماً تبتدأ بمجموعة من الأبطال العظماء، لكن اختتمت بأرواح ضعيفة لطيفة.

فكان يصف أسرة تشينغ، لكن أسرة سونغ ما استثنى عنها أيضاً. فقد تحدثنا عن شؤون الأبطال العظماء في فجر أسرة سونغ، الآن نقترب من خاتمتها، ولا بد أن نتحدث عن الأرواح الضعيفة في نهاية أسرة سونغ الجنوبية. لكن في الوقت نفسه، أظن أنها ليست أرواح ضعيفة في الحقيقة، إنها أشبه إلى الأرواح مقدامة إلى حد ما. فكانوا يحتملون الحزن من فقد أراضي البيت، ثم تخبطوا، وحزنوا، وأخيراً قبلوا بالواقع، واستعدوا للوفاة في أي وقت. الآن نتحدث عن سيرتهم المؤثرة.

ففي أغسطس عام 1274، أرسل قوبلاي جنرالاً اسمه بوه يان لهجوم مدينة لين آن. فقاد بوه يان مائتي ألف من الجنود إليها، وأراد أن تدمر أسرة سونغ الجنوبية كلها هذه المرة. وأثناء اقتراب جيش يوان إلى مدينة لين آن، كان رئيس لين آن يطلب المساعدة من أسرة سونغ الجنوبية، لكن لم تهتم الأسرة بذلك قط. أما الرؤساء الآخرين فلا يفكّر في النجدة إلا أن يحتفظ بحياتهم فقط. ففي الأخير، لا يوجد أحد يذهب للمساعدة إلا اثنين من الجنرالات أي رئيس لمدينة قان تشو وهو ون تيان تشيانغ، وجنرال لمدينة ينغ تشو اسمه تشانغ شي جيه، وأصروا على المدافعة.

إن ون تيان تشيانغ وُلد في لو لينغ بجي تشو، أي مدينة جي آن اليوم، في مقاطعة جيانغ شي. لقبه ون شان. ففي طفولته، سبق له أن شاهد رسوم أويانغ شيوي ويانغ بانغ يي وهو تشيون، وكانوا يمتلكون بلقب محترم واحد بعد الوفاة، أي تشونغ، (يعني الأمانة في الصينية)، فاحترمهم احتراماً

شديداً. وقال إنه يريد أن يصبح مثلهم بعد الوفاة. وقال، إذا ما حقّق ذلك، فإني لست رجلاً حقيقياً في الحياة. في عشرين من عمره، اشترك ون تيان تشيانغ في امتحان التوظيف الرسمي. وكان رئيس الفاحص يشعر بأمانة بسيطة عميقة من مقالته، وأخيراً اختار رئيس الفاحص ون تيان تشيانغ الدرجة الأولى في الامتحان.

فون تياي تشيانغ لا يخاف من سلطان الوزراء الأخيرين، ودائماً يقدم على الاقتراح مباشرة. وسبق له الإساءة إلى سلطان الأرستقراطية وأجبر أن استقال. وما عيّنته الأسرة أي منصب إلا حين الوضع في الفوضى. فأمره أن يحتمل منصب في مدينة قان تشو في مقاطعة جيانغ شي.

والآن، حالة مدينة لين آن عاجلة جداً واقترب منها جيش يوان شيئاً فشيئاً. فقام ون تيان تشيانغ بعمل التجنيد وسارع إلى نجدتها. وكان يريد أن يجمع القوة لمحاربة جيش يوان بصرف النظر عن الحياة. لكن الوزير تشن يي تشونغ الجبان رفض ذلك. ولا يوجد سبيل إلا أن يناقش مع جيش يوان لهدنة. وأخيراً ناقشتْ جدّة الإمبراطور والوزير تشن يي تشونغ أن يبعث مبعوثاً يأخذ بالختم الإمبراطوري لأسرة سونغ الجنوبية إلى جيش يوان لتحقيق الهدنة.

لكن، طلب بوه يان أن يتكلم مع الوزير وجهاً لوجه.

لكن الوزير تشن يي تشونغ شخص جبان يخاف من الموت للغاية. فما إن سمع الخبر حتى هرب إلى الجنوب. في هذا الوقت تطوّع ون تيان تشيانغ على الذهاب إلى معسكر يوان للمناقشة بدلاً من تشن يي تشونغ. فوافقت جدة الإمبراطور على ذلك. بعد وصوله إلى معسكر يوان، ظنّ بوه يان أنه سرجو منه الإقلاع عن الحرب. لكن لم يخطر بباله أن ون تيان تشيانغ سأله بجسارة، هل تريد أسرة يوان أن تصبح صديقاً لأسرة سونغ، أو تريد أن تدمّرها فقط؟

أجاب بوه يان: لا نريد تدمير سونغ قط.

فقال ون تيان تشيانغ، إذاً هكذا، فمن أفضل أن ينسحب جيشك. وإذا أردت الهجوم على أراضي أسرة سونغ، فسأقول لك، إن شعب سونغ سيقاومك بصرف النظر عن حياته.

رأى بوه يان أن موقف ون تيان تشيانغ مقدام جداً، ولا يخاف منه شيئاً. فهدّده: قوْلك هذا ربما سيؤدي إلى عدم استطاعة العودة. أما ون تيان تشيانغ فأجاب: طالما أقدمتُ على الذهاب إلى

المناقشة، فأنا أستعد للموت في أي وقت لدولتي. وأنا لا أخاف منكم أبداً حتى ولو وجود جبال السكين وبحر النار. فجسارة ونتيان تشيانغ اضطربت جيش يوان.

فأمر بوه يان أن يترك المبعوث الآخرين للعودة، ويبقي ون تيان تشيانغ فقط، وفكّر في سجنه. أما ون تيان تشيانغ فعرف حيلة بوه يان، وأراد الاحتجاج. أما بوه يان فتظاهر لم يحدث أي شيء، وقال، إنك وزير أسرة سونغ، ومن السهل أن نتناقش الشؤون معاً بشرط بقائك هنا.

واتضح لون تيان تشيانغ أنه أراد أن يأخذه كرهينة، فخطر بباله أن يدافع دولته بحياته.

رفض ون تيان تشيانغ الاستسلام إلى أسرة يوان. أما أسرة سونغ الجنوبية فقد أرسلت مبعوثاً آخر اسمه جيا يو تشينغ لتقديم رسالة الاستسلام. غضب ون تيان تشيانغ للغاية وسبّ أنه خيانة الدولة.

في عام 1276، احتل بوه يان مدينة لين آن، وقبض على الإمبراطور تشاو شيان والوزراء كالأخيذ وأرسلهم إلى دا دو أي بكين اليوم. كان ون تيان تشيانغ في الأخيذ أيضاً، لكنه نجح في الهرب من الفريق وذهب إلى تشن تشو بمركب.

لكن لم يخطر ببال ون تيان تشيانغ أن جنرال تشن تشو اسمه مياو تساي تشنغ قد استلم رسالة من جنرال يانغ تشو اسمه لي تينغ تشي، وقال فيها إن ون تيان تشيانغ هو جاسوس لأسرة يوان، وطلب منه أن يقتله. لكن مياو تساي تشنغ لم يثق بذلك، ولم يقتله، بل أداه إلى خارج المدينة وأخبره قرار لي تينغ تشي، ونصحه بالهرب.

فهرب ون تيان تشيانغ متجهاً إلى الجنوب، وكان الطريق البري لا بد له أن يعبر مدينة يانغ تشو. لكن كان جنرال يانغ تشو يقوم بالقبض عليه، فركب مركباً إلى مدينة ونزهو لتجنب يانغ تشو. وسمع أن تشانغ شي جيه رفع علم أسرة سونغ في مدينة فو تشو للمقاومة على أسرة يوان. فقرّر ون تيان تشيانغ الذهاب إلى مدينة فو تشو للانتماء إلى قوة تشانغ شي جيه.

154

ضحى جانغ شي جيا بحياته للحفاظ على إخلاصه للبلاد

بعد ون تيانشيانغ حان الوقت لنتحدث عن جانغ شي جي.

ولد في مدينة فانيانغ بمحافظة جواجو وهي اليوم في مقاطعة خبي. انضم إلى الجيش لحراسة الحدود في صباه. ارتقى مرات عديدة بسبب مساهماته في ميدان المعركة وكان يعتقد أنه ذو قدرة خارقة. عندما غزا بويان مدينة لينآن بجيش ضخم قصدها لإنقاذ المدينة وواظب على المقاومة. شأنه شأن وون تيان شيانغ. إلا أنه كان غاضباً تجاه جبانة البلاط واستسلامه. فقرر الانصراف ينتظر الفرصة السانحة للرد على جيش يوان.

وقع الإمبراطور الصغير جاو شيان أسيراً لبويان. إلا أن اثنين من إخوته هما جاو شي وجاو بينغ. تمكنا من الفرار بفضل الوزراء الذين كانوا يتسترون عليهما. من أجل العودة إلى مصابها ومقاومة دولة يوان ناصر وزراء من أمثال جانغ شي جي وتشين يي جونغ ولوشيو فو جاو شي ليكون الإمبراطور الجديد بلقب جينغ يان. إنه الإمبراطور سونغ دوان جونغ.

علم ون تيان شيآنغ وجودهم فانتقل إلى مدينة فوجو وقد عين رئيس المكتب العسكري. فيما بعد، كان يقود المعارك ضد جيش يوان في مقاطعة جيانغ شي وغيرها من الأماكن، وقد استعاد عدداً من البلدات. لكن، تتالت تراجعات جيش سونغ المقيم في فوجيان أمام الهجمات المتشددة من طرف يوان. لاحظ تشين يي جونغ أن استعادة البلاد باتت مستحيلة فهرب لوحده.

تكفل جانغ شي جي ولو شيو فو بحماية الأخوين وفروا على ظهر السفينة إلى قوانغدونغ.

كان ابن أخته جانغ يخدم في جيش يوان، وقد طلب منه جانغ هونغ فان مرات لدعوة خاله للاستسلام. قال جانغ ببرودة: إني عالم بأن الاستسلام يضمن لي حياتي وما لا يحصى من الثروات. إلا أني أفضل الموت على الخيانة.

رأى جانغ أن إسداء النصيحة لم يعد يجدي فحث خطاه في مهاجمة ياشان.

تقع ياشان في الخليج الجنوبي لبلادنا تتميز بالتضاريس المعقدة. كان جانغ شي جي يربط أكثر من ألف سفينة على خط واحد وأقام منشآت حول الأسطورة مستعداً للقتال حتى آخر لحظة. لاحظ جانغ هونغ فان هذا الوضع فقرر شن الهجوم بسفن الحرق. فإذا أشعل النيران في سفينة واحدة لا بد أن تطول ببقية السفن.

ما خالف توقعاته أن جانغ شي جي كان على استعداد لهذه الاحتمالات.

قام بطلاء طبقة من الطين المبلل على السفن لمنع الحريق، كما تم تثبيت كثير من العيدان الخشبية حتى إذا ما اقتربت سفن الحرق منها تم إخراج العيدان صوب جانبي السفن. عاين جانغ اشتعال سفنها في وسط النهر وغرقها في قاع النهر فاشتاط غضباً.

خطرت على باله حيلة أكثر قسوة من سفن الحرق.

أمر بإغلاق مصب النهرحتى يفصل جانغ شي جي عن شاطئ البحر. كان جيش سونغ غير قادر على الخروج، والناس في الخارج لا سبيل للدخول، مما قطع الإمدادات للمستلزمات اليومية. فكان الجنود مضطرين لأكل الخبز البارد القاسي لكي يسدوا الجوع كانوا يشربون المياه البحرية المالحة عند العطش. كان كثير من الجنود يعانون من الألم الشديد في المعدة والقيء. رغم ذلك، لم يتخلّ عن الدفاع في وجه هجمات يوان الكثيفة.

في هذا الوقت وصل فرع آخر من الجيش إلى ياشان مما زاد في قوة جانغ هونغ فان. تم تقسيم الجيش إلى أربعة فرق تنهال على جيش سونغ من الجهات الأربع. كان جنود سونغ موهوني القوة يصبرون أمام الهجمات. ذات يوم، شن جيش يوان هجوماً وهم سونغ بالدفاع، إذا بصوت الموسيقى ندى عن معسكر يوان. بادئ الأمر كان الناس يعتقدون أن جيش يوان أقام وليمة للاحتفال واستغربوها، إلا أن هذه الموسيقى تمثل الأوامر الأخيرة للهجوم. وبالتزامن مع الأوامر تنزل السهام

كالأمطار على جيش سونغ. لم يتحين الفرار من السهام، فسقط منهم ما لا يحصى من الجنود، مما صبغ سطح البحر بحمرة دمائهم.

رأى لو شيو فو أن الوضع قد ساء فتأوه قائلاً: إن الفناء مرتقب. ألقى بنفسه إلى البحر المتلاطم وبحضنه جاو بينغ. سرعان ما التهمهم البحر.

في الليل البهيم انسحب جانغ شي جي إلى جبل هايلينغ شان. اتكأ على سارية السفينة المبللة وأجال النظر على صفحة البحر المتموجة. فكر في الإمبراطور الصغير. هل دولة سونغ الجنوبية آئلة إلى الفناء؟ ربما هناك بعض الآمال. إلا أن أعاصير تعصف بالبحر وهناك من نصحه بالصعود إلى الشاطئ للاختباء. كان يأبى الفكرة. في هذه الحالة من الجمود إذا بموجة ضخمة ابتلعت السفينة وابتلع القائد الوفي لدولة سونغ الجنوبية.

في فبراير 1279 ماتت دولة سونغ الجنوبية وتمكن يوان من توحيد الصين.

155
ليشرق قلبي في سجلات التاريخ

رغم فناء سونغ، إلا أن عجلات التاريخ ما زالت تتدحرج إلى الأمام. لنتوقف هنا هنيهة لنناقشكم عن مسألة: كيف يترك الإنسان بصمته في التاريخ؟

عندما نتصفح نجد نقاشات بين موشو وفانشوانزي في كتاب ((تاريخ عصر الربيع والخريف)) حيث سأل فانشوانزي: قال القدماء: الموت بالخلود. ماذا يقصد به؟ لم يجبه موشو. فضرب مثالاً بسلالته حيث عرض أجيالاً من أسلافه كلهم كانوا من الطبقة الأرستقراطية وكانوا يشغلون مناصب خطيرة دون انقطاع. ظن أن هذه هو ما يقصد بالخلود.

إلا أن موشو كان ينفي هذا الاعتقاد. ظن أنه مكانة اجتماعية متوارثة وليس خلود. إذاً، ما يعني الموت في خلود؟ لقد طرح موشو ثلاثة معايير للخلود. أي السلوكيات الحسنة والمساهمات الجليلة وطرح الأفكار الثاقبة. رغم أن ثمة آراء مختلفة في خصوص الخلود إلا أن نقاشاتهم لا تتجاوز هذه الإطار. إن مفهوم الإحسان عند كونفوشيوس والعدل عند مونشيوس على اختلافهما في بعض الجوانب يعزى أصولهما إلى المعايير الثلاثة.

بالنسبة إلى الخلود الثلاثة الذي سعى الإنسان إلى تحقيقها، إخلاد إنجازاته في حاجة إلى الحظ، إخلاد كلامه في حاجة إلى الحكمة، أما إخلاد أخلاقيته فيعتمد على جهود الفرد فقط. يمكن القول إن الذي يسعى وراء إخلاد اسمه في التاريخ يمتاز بقوة مدهشة. بعضهم أبرار والبعض مخلصون. يسعى إلى تأسيس فضيلتهم التي تتلألأ في التاريخ عن طريق أنفسهم. بعد أن أدركت هذه النقطة ستقدر الأبطال الذين لن يندموا على خيارهم بغض النظر عن الحواجز.

والآن، لنتحدث عن بطل اسمه ونغ تاين شيان. وكان يتمسك بأخلاقيته معتقداً أن مصير مشترك ونهائي لكل إنسان يعيش في هذه الدنيا هو الموت. فكان يعمل على حفظ براءته وبره الذي

يضيء التاريخ حتى بعد موته.

قلبه المخلص بمثابة البر وعدم الخيانة. وفي يومنا، قد يعتبره بعض الناس نوعاً من الغباء، وفي قديم الزمان، إنه يمثل فضيلة الإنسان التي لا تتغير مع مرور الوقت وتستحق تقدير كل الناس. والآن لنتحدث عن قلبه المخلص.

بعد الاستيلاء على جبل ياء، أقام تشنغ هونغ فان مأدبة الاحتفال ودعا ونغ تاين شيان للحضور وأقنعه قائلاً إن أسرة سونغ الملكية قد هلكت، وقد أبرزت تصرفاته لكونك رئيس الوزراء إخلاصك لملكه القديم. والآن طالما أعلن ولاءه لأسرة يوان الملكية، ما زال رئيس الوزراء لهذه الدنيا. وسيملك ثروة لا نهاية لها.

أجابه ونغ تاين شيان وعيناه تملأهما الدموع: ينبغي أن أموت إذ إني لا أستطيع إنقاذ دولتي من الهلاك باعتباري مأموراً في هذه الأسرة. كيف أخونها من أجل تجنب الموت والتمتع بالغناء والثروة.

وجد تشنغ هونغ فان أن موقف ونغ تاين شيان ثابت، فتخلى عن إقناعه، أمر أتباعه بسجنه. قد عرف ملك أسرة يوان الملكية أن ونغ تاين شيان نال إعجاب الشعب وتقديرهم. طالما استسلم ونغ تاين شيان لأسرته، سيطاع العديد من شعبه للأسرة الملكية الجديدة. وتأثيره أفضل من استخدام العنف. لذلك، قد بذل أقصى جهوده لكي يستسلم لأسرة يوان الملكية.

كان ونغ تاين شيان يتمسك بموقفه ولا يتأثر بالتحريض. فاضطر أن يعبث ليو مونغ يان الجنرال الذي استسلم لأسرة يوان الملكية من قبل لإقناعه. لم يمض وقت طويل حتى يخرج من حجرة ونغ تاين شيان وخاب أمل الآخرين قائلاً إن موقف ونغ ثابت وعامله معاملة سيئة. فلا ينبس بأي كلمة حتى انهال ونغ عليه بالشتم.

لوح الملك بيده نافد الصبر وأمر ليو بالخروج.

بعد فشل الإقناع بهذا الشكل، أمر الملك لأسرة يوان الملكية بحبس ونغ في السجن المظلم الذي لا أحد يطيق الإقامة فيه. فرائحته كريهة ومظلم ورطب. ويشعر بالبرد القارص بمجرد لمس الجدار. لا تتسرب أشعة الشمس إليه طول اليوم.

لكن عزيمة ونغ تاين شيان لا تهزم. من أجل تشجيع النفس، كتب قصيدة بعنوان ((أغنية الصلاح)) على جدار السجن وقال فيها إن قوة الصلاح موجودة وخالدة في الدنيا. في الأرض تتحول هذه القوة إلى الجبل والنهر. وفي السماء تتحول إلى الشمس والنجوم. في الإنسان تتجسد في إخلاصه وبره. ثم ذكر اثني عشر وزيراً وفياً مثل تشانغ ليانغ، سو وو، تشو قه ليانغ، قوان نينغ، زو يو. بعضهم لا يخافون من افتراء المأمور الطالح والبعض الآخر لا يستسلمون إلى العدو. من خلال مراجعة قصصهم، علم ونغ نفسه للتمسك بإخلاصه.

هؤلاء الأسلاف جميعهم مثلوا أخلاقيتهم الحميدة فتكون أسمائهم خالدة في التاريخ. فقرر ونغ تاين شيان أن يستفيد من قصصهم ويحتذي على مثالهم معتقداً أن قصصهم تضيء طريقه.

قد قضى ونغ تاين شيان ثلاث أعوام بهذا الشكل وكان يتمسك بموقفه.

في هذه الفترة، قد عذبه رئيس الوزراء بولو ليجبره على الاستسلام. وأقنعه العديد من الوزراء الذين استسلموا لأسرة يوان الملكية. لا يتأثر ونغ بالتعذيب الجسدي أو الوعود المتنوعة. في الوقت اللاحق، اندلعت ثورة الفلاحين في مدينة تشونغشان لمقاطعة هيبي يدعون إلى مهاجمة عاصمة أسرة يوان الملكية لإنقاذ ونغ من سجنه. فالعديد من الناس نصح الملك ألاّ يتردد في أمر ونغ ويقتله في أسرع وقت ممكن.

ما زال الملك يأمل في استسلام ونغ. وقرر إقناعه بنفسه. لكن ونغ لوح بيده كتحية بعد لقائه بالملك. وما بالى الملك أي اهتمام لهذا الأمر. وقال له بلطف: «قدرت إخلاصك لأسرة سونغ الملكية. ولكنها قد هلكت الآن. طالما وافقت على الاستسلام، أعينك رئيس الوزراء، كيف؟».

أجابه متمسكاً بموقفه الدائم وقال: لا أخلص إلا لأسرة سونغ الملكية باعتباري مأموراً لها، وكيف أتولى المنصب في الأسرة سواها. أتمنى أن تقدر ظروفي.

واصل الملك كلامه بلطف: إذا لم ترد منصب رئيس الوزراء، كيف القائد العسكري؟

رفض ونغ اقتراح الملك قطعاً باتاً. حاول الملك إقناعه عبثاً، فأمر أتباعه بقتله. في يناير لعام 1283، استشهد ونغ تاين شيان في يوم من أيام غائمة. قبل وفاته، ركع لمرات باتجاه الجنوب من أجل إبراز إخلاصه الدائم لأسرة سونغ الملكية الجنوبية. ثم استشهد بشجاعة.

قد انتهت قصة ونغ تاين شيان حتى الآن، ولنناقش الموضوع حول إخلاد الاسم في التاريخ.

إخلاد الاسم في التاريخ أمر يصعب الحكم لا يخلو من الصدفة. قد قدم كثير من الوزراء الأوفياء والأبطال مساهمات لدولتهم، لكن لم يثيروا أي اهتمام ضابط تسجيل التاريخ حتى دُفنوا تحت التراب. رغم أن الكتب التاريخية مثل الجبال الشاهقة، في الحقيقة إنها مجرد غيض من فيض. خبأ التاريخ في طيتها كثيراً من الأشخاص الذين أصبحوا مغمورين ولكن سبق لهم أن عاشوا في الفرح والحزن وسعوا إلى تحقيق إخلاصه وعزمه.

156
الرسول بين الثقافة الشرقية والغربية

في سجن جنوة بعيد، يحكي المسين ما رأى وسمعه في السفر ببطء.

يستمع رجل بجانبه باهتمام ويستمر في تدوين ما قال المسين. يمر الوقت في السجن كالسحاب لا الشعور به، فيقضي يوماً بعد اليوم، حيث إن المخطوطات التي سجلها الرجل سميكة بالفعل ومكدسة بدقة على جانب واحد. في مستقبل قريب، ستطلق على هذه المخطوطات اسم «الشرقيون»، وهي مشهورة في الغرب وتثير جنوناً بحرياً.

اسم المسين هو ماركو بولو، الرجل هو روستيشيلو دا بيزا.

كان ماركو بولو مسافراً نادراً في تلك العصر، وكان خطاه قوياً وثابتاً، خطا نحو جبال وأنهار في الشرق الأقصى مما سمح للعالم بمشاهدة اتساع رخاء مملكة يوان وازدهارها من زاوية أخرى. الآن، نبدأ نروي قصته. إن أسرة يوان مترامية الأطراف ومتوافرة الموارد، كانت تجذب عديد من التجار المسافرين. هناك زوج من الأخوة من البندقية، يدعى نيكولا بولو ومارسيليا بولو، التقيا بسفارة يوان في طريق العمل، ودعتهما السفارة إلى رؤية الإمبراطور الصيني، أي يوان شيزو.

استقبل الرجلين بحرارة وحماس من قبل يوان شيزو. كانا مهتمين جداً بالتقاليد الصينية، واطلع الإمبراطور الصيني أيضاً على بعض الوضع الأوروبي، لذا طلب منهما أن يرسلا رسالته إلى البابا وأمل من البابا إرسال مئات المسيحيين إلى الصين. وعادا إلى البندقية بعد ثلاث سنوات بعد تغلب مختلف الصعوبات.

جذب سفرهما وخبرتهما رغبة الصبي، هو ماركو بولو.

عندما كان ماركو بولو في الخامسة عشر من عمره، يستمع بقسوة إلى أبيه وعمه الذي أخبراه عن ازدهار ممالك الشرق الأقصى، ورويا عن الصعوبات والعجائب في السفر، وكان حسودا للغاية. يحب السفر مثل أبيه، وتوسل أبيه أن يأخذه إلى الصين.

فوافق أبوه وعمه على سفره. لذا أخذا ماركو بولو من الرحلة الصعبة ووصلوا إلى الصين مرة أخرى بعد أربع سنوات في عام 1275. التقى قوبلاي خان لهم. ورأى قوبلاي خان أنه كان هناك صبي بجانبهم، واستغربه، فسأل: من هو؟

هرع ماركو بولو ليقول: يا حضرة خان، أنا ماركو بولو.

وقال أبوه نيقولا بولو على عجل، حضرة خان، هو ابني، عبيدك، وهو لا يفهم الآداب الإمبراطورية، من فضلك لا تتفاجأ.

لم يعتنِ كوبلاي بل كان الصبي الوسيم يعجبه كثيراً، فقال: تبقى معي، وسأهتم بك.

شعر أخان نيكولاي وماركو بولو بسرور للغاية، عبروا شكرهم وموافقتهم على عجل.

لذلك، كان يعمل ماركو بولو بجانب كوبلاي خان وهو ذكي ومتلهف على التعلم، فأجاد المنغولية والفارسية في سفره، بعد ذلك، أجاد الصينية بسرعة. كان قوبلاي خان مولعاً جداً به وغالباً ما طلب منه أن يحكي القصة في السفر. بعد فترة قصيرة، عاد قوبلاي خان إلى العاصمة ورافقه ماركو بولو أيضاً. لم يفكر أبداً أن العاصمة يمكن بناءها بشكل رائع جداً. بقي في القصر طول اليوم، إن بيئة الإمبراطورية الشرقية القديمة جعلته مخموراً جداً. لكن ماركو بولو يحب السفر. على الرغم من أن القصر رائع جداً، فهو يريد أن يرى أكثر من الناس، الجبال والأنهار في الشرق الأقصى.

فما استطاع مزيد من الانتظار، وأراد الخروج من القصر لرؤية ما بدا عليه في مكان آخر.

من قبيل الصدفة، أرسل قوبلاي خان بعثة إلى مقاطعة يوننان، لذلك سمح له بمرافقة. بدأوا من العاصمة، ووصلوا إلى مقاطعة سيتشوان عبر مقاطعة شانشي ومقاطعة شنشي وجبال تشينلينغ. تزدهر الغابات في غرب سيتشوان، وإن الجبال والأنهار عجيبة، كلها جذب ماركو بولو بعمق. كان فضولياً للغاية ويريد أن يختبرها بنفسه وينظر إليها، فغالباً ما كان يتخلف عن الفريق.

عندما وصل إلى مقاطعة يوننان التي تتمتع بالمناظر الجميلة، رأى نوعاً من الأصلة فيها وهو قوي وشرس. ألقى نظرة فاحصة على كيفية القبض على السكان المحليين للثعبان. وضعوا قطع حديدية حادة في طريق الأصلة إلى شرب المياه. عندما مرت الأصلة بالقطع الحديدية، تم قطع البطن وماتت. هذا النوع من الأصلة لديها لحم طازج. إن مرارة الأصلة في بطنها لها قيمة كبيرة ويمكن علاج أمراض مثل داء الكلب والاختلاجات. شعر ماركو بولو بالسحرية لكل ما رأى. بعد ستة أشهر، عاد ماركو بولو إلى قوبلاي خان، ووصف سفره بوضوح. كان قوبلاي سعيداً جداً بعد الاستماع.

عاش ماركو بولو في الصين لمدة 17 عاماً، وأرسل إلى العديد من الأماكن من قبل يوان شيزو، مثل يانغتشو، فيتنام وسومطرة. عندما وصل إلى مكان واحد، عليه أن يتفقد التقاليد والنوادر المحلية، ويحكي إلى كوبلاي خان بعد عودته. لذلك، سار ماركو بولو في الأراضي الشاسعة لأسرة يوان، واستخدم أعين من الغربيين لاستكشاف سحر الشرق الأقصى.

بعد فترة طويلة، بدأ ثلاثة بندقيين يشتاقون إلى وطنهم الأم.

فيما بعد، اندلعت الحرب بين البندقية وجنوة. فقاد ماركو بولو أسطوله للاشتراك في الحرب. لكنهم فشلوا فيها. وأُسر ماركو بولو إلى جنوة. وفي الفترة التي قضاها في السجن، أخبر تجربته إلى الكاتب لوسي تيكيان الذي دونها في كتاب ((عجائب المشرق)) واسمه الآخر أكثر شيوعاً هو: ((رحلات ماركو بولو))، والذي أثار توق الغربيين إلى الشرق. وفي البداية، رسموا خريطة العالم استناداً إلى الخطة الواردة في هذا الكتاب، مما ساهم في اكتشاف طريق الملاحة الجديد وعزز التبادل الحضاري بين الصين والغرب.

كما ترى، إن الملاحة مثل كولومبس وماجلان ودا غاما بدأوا رحلاتهم يحملون هذا الكتاب.

هل ماركو بولو زار الصين أو لا، ما زال هذا الموضوع يثير الجدال حتى الآن. العديد من الناس فكروا في إيجاد أدلة له. روى ماركو بولو قصص ((رحلات ماركو بولو)) اعتماداً على تجربته الشخصية أو على العجائب التي سمعها فقط. فيمكنك الاطلاع على المراجع ذات الصلة إذا يهمك هذا الموضوع.

157
اشتعال نار الثورة

ما يلي ازدهار الأسرة الحكمية هو انحطاطها. يمكن القول إن أسرة يوان الملكية (1271–1368م) سريعة في ازدهارها وانحطاطها.

في عام 1329، سمع الوزير الشهير اسمه تشانغ يانجهاو الذي تقاعد في منزله أن الجفاف والقحط قد أصابت عمق الصين حتى يأكل المنكوب بعضهم بعضاً بسبب الجوع. فعندما جندته الحكومة الصينية كمنسق الإغاثة في مقاطعة شنشي، وافق عليه بغض النظر عن شيخوخته، وانطلق فوراً بعد توزيع ثروة عائلته بين الفقراء والمحتاجين. ومر بلويانغ، ديانتشي، شاوقوان ثم وصل إلى تشانغآن. رغم معاناته من برد الرياح والصقيع، استعجل في الوصول نهاراً وليلاً. وعاين معاناة المنكوب في طريقه إلى تشانغآن، مما أثار حزنه وشفقته.

بالنسبة إلى الأديب، لا بد أنه لجأ إلى قلمه لتبديد عواطفه في صدره. ونظم بضع قصائد للتعبير عن آرائه حول ازدهار الأسرة الملكية وانحطاطه وحزنه لمعاناة الشعب. ويتخلل قصائده حزنه وكآبته، وبينها شعر مشهور لا مثل له يسمى بـ ((غنم في منحدر الجبل – ذكريات الماضي في منطقة شاوجوان))، وقال فيه إنما إن فتح المؤلف التاريخي حتى لاحظ أن الأسر الملكية في تحوله بين الازدهار والانحطاط بدون توقف. لكن الشعب ذاق مرارة هذه التحول مهما كانت الأسرة الملكية في ازدهارها أو انحطاطها. وتساءل الشاعر متى تنتهي معاناة الشعب؟

بعد نظم هذه القصائد، ذهب تشانغ يانجهاو إلى مقاطعة شنشي لتولي منصبه ولم يعد إلى بيته بعد ذلك. وعمل كمنسق الإغاثة لأربعة أشهر واجتهد بدون كسل وتفريط حتى توفي بسبب عمله الشاق. عمَّ الحزن منطقة قوانتشونغ كلها بعد انتشار وفاة تشانغ يانجهاو. ناح عليه الشعب جميعاً مثلما ناحوا على آبائهم.

قصائد تشانغ يانجهاو التي كتبت في شيخوخته كلها يدور حول الموضوع الواحد: معاناة الشعب في ازدهار الأسرة الملكية وانحطاطها. وأصبح متشائماً لمستقبل أسرة يوان الملكية بعد معاينة تشرد الشعب وانتشار جثث الأموات. حقاً إن أسرة يوان الملكية سيلحق بها الهلاك تزامناً مع معاناة الشعب. وستظهر أسرة ملكية جديدة بعدها. لنستمر في حديثنا.

بينما عزز توحيد أسرة يوان الملكية الاندماج العرقي، أدى نظام التسلسل الهرمي إلى النزاعات العرقية الدائمة وتعرض الشعب في الطبقة السفلى إلى التعذيب. استعبد الحكام المنغوليون الأسرى كحيوانات وأطلقوا عليهم اسم الإهانة: مواش. تضطر «هذه المواشي» إلى الاستمرار في العمل نهاراً وليلاً. وجندت الحكومة في أسرة يوان الملكية مجموعة من الحرفيين للعمل في المصانع المحلية. وغالباً ما يتعرض هؤلاء إلى الضرب والشتم ويعيش في الجوع والخوف. تعاسة العيش لا تطاق.

في الوقت نفسه، الفساد يتسرب إلى قصر أسرة يوان الملكية والاضطراب يعمه. في عام 1294، اشتد مرض كوبلاي وتوفي. وتولى يوان تشنغ زونج العرش ثم وو زونغ، ورين زونغ، وييِنغ تسونغ وغيرهم من تسعة أباطرة حتى إمبراطور يوانشان.

كان إمبراطور يوانشان قاسياً وعنيفاً لا يعرف الشؤون السياسية فبلاطه في الاضطراب والفوضى. ليس لدى الشعب خيار آخر سوى الانضمام إلى المنظمات السرية مثل ديانة اللوتس الأبيض وزعيمه هان شانتونغ وهو فلاح فقير استخدم الديانة لتحريض الشعب على الثورة. وقد شكلت هذه المنظمة حجماً لا بأس به في حكمة يوانشان.

حكم الإمبراطور القاسي ومعاناة الشعب الشديدة قد أدى إلى الاضطراب الذي عم البلاد كلها. وحالة أسرة يوان الملكية خطيرة للغاية.

في عام 1344، استمرت عواصف المطر لأكثر من عشرين يوماً، مما أدى إلى تحطيم جاهز النهر الأصفر. وغمر الفيضان المنازل على جانبي النهر والأشخاص الذين لم يتمكنوا من الفرار. لذلك جندت الحكومة أكثر من مائة آلاف من العمال ليهاجروا إلى هوانغلينغجانج (جنوبي غرب بلدية تساو لمقاطعة شاندونغ حالياً) من أجل حفر مجرى النهر. كان العمال يعملون تحت أشعة الشمس القاسية والأمطار الهاطلة، لكن لا يأكلون سوى وعاء من العصيدة التي تخلو من

حبوب الأرز أحياناً. والسبب هو أن يخصم الموظفون الحكوميين المحليين الرسوم الذي خصصه صاحب السلطة لمعالجة الفيضان.

غضب العمال بسبب الجوع والتعب، فكتب هان شانتونغ أغنية التحريض واغتنم هذه الفرصة لترويجه: كان الرجل الحجري له عين واحد، بإمكانه تحريك النهر الأصفر وإطاحة السلطة. انتشرت هذه الأغنية بين العمال. ولم تمضِ بضعة أيام حتى وجد أحد العمال تمثالاً حجرياً له عين واحد بينما قام بحفر الطين. سرعان ما انتشر هذا الخبر، تذكر جميع الناس تلك الأغنية المتداولة.

طبعاً، إن التمثال الحجري دفن في التراب مسبقاً من قبل هان شانتونغ.

اغتنم هان شانتونغ هذه الفرصة لرفع العلم المناهض لأسرة يوان الملكية. وجند مع صديقه ليو فوتونج أكثر من ثلاث آلاف شخص في منطقة بيلوتشوانغ وقرروا الانتفاض في يوم الخامس عشر لشهر أغسطس واتخذ إطاحة أسرة يوان الملكية وإعادة تأسيس أسرة سونغ الملكية، انتُخب هان شانتونغ كملك مينغ وانغ. لكن خبر انتفاضتهم تسرب ووصل الحكومة التي أرسلت الجنود لحصار بيلوتشوانغ بإحكام. وقاتل ثلاث آلاف أعضاء لمنظمة ديانة اللوتس الأبيض في المعركة الدموية، ولم ينجحوا في مقاومة هجوم جنود أسرة يوان الملكية، واستشهد الجميع إلا ليو فوتونغ جُرح بشكل شديد وهرب من الحصار ولجأ بخرسة إلى مدينته قرية ليوتشو في مدينة ليج.

جند ليو فوتونج المؤمنين من جديد. وبعد التخطيط الشامل والاستعداد الدقيق، رفعوا علم الثورة لمرة أخرى في الثالث من مايو. ولبس المؤمنون حجاباً أحمر على رؤوسهم، وهجموا على مدينة ليج تحت قيادة ليو فوتونج. واستولى على مخازن الأطعمة ووزعها بين الناس، وقتلوا المسؤولين الفاسدين جميعهم، فانضم كثير من المنكوبين إلى جيش الثورة. ثم اتجه الجيش إلى الجنوب تحت قيادة ليو فوتونج واستولى على الموقع الاستراتيجي المهم تشو هاون جي، وأصبح عدد جيش الثورة مائة ألف. ويسمى الجيش بجيش الحجاب الأحمر لأنهم يلبسونه. وتسمى هذه الثورة بثورة الحجاب الأحمر.

عندما سمع ملك ثورة الحجاب الأحمر، أصابه الهرع والخوف فأرسل جيشه لقمع هذه الثورة.

لكن أسرة يوان الملكية في تلك الفترة في حالة خطيرة وليس في مقدور جيشه إطفاء نار الغضب المشتعل في قلوب المتمردين. وثورة الحجاب الأحمر التي قادها ليو فوتونج بمثابة فتيل أشعلت ناراً للإطاحة بأسرة يوان الملكية. وهاجمها شو شو هوى من مدينة ليشوى وقوه تسى شينغ فى مدينة تشنتشو باسم جيش الحجاب الأحمر، مما أدى إلى هلاك أسرة يوان الملكية.

لا يريد الملك يوان شون الخروج من المسرح التاريخي بهذا الشكل. في عام 1354، أرسل وزيره تواتوا ليقود جيشاً ضخماً من أجل حصار المتمردين في مدينة غاويو، مما أوقعها في تهلكة. لكن الصراع الداخلي حدث في قصر أسرة يوان الملكية بشكل مفاجئ، وتعرض الوزير لافتراء أعدائه السياسيين ونزعه الملك من منصب الوزير بدون تحريات. فشل جيش يوان الملكي بدون قتال وتخلص جيش الثورة في مدينة غاويو من الخطر.

في عام 1355، انتخب ليو فوتونج ابن هان شانتونغ اسمه هان لاينر كملك منيغ الصغير، ودولته مشهورة بلقب سونغ الكبير. ثم أرسل الجيش للتوجه إلى الشمال عبر ثلاث طرق، واستولى على ما مر به في الطريق من المدن، ونجح في الحروب كلها حتى وصوله إلى العاصمة.

حينئذ وقعت أسرة يوان الملكية في الفزع والخوف، وأرسلت قواته الضخمة لقمع الثورة، مما ألحق الفشل بثلاث جيوش لليو فوتونغ. في عام 1363، قتل ليو فوتونغ في المعركة. انتهت انتفاضة جيش الحجاب الأحمر المشهورة بالفشل، لكن القتال والثورة لم ينتهيان بعد. إن واحداً من الرهبان سيصعد المسرح التاريخي وهو الذي أطاح بأسرة يوان الملكية.

158
عرافة تشو يوان جنغ

في المعبد المسمى بهؤان جيو (معناه: العرفان)، كان راهب شاب يقوم بالعرافة.

يركع أمام تمثال إله الحماية البوذي، في يده اثنين من خرز العرافة. وقال لنفسه، إذا كانت صورة القمر في الأعلى بعد إلقاء الخرز على الأرض، يدل على موافقة الإله على قراره وحصوله على حمايته. ثم يتساءل في نفسه، أن ينبغي لي الهروب؟ فيلقى الخرز على الأرض، صورة القمر لخرزة وصورة الشمس لخرزة أخرى، الأمر الذي أثبت فأل الشر. ثم يتساءل: البقاء في هذا المعبد؟ ويلقي الخرز من جديد، لكن النتيجة لا تتغير مثل المرة السابقة. فيشعر بالاضطراب والقلق. هل من الضروري أن يختار ذلك الطريق؟ ثم يتساءل في نفسه: الانضمام إلى جيش الثورة؟ بعد إلقاء الخرزتين على الأرض، تظهر فأل الخير أي صورة القمر لكل خرزة.

ويقوم الراهب من الأرض ببطء، قد عقد عزمه. في هذا العالم المضطرب، لا بد أنه يجازف بحياته ليعيش. وكان في الخامسة والعشرين من عمره. لم يمض وقت طويل حتى ترك حياة الراهب، وإنه الذي غير تاريخ الصين. اسم هذا الراهب هو تشو يوان جان. وما هي قصته، لنواصل روايتها.

في اليوم الثامن للشهر الثامن لعام 1328 وفق التقويم القمري الصيني، ولد تشو يوان جنغ في بلدية تشونغلي لمدينة قانتشو لمقاطعة خنان (أي مدينة فنغيانغ لمقاطعة آنهوي حالياً). وفي السابع عشر من عمره، اندلع وباء في مدينته. فقد توفي أبواه بسبب هذه الكارثة، واشتد فقر بيته. فمن أجل العيش، اضطر إلى أن يصبح كاهناً في معبد هوانغجوي. رغم أن أيام الكاهن شاقة، تطاق على كل حال. لكن سرعان ما نفدت المواد الغذائية في المعبد. لا بد أن تشو يوان جنغ يخرج من المعبد لطلب الأطعمة في المنازل المختلفة. وكان يتشرد في غربي منطقة هاو حيث ذاق مرارة الحياة. ما عادت

حالة مدينة تشانغتشو إلى شكلها الأصلي إلا بعد ثلاث سنوات لحدوث الوباء. وحينئذ عاد تشو يوان جنغ إلى معبد هوانغجوي.

لكن لم يمض وقت طويل على استقرار الوضع حتى اندلعت ثورة الحجاب الأحمر وجيش أسرة يوان الملكية دمر معبد هوانغجوي في هذه الثورة.

اشتعلت نيران الحرب في أنحاء الصين. يا ترى إلى أين يلجأ هو؟ في هذا الوقت، كتب صاحبه في الطفولة رسالة له يدعوه إلى الانضمام إلى جيش الانتفاض. وتردد تشو يوان جان في هذا الأمر. أخيراً قرر أن يلجأ إلى قوه تسى شينغ بعد قيامه بالعرافة لثلاث مرات.

في ذلك الوقت، رغم أن ثورة الحجاب الأحمر تم قمعها، غضب الشعب المشتعل لا يخمد.

لا يزال قوه تسى شينغ في مدينة تشانغتشو يقود الناس للقتال. وكان قوه تسى شينغ صريحاً وكريماً يرغب في التعرف على الأصدقاء من كل مكان. وكانت أسرته غنية في الأصل، لكنها تعرضت لابتزاز المسؤولين المحليين باستمرار، مما أثار غضبه، فانضم إلى ديانة اللوتس الأبيض بدون تردد. في عام 1352 أي بعد انتفاضة ليو فوتونغ بسنة، نظم قوه تسى شينغ آلاف من المؤمنين لمهاجمة مدينة تشانغتشو ليلاً واستولى عليها، ثم عين نفسه كرئيس الجيش، وجاءه الناس من كل مكان لإعلان ولائهم له.

ذات يوم، حينما تفقد الجنود أمام بوابة مدينة تشانغتشو، جاءهم راهب شاب ملابسه بالية ووجهه مغبراً قائلاً إنه يريد الانضمام إلى جيش الحجاب الأحمر، هذا الشاب تشو يوان جنغ بدون شك. لكن الجنود شكوا في صحة كلامه ظناً أنه جاسوس لجيش أسرة يوان الملكية فقبضوا عليه وأحضروه إلى قوه تسى شينغ. لكن قوه اعتقد أن هذا الراهب فريد من نوعه، رغم أنه قبيح بسبب عظام الخد الجاحظ والأنف الشامخ. لكن تجلت في عينيه الشجاعة والبسالة التي تعجبه كثيراً. فأمر قوه تسى شينغ أتباعه فك ربط تشو يوان جنغ. وانهال عليه بالأسئلة: ما اسمك؟ لماذا تكون راهباً؟ لماذا لا تبقى في المعبد بل جئتني؟ أجاب تشو يوان جنغ عن هذه الأسئلة واحداً تلو الآخر.

أعجب تشو يوان جنغ بطلاقة لسان تشو يوان جنغ ومنطق سرده، فجنده إلى جيشه. وإن تشو يوان جنغ ذكي وماهر في التعامل مع الأشخاص. وكان تشو يوان جنغ يقدر على القراءة والكتابة

لأنه قرأ المؤلفات البوذية في المعبد من قبل، فساعد الآخرين على كتابة الرسالة. لذلك، تعرف على كثير من الأصدقاء.

كان تشو يوان جنغ باسلاً وشجاعاً في القتال. ذات مرة، رافق غو تسى شينغ للتفتيش عند الخارج. وفاجأهم هجوم جيش أسرة يوان الملكي. لم يقع تشو يوان جنغ في الهرع والفزع بسبب كثرة الأعداء. بل انتظر الفرصة السانحة للدفع إلى الأمام وقتل الأعداء. وقتل اثنان من جيش الحجاب الأحمر بعد مجرد ومض ضوء سكينه الطويل. أما الآخرون من جيش أسرة يوان الملكية، فخافوا وهربوا.

سر غو تسى شينغ أن تشو يوان جنغ لا يخون أمله. بعد عودته، عيّنه المساعد الموثوق به.

ذات مرة، قالت زوجة غو تسى شينغ له إن تشو يوان جنغ ذكي ومطيع وذو مواهب كثيرة. ففي ودها أن تجعله صهرهما. ما إن سمع غو تسى شينغ هذا الكلام حتى أومأ برأسه التعبير عن موافقته. في الأصل، كان لغو تسى شينغ صديق العمر اسمه ما جونج الذي عهد ابنته إلى سمع غو تسى شينغ قبل وفاته. وفي هذه المرة زوج سمع غو تسى شينغ بها.

بعد أن كان تشو يوان جنغ صهر غو تسى شينغ، ارتقى مكانته في الجيش. وازدادت سمعته في الجيش يوماً بعد يوم.

كان تشو يوان جنغ مخلصاً لغو تسى شينغ إخلاصاً تاماً. وحدث نزاع داخلي في جيش الحجاب الأحمر ذات مرة. وكاد يموت غو تسى شينغ في هذا النزاع، لكن تشو يوان جنغ جازف بحياته لإنقاذ غو من هذا النزاع. ونجح في إقناع الذين قادوا هذه الثورة، وتصرف بالهدوء واتزان العقل عند مواجهة الخطر.

وجد تشو يوان جنغ أن جنرالات جيش الحجاب الأحمر آفاقهم ضيقة وليس متفائلاً لمستقبلهم. لذلك، عاد إلى مدينته لتجنيد الجيش. ولم يمض وقت طويل حتى تجاوز عدد جنوده سبعمائة، من بينهم أصحاب طفولته: تانغ هي وشو دا وتشو ديكسينغ، وعينهم كقواد الجيش.

رافق هؤلاء تشو يوان جنغ في المعركة الدموية وجازف بحياتهم من أجل الانتصار. فلعبوا دوراً مهماً في تأسيس أسرة مينغ الملكية. وكان تشو يوان جنغ يهتم بانضباط الجيش الصارم

ومراعاة الشعب، فانضم كثير من الناس إلى جيشه، من بينهم رجل حكيم اسمه لي شان تشانغ الذي نال إعجاب تشو يوان جنغ وأصبح مستشاره. واقترح على تشو يوان جنغ أن يحذو حذو ليو بانغ أول ملك لأسرة هان الملكية، لأنه رحيم ومهتم بشؤون الشعب وقادر على تعيين المواهب. فلم تمضِ خمس سنوات على توليه العرش حتى استقر الحكم.

وجد تشو يوان جنغ أن كلام لي شان تشانغ مقنع، وقرر أن يكون ملكاً حكيماً أفضل من ليو بانغ.

بعد مدة قصيرة، توفي غو تسى شينغ وتولى ابنه قوه تيانكسو العرش وعين تشو يوان جنغ نائب قائد الجيش. وبعد ذلك، قتل قوه تيانكسو على يد الخائن عند مواجهة مدينة جي تسنغ. فبدأ تشو يوان جنغ ينفرد بقيادة الجيش، وغير اسم مدينة جي تسنغ التي استولى عليها قبل أيام إلى ديوان يينغ تيانفو كقاعدة حكمه. ثم اتجه إلى المنطقة الجنوبية لنهر اليانغتسى. وبالنسبة إلى توسيع نفوذه، أكبر حجز هو تشن يولانج الذى تولى قيادة الجيش أيضاً. لا بد من اندلاع الحرب بينهما في بحيرة بويانغ.

159

تشو يوان جنغ هزم تشن يولانج لمرتين

في عين الشاعر أو الرسام، مناظر بحيرة بويانغ جميلة وجذابة لا مثيل لها.

قد ذكر وانغ بو شاعر في أوائل أسرة تانغ الملكية في شعره بعنوان ((المقدمة إلى جناح تينغوانغ)). ورسمه لي سيكسون المعروف بمنشئ رسم الجبل والنهر. وأشاد به سو شي شاعر في أسرة سونغ الملكية تكراراً. رغم أن مناظره جميلة، تحول إلى معترك في أيام الحرب. قد حدثت حرب على بحيرة بويانغ.

لهذه المعركة دور مفتاحي ليصبح تشو يوان جنغ ملك الصين. لنواصل سرده.

بعد أن استقر حكم تشو يوان جنغ، عين شو دا ودينغ يونان قائدي الجيش الذي اتجه إلى الجنوب من أجل مهاجمة مدن الأعداء. واستولى على تشنجيانغ، وقوانغد، وجيانغين، وتشانغشو في الجنوب، وتشانغتشو وهانغتشو في الشمال. لذلك، تشكلت قاعدة جيش تشو يوان جنغ تتركز على ديوان ينغ تيانفو. في الوقت اللاحق، جند تشو يوان جنغ الأكفاء باستمرار، وله كثير من المستشارين مثل ليو جي، تشو شنغ، يي تشنغ وزي تشانغ.

حلل ليو جي لتشو يوان جنغ حالة الصين الحالية قائلاً إن تشن يولانج هو الذي ينبغي لتشو يوان جنغ أن يتقي منه. رغم أن شيتشنغ شكل تهديداً لهم. لكنه منهمك في اللذة والمتعة يفتخر بكثرة جنوده ووفرة الموارد الغذائية. فتهديده محدود. لكن تشن يولانج طموحه كبيرة وقتل سو شوهوي ليحل محله وخطط لجمع الجنود وشراء الخيول، وعمل على توسيع نفوذه. محاربته لا مفر منها.

ما حدث لاحقاً أثبت صحة توقع ليو جي.

في عام 1360، قاد تشن يولانج قواته البرية والبحرية عدد الجنود يتجاوز مائة آلاف. اتجه إلى ديوان يينغ تيانفو لمهاجمته، فجمع القواد العسكرين والمستشارين لإيجاد حل. بعضهم اقترح مواجهة هجوم الأعداء مباشرة وبعضهم اقترح الهرب إلى جبل تشونغشان (داخل مدينة نانجينغ حالياً). والأقلية دعت إلى الاستسلام. أما ليو جي فلم ينبس ببنت شفة.

عرف تشو يوان جنغ أن ليو جي له حل لهزم الأعداء فتركه بعد مغادرة الآخرين.

قال ليو جي إن الذين دعوا إلى الفرار لا يهمهم إلا حياتهم. الاعتماد على هؤلاء الناس سيضر مستقبلنا، ينبغي قطع رؤوسهم فوراً، والمواجهة المباشرة ستؤدي إلى خسراننا لأن قواتنا أضعف منهم. لذا، الانتصار يتوقف على حكمتنا ليس على قواتنا العسكرية.

لكن ما هذه الحكمة للنصر؟

اقترح ليو جي لتشو يوان جنغ قائداً اسمه كانغ ماوكاي لأنه صديق شين يولانج القديم. فأمره بكتابة رسالة إلى شين يولانج يتظاهر فيها أنه يريد الاستلام، وبهذا الشكل لا يثير شك شين يولانج. بسبب هذه الرسالة سينخدع شين يولانج.

أدرك تشو يوان جنغ قصده فوراً. فأمر كانغ ماوكاي لكتابة رسالة لشين يولانج يتظاهر أنه سيستسلم. وانخدع شين يولانج واتفق مع تشو يوان جنغ على لقائهم أمام جسر شرقي نهر اليانغتسى. بعد وصول شين يولانج مع جيوشه إلى رأس الجسر. صاح وفقاً لاتفاقهم. لكن لا أحد أجابه. أدرك شين يولانج أنه انخدع. فأمر انسحاب الأسطول عاجلاً.

لكن تشو يوان جنغ قد تربص مع جيشه وحاصروا الأعداء.

اندلعت الحرب في لحظة. ووقع جيش شين يولانج في الفزع والهرع. ألقى بعضهم بأنفسهم إلى النهر للهرب. والبعض سقطوا على الأرض. عدد الجرحى والقتلى لا يحصى. قفز شين يولانج إلى قارب صغير. نائب قائد الجيش حماه من الخلف. فنجا من هذه المعركة الدموية وأصيب بجروح خطيرة فعاد مع ما تبقى من قواته.

كلف شين يولانج ثلاث سنوات الاستعداد للهجوم من جديد.

في هذه المرة، صنع شين يولانج سفينة حربية عملاقة تتسع لألفي جندي. وقاد جيشاً ضخماً عدد الجنود بلغ ستمائة ألف لمهاجمة مدينة هنغ دو (أي مدينة نانتشانغ لمقاطعة جيانجشي حالياً). لكن تشو يوان جنغ قد ذهب إلى مدينة أنفينج لإنقاذ ملك مينغ الصغير. وعندما سمع أن شين يولانج قد حاصر مدينة هنغ دو لثلاثة أشهر. فأرسل جيشه الضخم الذي بلغ عدد الجنود مائتي ألف إلى بحيرة بويانغ.

عندما وصل شين يولانج هذا الخبر، وجه جيشه من مدينة هنغ دو إلى بحيرة بويانغ أيضاً، واستعد لهذه الحرب الفاصلة.

كان اسم بحيرة بويانغ في قديم الزمان بينج زي مشهوراً بمواردها الغنية ومناظرها الجميلة. لكن سرعان ما تحول إلى ساحة المعركة. اصطفت سفن شين يولانج الحربية على البحر مثل السلاسل الجبلية التي تمتد لآلاف الكيلومترات. طليت السفن باللون الأحمر ولاحت راية السفينة، مما أظهر مهابة وقوة الجيش. على النقيض من ذلك، كانت قوات تشو يوان جنغ البحرية متكونة من قوارب صغيرة. اتضح الفرق بين قواتهما.

في الأيام التالية، انهزمت قوات تشو يوان جنغ البحرية في المعارك كلها.

هل بإمكان تشو يوان جنغ تغيير خسرانه إلى الانتصار.

حينئذ خطر ببال قوه شينغ فكرة، فقال لتشو يوان جنغ إن حجم سفينة شين يولانج أكبر من سفينتنا، لكن يتعسر عليها التحرك بسبب ضخامتها. وإذا هُوجمت سفنهم بالنار، فستحترق سفنهم بسرعة. سرت تشو يوان جنغ هذه الفكرة، فأمر بإرسال سبع سفن مليئة بالبوارد لإشعال سفن شين يولانج الكبيرة. لحسن الحظ، حدث أن الرياح الشمالية الشرقية تهب في تلك الليلة، والنار اشتدت بفضل الرياح وحرق سفن شين يولانج المائة في لحظة. أما جنود شين يولانج فمات البعض من الحرق والغرق، أما الباقون فأصبحوا أسرى.

لا مفر لشين يولانج من الفرار.

قد أمر تشو يوان جنغ رماة يتربصون في مصب البحيرة. عندما حاول شين يولانج اقتحام الحصار، أطلقوا السهام وقتل شين يولانج فيها. بعد القضاء على شين يولانج، بدأ تشو يوان جنغ

يسمى بملك وو. ثم في عام 1367، تم القضاء على عدوه الآخر تشانغ شيتشنغ. ثم في الشهر الأول لعام 1368، تولى تشو يوان جنغ العرش في يينغ تيان، ويسمى بمينغ تايزو في تاريخ الصين، وتسمى دولته بمينغ الكبيرة. في الشهر الثامن لنفس السنة، قد زود الجيش لمهاجمة عاصمة أسرة يوان الملكية. حتى الآن، انتهت أسرة يوان الملكية التي حكمت الصين لسبع وتسعين سنة.

160
شكوك مينغ تايزو

هل تذكرت القصص عن الشكوك بين الملك وأتباعه التي رويناها من قبل؟

قد تحدثنا من قبل عن جوجيان ملك يوي الذي أهدى سيفاً لوان جنغ وأجبره على الانتحار بهذا السيف. وتحدثنا أيضاً عن فان لى الذي كتب قصيدة قبل اعتزاله قائلاً فيها: إذا أصيبت الطائرة، خُبئ القوس للصيد، إذا قبض الأرنب عليه، قتل كلب الصيد. وتحدثنا عن ليو بانغ أول ملك لأسرة يوان الملكية الذي قتل ثلاث هان شين، بنغ ي، وجين بو الذين ساهموا في تأسيس أسرة يوان الملكية. وتحدثنا عن أول ملك لأسرة سونغ الملكية الذي أهدى قائده فنجاناً من الخمر مقابل نفوذه العسكري.

وإذا تذكرتَ هذه القصص، فهل تساءلت في نفسك: لماذا تتخلل الشكوك العلاقة بين الملك وأتباعه.

دائماً اعتمد منشئ الأسرة الملكية الجديدة على كثير من القواد العسكريين والمستشارين من أجل توليه العرش. لكن قتلهم واحداً تلو الآخر بعد استقرار وضع الدولة. وبينما البعض ارتكب الجريمة الكبيرة بسبب تضخم كبريائهم وغرورهم. لكن بالإضافة إلى ذلك، يوجد سبب آخر: النزاع بين النفوذ الملكي ونفوذ الوزير والقائد في النظام الصيني التقليدي.

قد شبهنا النفوذ بالأغصان والجذع. إن الجذع هو الملك، وإن الأغصان هي القواد والمستشارين. في عملية التطور التاريخي، ظل الملاك في الأسرة المختلفة في موضوع واحد: كيف يقوم بتقوية الجذع وإضعاف الأغصان؟ ويعمل على تحقيق هذا الهدف عن طريق تعديل النظام واستخدام العنف وتغيير وعي الناس.

أما القواد العسكريين والمستشارين فلا ينتظرون مصيرهم المجهول بل حاولوا دائماً تقييد النفوذ الملكي. ناهيك عن القلاع العسكرية في أواخر عهد أسرة تانغ. دعا الضباط في أسرة سونغ الملكية إلى مشاركتهم في تحديد سياسة الدولة. ولكن بشكل عام، إن النفوذ الملكي أقوى من نفوذ الوزير وقيده باستمرار. ويعمل الملك على جمع النفوذ له من أسرة هان إلى أسرة تانغ، ومن أسرة تانغ إلى أسرة سونغ، ومن أسرة سونغ إلى أسرة مينغ. وفي أسرة مينغ الملكية، كانت درجة جمع النفوذ عالية فقد قطع الملك شوطاً واسعاً في طريق جمع النفوذ. مع ازدياد درجة جمع النفوذ، للملك مزيد من المهابة. وما إن أصدر الملك على العرش أمراً ما حتى نُفذ. لا بد للوزير من الموت إذا أراد الملك.

لذلك، بالنسبة إلى تشو يوان جنغ الملقب بملك مينغ تايزو، كيف نزع نفوذ الوزير والقائد؟

في رواية شان تيان فانغ بعنوان ((تاريخ دا مينغ)) فصل عن مهاجمة مبنى جزاء الضباط بالمدافع. قيل إن تشو يوان جنغ قتل كل الضباط الذين ساهموا في تأسيس دولته. هذا ليس حقيقة لكن له أدلة تاريخية. والآن لنتحدث عن قضية هو وى يونغ وقضية لان يو لأنهما من أهم القضايا الأربع في بداية عهد أسرة مينغ الملكية.

في بداية تأسيس تشو يوان جنغ دولته، كل الصناعات في حاجة إلى النهضة. وسلطته السياسية التي أنشأها حديثاً في حاجة إلى تقويتها وتطويدها أيضاً. لذلك، اتخذ السياسة المهتمة بالاستقرار والتنمية، مثل تشجيع استصلاح الأراضي وتخفيف الضرائب وتنمية الري، مما جعل حياة الشعب مستقرة تدريجياً. ومن أجل ضمان سلطته وأسرته الخالدة، عين أبناءه جميعاً أصحاب السلطة التي تغطي أنحاء الصين وشكلت حصناً منيعاً للدولة. ثم كافأ الذين ساهموا في تأسيس الدولة الجديدة، لكي يشجعهم في مواصلة حماية دولته الجديدة.

رغم مكافأتهم الغنية، ظل يشك في وزرائهم ويخاف من ثورتهم المحتملة. وأسس جهازاً خاصاً لمراقبتهم: جين يي وى. ما إن وجد جين يي وى من يشكو من البلاط حتى قبض عليه وسجنه من أجل التحريات.

أدرج تشو يوان جنغ «معاقبة الوزير في البلاط» إلى نظامه الإداري من أجل إهانة الوزراء وإبراز مهابة الملك. «معاقبة الوزير في البلاط» ينص على ضرب الذي لا ترضي الملك أفعاله أو

أقواله بالعصا في البلاط أمام القواد العسكريين والمستشارين جميعهم.

لا يعرف تشو يوان جنغ أن إدارة الدولة تحتاج إلى معاملة وزرائه بالصدق. مع مرور الأيام، تغير مزاجه. وقد حلت الشكوك والقساوة محل رحمته وصدقه. أصبح عدد الذين يبوحون بأفكاره الحقيقية قليلاً. بالإضافة إلى ذلك، لاحظ أن ولي العهد عطوف ورقيق الفؤاد، فخشي أنه تحت رحمة وزرائه بعد توليه العرش. فقتل الذين ظن أنهم سيعرقلون وراثة العرش لولي العهد بلا شفقة.

في عام 1380، اتهم رئيس الوزراء هو وى يونغ بالخيانة والتمرد، فاغتنم تشو يوان جنغ هذه الفرصة لمعاقبة كثير من الوزراء. بالإضافة إلى أقرباء هو وى يونغ الذين قُتلوا بسبب هذه التهمة، مات العديد من الأبرياء، من بينهم سونغ ليان العالم المشهور في ذلك الوقت.

سونغ ليان بطل من الأبطال الذين ساهموا في تأسيس الدولة، وله دراية واسعة بالعلوم، فأصبح مدرساً لولي العهد ومعروف بحذره في أفعاله وأقواله. لكن تشو يوان جنغ لا يطمئن إليه أيضاً، فأرسل جين يي وى لمراقبته. ذات مرة، أقام سونغ ليان مأدبة في بيته. في اليوم التالي، استجوبه تشو يوان جنغ: من حضر مأدبتك وما أطباق المأدبة؟ أجاب سونغ ليان عن هذه الأسئلة بصدق. وجد تشو يوان جنغ أن أجوبته مطابقة مع تقرير جين يي وى. فابتسم له قائلاً: ما خدعتني.

قرر سونغ ليان الاستقالة من منصبه والعودة إلى مدينته في الثامن والستين من عمره، أهدى تشو يوان جنغ ديباجاً جميلاً له قائلاً: بعد اثنين وثلاثين عاماً، اصنع منها ملبساً للاحتفال بعمرك المائة. يبدو أن العلاقة بينهما حميمة إلى هذا الحد. لكن عندما افتضح تورط حفيد سونغ ليان بقضية هو وى يونغ، أرسل تشو يوان جنغ جين يي وى لاعتقال سونغ ليان وحكم عليه بالإعدام. لحسن الحظ، كانت ملكة ماو تتوسل عند الملك قائلة: بالنسبة إلى عامة الشعب، عندما يتعلم على أيدي رجل ما، لا ينسى نعمته إلى الأبد. وسبق لسونغ ليان أن علم ولي العهد والأمراء، كيف لا تقدر نعمته في التعليم؟ بالإضافة إلى ذلك، إن سونغ ليان قد تقاعد في المنزل لمدة لا يعرف ما حدث في البلاط. يرجى العفو عنه. لذلك، قرر تشو يوان جنغ أن يحكم عليه بالعمل الشاق في الجيش بدلاً من الإعدام. لكن صحة سونغ ليان في تلك الفترة ليست جيدة بسبب شيخوخته مثل الشمع في الريح القوية، فتوفي في طريقه إلى المنفى.

بعد عشر سنوات، اتهم رئيس الوزراء لي شان تشانغ بتورطه في قضية هو وى يونغ. لقد قدم لي شان تشانج مساهمة كبيرة في تأسيس أسرة مينغ الملكية. لذلك، أهدى تشو يوان جنغ ميداليتين ذهبيتين كل منها تجنبه حكم الإعدام مهما ارتكبه من الجرائم. لكن تشو يوان جنغ لا يفي بوعده هذه المرة. حكم على أسرته التي تشمل سبعين شخص بالإعدام. ثم أمر مواصلة تحريات قضية هو وى يونغ، قتل أخيراً أكثر من خمسة عشر ألف شخص.

بعد سنوات، فضح جينيوي تمرد الوزير لان يو. لذلك، قتل أكثر من عشرة آلاف من القواد العسكريين والمستشارين بسبب ارتباطهم في هذا الأمر. في قضية هو وى يونغ وقضية لان يو، بلغ عدد الذين حكم عليهم بالإعدام أربعين ألف، الأمر الذي أظهر قساوة تشو يوان جنغ وشكوكه الدائمة. بين قواده العسكريين، شو دا توفي مبكراً، لا أحد ينجو من شكوك تشو يوان جنغ ومعاقبته سوى تانغ هو.

بين مستشاريه ليو جي اكتشف قساوة تشو يوان جنغ وشكوكه، فاعتقل مبكراً وعاد إلى مدينته واعتزل في عمق الجبل من أجل تجنب هذه الكارثة. لكنه مات من سم هو وى يونغ. هل يتعلق موت ليو جي بتشو يوان جنغ؟ عنده آراء مختلفة. يمكنك البحث في هذا الموضوع إذا أردت.

إن شكوك تشو يوان جنغ ثقيلة إلى حد يقلق ولي عهده تشو بياو. عرف أن مزاجه العطوف لا يرضي أباه، فراود قلبه الخوف والقلق.. لم يمض على وقت طويل حتى توفي بسبب اشتداد مرضه. بعد وفاة تشو بياو، أصبح ابنه الأكبر تشو يون تسوان ولي العهد الجديد.

أخيراً انفرد تشو يوان جنغ بسلطة الحكم بعد جهوده الدائمة. خاصة بعد قضية هو وى يونغ، ألغى منصب رئيس الوزراء، حكم الوزارات الست بنفسه. فأصبح نفوذه أقوى وأكثر تركيزاً. بعد قضية لان يو بسنتين، رأى تشو يوان جنغ أن قانون الدولة في الإدارة قد أصبح ناضجاً وشاملاً. فدون أفكاره في كتاب ((توصية ملك مينغ)) آملاً أن أحفاده سيستفيدون من هذا الكتاب.

قال تشو يوان جنغ في مقدمة هذا الكتاب إن من وضع القانون والقواعد هو مؤسس الدولة الجديدة. لا تتغير هذه الظاهرة منذ قديم الزمان. ولكن لماذا؟ لأن أول ملك للدولة الجديدة تعامل مع الناس المختلفين وعالج المشاكل الملونة، فله دراية بمعاناة الدنيا. لذلك، لا بد منه لكونه مؤسس أسرة مينغ الملكية أن يدون هذه التجارب في كتابه ((توصية ملك مينغ)) لتعليم أحفاده وأحفادهم. واعتبر

تشو يوان جنغ هذا الكتاب قاعدة لحكم أسرة مينغ الملكية. ونص على ضرورة قبول جميع أحفاده تعاليمه بدون أي تغيير واختراقه ممنوع.

يمكن القول إن تشو يوان جنغ قد بذل أقصى جهوده لتستمر أسرته الملكية إلى الأبد. وحقاً إن كتاب ((توصية ملك مينغ)) له كثير من طرق الحكم. لكن الأمر ليس سهلاً كما توقعه تشو يوان جنغ. بالنسبة إلى الملاك بعده، لا يهمهم جهود تشو يوان جنغ لتدوين هذا الكتاب وتأسيس هذه الدولة. لا يطبقون إلا القواعد السهلة للتطبيق، أما القواعد التي يتعسر عليها التطبيق فتم إلغاءها تدريجياً.

سنجد أدلة لذلك في القصص التالية. مثلاً تشو يوان جنغ أقطع الأمراء الأرض من أجل حمايتهم أسرته الملكية. لكن سرعان ما قام ملك جيان ون بإضعاف نفوذ أصحاب الإقطاع. ونص تشو يوان جنغ على أن الإبحار ممنوع. لكن أسطول تشنغ خه قطع شوطاً كبيراً. سبق لتشو يوان جنغ أن ألغى منصب رئيس الوزراء، لكن فيما بعد ظهر الوزراء مثل يان سونغ وتشانغ جو تشنغ الذين يمتازون بأغلب النفوذ.

طبعاً، لا يستغني كل نظام عن التعديل والتغيير بعد وضعه وتشغيله. وإنه يقيد تصرفات الناس لكن يتعرض لاختراق الناس باستمرار. وفيما يلي، لنبدأ موضوعنا الجديد بالحريق الذي حدث في مدينة نانجينغ.

161
الانقلاب في قصر ملك جيان ون

في عام 1402، اقتُحمت مدينة نانجينغ وحدث الحريق في القصر الملكي.

في الحقيقة، إن مدينة نانجينغ في ذلك الوقت تسمى بيينغ تيان بعد إعادة تسمية تشو يوان جنغ. ولمدينة نانجينغ قصص كثيرة، مثلاً سون هاو الملقب بملك وو رفع علم الاستسلام على سور مدينة نانجينغ. ربط الأعداء يديه وأحضروه إلى معسكر وانغ راي من أجل الاستسلام. مثلاً تمرد الجنرال الخائن هو جينغ في هذا المكان، وحاول ملك ليانغ وودي طلب العسل عبثاً فمات من الجوع الشديد. وكتب شين شوباو قصيدة مشهورة ((الأزهار والأشجار في قصري)). إذا راجعنا تاريخ هذه المدينة، نجد فيها الازدهار والانحطاط، بناء القصور وتدميرها. شهدت هذه المدينة ازدهار الأسرة الملكية وانحطاطه. ولا تخلو هذه المدينة من سعادة الناس وحزنهم وفراقهم ولقائهم.

لا يمكن الإنكار أن العلاقة بين التاريخ والجغرافيا وثيقة للغاية، لأن القصص التاريخية كلها حدثت في المسرح الجغرافي. ما إن فهمنا هذه النقطة حتى شعرنا بأهمية الأرض التي نخطو عليه الآن حتى أدركنا ارتباط أنفسنا بالتاريخ. قد تمر الشخصيات التاريخية بالمكان الذي تمشي وتستريح فيه. وقد يذرف الشخصيات التاريخية دموعه في المكان الذي تركتَ دموعك فيه.

والآن، لنواصل رواية القصص التي حدثت في مدينة نانجينغ.

قد ذكرنا في الفصل السابق أن تشو يوان جنغ وضع القواعد المختلفة اعتقاداً أن أسرته الملكية ستستمر إلى الأبد. لكن لم يمض أربع سنة على وفاته حتى حدث انقلاب في البلاط. في عام 1402، تم اقتحام مدينة، جيش تشو شي الملقب بأمير يان بوابة المدينة المسماة بجينتشوان وتدفقوا من هذه البوابة. فيئس تشو يونوي المشهور بلقبه ملك جيان وان في تلك الفترة من وضعه، فأمر أتباعه حرق القصر الملكي. انتشر الحريق في القصر، وتستمر طقطقة الأخشاب ويعم الدخان

السماء. تحول كثير من القصور الفاخرة إلى الرماد. بعد إطفاء جيش أمير يان هذا الحريق، وجدوا جثث خدام القصر الذين لم يتمكنوا من الفرار، لكن لم يجدوا أي أثر لملك جيان ون.

لماذا شعر ملك جيان ون باليأس والقنوط حتى يأمر حرق قصره؟ لنراجع التاريخ ما قبل أربع سنوات أي عام 1398 حيث توفي تشو يوان جنغ بسبب مرضه وتولى حفيده تشو يونوي العرش. اشتهر بلقبه جيان ون في التاريخ ويسمى هذه السنة بجيان ون أيضاً.

بعد تولي جيان ون العرش، أول ما قام به هو إضعاف نفوذ أصحاب الإقطاع.

في الحقيقة، إن تصرفات ملك جيان ون تخالف إرادة تشو يوان جنغ، ولا شك أنها أثارت استياء أعمامه، خاصة تشو يونوي أمير يان عمه الرابع. بين أبناء تشو يوان جنغ، تشو دي نال إعجابه كثيراً. وكان يتردد في تعيينه كولي العهد، لكنه أخيراً اختار تشو يونوي، مما أثار استياء تشو دي إلى حد ما. فجند الجنود واشترى الحصان وانتظر الفرصة السانحة للانتفاضة.

رغم أن ملك جيان ون صغير في السن، قد عرف أن عرشه يتعرض للتهديد.

لذلك، عندما اقترح وزير الشؤون العسكرية تشى تاي ومشرف معبد هوانغ تسى تشينغ إضعاف نفوذ أصحاب الإقطاع، وافق ملك جيان ون على الفور. ولكن كيف يحقق ذلك، بينما رأى تشى تاي أن أمير يان شكل أكبر تهديد للعرش فيبدأ بإضعاف نفوذه أولاً، ما وافق هوانغ تسى تشينغ على ذلك معتقداً أن هذا سيعرقل تنفيذ خطتهم الشاملة وينبغي تطبيق الخطة خطوة بخطوة وعليهم أن يبدأ بإضعاف أصحاب الإقطاع الآخرين ويترك تشو دي في نهاية المطاف.

بعد مناقشتهم، حدث أن افتضح تمرد تشو سو الملقب بأمير تشو. فاغتنم ملك جيان ون هذه الفرصة لإقالة إمارته، وحكم عليه النفي إلى يونان للسخرة. ثم قام ملك جيان ون بإقالة إمارة أصحاب الإقطاع الثلاثة وسجنهم. وجد أمير يان أن أصحاب الإقطاع تم إقالتهم وإقالتهم من الإمارات، عرف أن المصير المتشابه سيصله بسرعة.

بسبب حالته الخطيرة، لا بد من قيادة جيشه للانتفاضة. لكن من أجل تشتيت انتباه الملك وكسب الوقت الكافي للاستعداد العسكري، تظاهر أمير يان أن الجنون قد أصابه. فهرول إلى الشارع يصرخ ويخطف مأكولات الآخرين ومشروباتهم، ولا يتكلم إلا الهذى والهراء، أحياناً رقد

على الأرض يرفض النهوض. بعد أن سمع ملك جيان ون هذا الخبر قرر أن يبعث تشانغ وى وشيه غوى للتحقق. لكن تشو دي قد سمع قرار الملك واستعد لذلك استعداداً تاماً. في أيام الصيف الحارة، جلس حول الفرن يلبس المعطف الجلدي ويرتجف ويهز ويصرخ: البرد... البرد.

بعد أن سمع الملك هذا الخبر، لم يعد يشك في جنون تشو دي.

لكن تشى تاى وهوانغ تسيتشينج كلاهما ذو دهاء. وشكا أن أمير يان يتظاهر بالمرض من أجل إبطاء خروج الجيش. أمر قائد منطقة بيى بينغ اسمه تشانغ شين القبض على أمير يان. من أجل ضمان نجاح خطتهم، رتب مستشار ديوان أمير يان وقائده جي تشنغ ولو تشن للتنسيق كالجاسوس. كانوا يعتقدون أن خطتهم كاملة بمنتهى الدقة. لكن لم يكن في حسبانهم أن تشانغ شين صديق أمير يان القديم الذي أخبر الأمير بهذا الأمر بشكل سري. فأمر الأمير القبض على الجاسوسين داخل الديوان. ثم أرسل الجنود لمهاجمة مدينة بيى بينغ. بعد ذلك، قاد جيشه وانتفض باسم قتل المأمور الخائن تشى تاى وهوانغ تسيتشينج.

هذا النزاع الداخلي يسمى بانقلاب جينغ نان في التاريخ. وجينغ نان هذه الكلمة في الثقافة الصينية تعني تهدئة الفتنة الأهلية.

استغرقت هذه الفتنة الأهلية ثلاث سنوات. والمعركة شرسة والقتال عنيف. في النهاية قرر أمير يان تشو دي القيام بمحاولته الأخيرة والفاصلة. قاد جيشه متجه إلى مدينة نانجينغ. لم يكن في حسبان الملك جيان ون أن أمير يان تشو دي لا يخاف من الجيش الملكي المترابط في الضفة الجنوبية لنهر اليانغتسى الذي بلغ عدد الجنود مائة ألف وأنه يقدر على اقتحام قلب العاصمة بقيادة جيشه الوحيد. بالإضافة إلى ذلك، لم يخطر بباله أن المأمور والجنود في جنوبي نهر اليانغتسى لا يلعبون أي دور في مواجهة الأعداء وهربوا وفروا خوفاً من قتال أمير يان. وتم احتلال يانغتشو، قوياو، ونانتونغ، وتايتشو وأماكن أخرى على التوالي. خاصة أن الجندي المدافع في تشنجيانغ بادر بفتح بوابة المدينة للاستسلام بدون محاربة.

إن وضع القصر الملكي خطير، لكن المستشارين والقواد العسكريين لا أحد منهم قادر على إيجاد حل لهزم الأعداء سوى فانغ شياو يو العالم الكبير الذي أشار إلى أن جيش أمير يان قطع شوطاً كبيراً للمحاربة فيتعسر عليهم نقل الموارد الغذائية. لكن موارد جيشنا الغذائية وافرة فيمكننا

أن ننتظر المساعدة الخارجية وقطع مصادر تزويد الموارد الغذائية لجيش أمير يان. وظن أنهم سينجحون بدون شك.

لا مفر أن يوافق ملك جيان ون على اقتراحه.

لكن فانغ شياو يو عالم كبير ليس قائداً جيداً في المعركة. فقدم حلاً فاسداً مشيراً إلى نقل السكان خارج المدينة إلى المدينة من أجل إخلاء البادية وتقوية المدينة.

لم يفكر تشو يونوي في هذا الموضوع بشكل جيد حتى يوافق على ذلك.

تحت أشعة الشمس القاسية، أجبر المأمور الشعب على تحطيم بيوتهم ونقل الأخشاب إلى المدينة. ما إن أخذ الشعب الراحة حتى تعرض إلى الضرب والشتم. سقط العديد من الناس على الأرض بسبب الجوع والتعب والعطش، مما أثار غضب الناس، فأشعل بعضهم منازلهم مباشرة. في لحظة واحدة، انتشر الحريق إلى كل مكان والدخان يعم سماء مدينة نانجينغ، وشعر أهل مدينة نانجينغ بالاضطراب والخوف. فاغتنم الأمير يان هذه الفرصة لقيادة جيشه ومهاجمة نانجينغ. بادر الجنرال المدافع لي جينغ لونغ إلى فتح بوابة المدينة واستسلم العديد من المأمورين لأمير يان.

لكن ماذا حدث بملك جيان ون؟

في ذلك الوقت، الدخان والحريق قد عم سماء القصر الملكي. إن مصير الملك مكتوب فأصابه الحزن العميق وأمر أتباعه حرق القصر. ثم اختفى في هذا الحريق. لا أحد يعرف أثره. هل مات؟ أو هرب إلى مكان ما؟ قد أصبح لغزاً في عمق التاريخ. يمكنك الاطلاع على المراجع ذات الصلة بهذا الموضوع إذا أعجبك.

على كل حال، تولى أمير يان تشو دي على العرش أخيراً، ويسمى بملك مينغ تشان. في نفس اليوم، أطلق على سنة توليه اسم: يونغل (معناه: السعادة الخالدة). في السنة التالية أي عام 1403، كان أول سنة للسعادة الخالدة. وبعد بضعة عشرة سنة، أي في عام 1421، نقل الملك العاصمة إلى بكين وغير يينغ تيان إلى اسمها القديم: نانجينغ.

منذ ذلك الوقت، نقل ثقل التاريخ لأسرة مينغ الملكية من نانجينغ إلى بكين.

162
رحلات تشنغ خه البحرية السبع إلى المحيط

هل فكرت من قبل في الفرق بين المشي على الأرض والإبحار على المحيط؟

أشار يلين إلى هذا الفرق في كتابه ((كيف أصبح الإنسان عملاقاً)) معتقداً أن الناس يضلون بسهولة عندما يكونون على البحر. لأن البحر والأرض عالمان مختلفان. على سبيل المثال عندما يمشى المسافر في الغابة يمكنه اتباع آثار خطى الآخرين أو متابعة آثار قطع الفأس على الصنوبر. لكنه مستحيل عندما كنت على البحر. عندما تستخدم مجداف السفينة لتحريك المياه، عاد سطح المياه إلى شكله الأصلي بدون أي أثر. يبدو أن لا شيء يحدث في لحظات ماضية. وفي الصحراء، يمكن للمسافر تحديد الاتجاه وفقاً للرماد الذي تركه من أقام هناك من المسافرين أو وفقاً لعظام الغنم والجبل. لكن البحر يبتلع كل شيء ولا يترك أي علامة لك. ويدفن شظايا السفينة وجثث الملاحة تحت قدميه.

لذلك، كيف نتغلب على البحر الذي يمنع تقدم الإنسان مثل السور؟

قد قال ييلن بشكل شعري إنه يرفع رأسه ليحدق إلى سماء الليل ويبحث عن علامة طريقه الصحيح بين النجوم.

حقاً إن خطى الإنسان حرة، لا تقتصر على اكتشاف الأرض بل تتجه إلى البحر. في المستقبل ستخطو على السماء. لذلك يصنع الناس السفينة وأبدع البوصلات ورصد صعود الأمواج وهبوطها ثم دونها. واستمر في توسيع نطاق إبحارهم. هذه الإنجازات كلها ساهمت في الرحلات الضخمة السبعة. ألا وهو رحلات تشنغ خه إلى المحيط.

بدأت رحلته في السنة الثالثة لعهد السعادة الخالدة، أي عام 1405. في اليوم الخامس عشر ليونيو، كان الجو مشمس. المدينة كلها مملوءة بالحيوية الاستثنائية وصوت الطبول والأبواق صاخبة. تدفق عدد لا يحصى من الشعب إلى بنك النهر من أجل المشاهدة. لأن أسطولاً سينطلق. هذه أول مرة يبحر الأسطول الصيني في التاريخ.

سيتجه هذا الأسطول إلى المحيط الغربي، والمحيط الغربي في ذلك الوقت يقصد المناطق البحرية لغرب بحر الصين الجنوبي والمناطق المجاورة ليس مصطلح القارة الأوروبية الآن. الأسطول متكون من مائتي سفينة مختلفة الحجم. السفينة الكبيرة عددها 62، طولها 148 متر وعرضها 60 متر، تسمى بالسفينة الثمينة. وتنقسم هذه السفن إلى سفينة الحصان وسفينة الطعام وسفينة الجلوس والسفينة الحربية وسفينة المياه وفقاً للوظيفة. وبلغ عدد أتباع تشنغ خه 27800، ومن بينهم الجنود والملاحة والمترجمين والأطباء.

تشنغ خه قاد الجيش سانباو وكان مشهوراً بلقبه «مخصي سانباو».

في عام 1371، ولد تشنغ خه في أسرة من قومية هوى لمدينة جين نينغ لمقاطعة يوننان. واسمه العائلي: ما واسمه في الطفولة: سانباو. كان أفراد أسرته كلهم يتدينون بالإسلام. وفي الثاني عشرة من عمره، أُسر إلى ديوان أمير يان كمخصي. إنه ذكي وعرف قليلاً من الفن القتالي. قبل تولي تشو دي عرشه، رافقه للمحاربة. وكان أداؤه في المعركة شجاع وباسل، فنال إعجاب تشو دي وارتقت مناصبه باستمرار. لذلك، أطلق تشو دي اسماً جديداً عليه: «تشنغ خه». ولكنه مشهور باسمه القديم: مخصي سانباو.

قد خرج الأسطول من نهر ليجيانغ ودخل بحر الصين الشرقي.

في النهار، يعتمد التواصل بين السفن على أعلام السفينة. وفي الليل، التواصل يعتمد على المصباح. وفي أيام الضباب، يعتمد على دق البوق كإشارة. تقدمت السفينة على البحر بعشرة كلم بغض النظر عن الرياح والأمواج. ومر بمدينة زام، وجاوة الواقعة في جنوب فيتنام. والميناء القديم على الساحل الجنوبي الشرقي لسومطرة الأندونيسية، سومطرة، مانجليا، غوري، سيلان وأماكن أخرى.

كلما مرت السفينة بمكان ما، زار تشنغ خه الملك لهذه الأماكن وأهداهم بعض الهدايا نيابة عن الملك مينغ تشنغدي آملاً أن يقيم العلاقة الودية معهم. أعطى السكان الأصليين المال لشراء المنتجات ذات الخصائص المحلية وجمعها. لا يعرف السكان أن في هذا العالم يوجد دولة غنية قوية إلا عندما رأى قدوم أسطول تشنغ خه من الشرق، مما أثار توقهم إلى الصين.

في طريق عودة الأسطول إلى الصين، قد زار تشنغ خه بعض الدول أيضاً. وأخيراً عاد إلى سوتشو في سبتمبر للسنة الخامسة لعهد يونغله.

استغرقت رحلته هذه سنتين وثلاثة أشهر. رأى الملك مينغ تشنغدي يحضر كثيراً من الكنوز والتحف لدول مختلفة وسمع الحكايات والنوادر عن رحلته التي أعجبته كثيراً. فأمر بمكافأة جميع أعضاء السفينة.

في الوقت اللاحق، انطلق أسطول تشنغ خه إلى المحيط الغربي لمرة أخرى تحت أمر الملك. خلال الفترة من عام 1405 إلى عام 1422 أي السنوات الثماني، قاد تشنغ خه الأسطول إلى البحر لست مرات. وعندما عاد تشنغ خه إلى الصين للمرة السادسة، توفي مينغ تشنغزو بسبب مرضه، وكان زو زانجي المشهور بمينغ زوانزونغ قد تولى العرش، وأمر تشنغ خه بالإبحار للمرة السابعة. في هذه المرة، مر تشنغ خه بالعديد من البلدان في المحيط الهندي وجنوب شرقي آسيا، حتى يصل إلى الخليج الفارسي، والساحل الشرقي لأفريقيا، ما لين (حالياً داخل كينيا).

بعد فترة وجيزة من عودته من الرحلة، توفي تشنغ من المرض.

إنه أول ملاح في العالم وكان يقدم قصص الصين إلى العديد من البلدان. فمن أجل إحياء ذكرى له، جزيرة جوا تبني معبداً فيه تمثال تشنغ خه.

حتى الآن، ما زالت الحكايات والنوادر عن تشنغ خه تجري على ألسنة الناس.

من الجدير بالذكر أن سفن تشنغ خه مملوءة بالخزف والشاي والحرير. كان الشاي والحرير قد أصبحا معروفين عند العالم الغربي. والشاي الصيني قد أصبح منتجاً رائجاً في التجارة الصينية والغربية بفضل تشنغ خه. ودائماً ما تراود رائحة الشاي الجذابة طاولة الغربيين للأطعمة.

قد أشرنا من قبل إلى أن تشو يوان جنغ يمنع الإبحار. فرحلات تشنغ خه إلى البحر الغربي قد خالفت الحظر بالإبحار. ولكن يوجد بعض الناس دائماً يحاول اقتحام جدار البحر ويتغلب على الأمواج ليمشي على الأرض الجديدة وليتمتع بالمناظر المختلفة.

يؤسفنا أن أسرة مينغ الملكية لم تشهدها الرحلات مثل رحلة تشنغ خه. بينما توقفت إنجازات الملاحة لأسرة مينغ الملكية، أوشك أن يصل عصر الإبحار العظيم في التاريخ العالمي.

163
انقلاب قلعة تو مو

خشى تشو يوان جنغ أن المخصي يتدخل في شؤون الإدارة، فوضع كثيراً من القواعد لتجنبه.

على سبيل المثال، لا يسمح للخصي القراءة والكتابة وتولي مناصب المستشارين أو القواد العسكريين وارتداء ملابسهم. لا يمكن أن تتجاوز درجة المنصب أربعة. وعلق لوحة حديدية ارتفاعها ثلاث أذرع وكتب عليها: ممنوع تدخل المخصي في الشؤون السياسية، وإلا فيقتل.

مع ذلك، سرعان ما تم تخريب القواعد كلها.

عندما تولى تشو زانجي الملقب بملك مينغ زوانزونغ العرش، أنشأ القصر قاعة لتدرس المخصي القراءة والكتابة، وبدأ المخصي يراجع الملفات نيابة عن الملك. وفي عهد حكم تشو شي تشن، وجد المخصي أن اللوحة الحديدية الكبيرة لا منفعة لها، فأخذها من البوابة وتركها في مكان مجهول. لم يمض أربع وأربعين سنة على وفاة تشو يوان جنغ حتى حدث هذا الأمر.

ذات مرة، جند القصر مجموعة من الخصيان، من بينهم رجل من ويه تشو واسمه وانغ تشن، وإنه ذكي ويعرف الكتابة والقراءة. لذلك، أمر الملك شوان أن يدرس ولي العهد القراءة. لكن في الحقيقة أن طبيعة وانغ تشن شريرة وارتكب الجريمة. اضطر إلى أن يصبح خصياً في القصر من أجل تجنب العقوبة، ويقدر على إسعاد الآخرين. وإن تشو شي تشن صغير في السن ويحب اللعب في ذلك الوقت، فسرعان ما أصبحت علاقتهما حميمة.

وقد تولى تشو شي تشن العرش في التاسع من عمره ويسمى بالملك مينغ ينغ تسونغ في التاريخ، لأنه صغير في السن فتنقصه القدرة على التبيين بين الصواب والخطأ. بالإضافة إلى ذلك،

حرض وانغ تشن فانهمك في شرب الخمر والتلحين، ولا يهمه الشؤون السياسية. فاغتنم وانغ تشن هذه الفرصة للسيطرة على النفوذ التي لا تقتصر على إبلاغ الآخرين ما حدث في القصر كله له بل ابتزاز الوزراء وقبول الرشاوى وبيع منصب المأمور والافتراء على المسؤول الجيد، لأنه راجع الملفات نيابة عن الملك، حتى أقارب الملك خافوا منه، واستمروا في إهداءه للتزلف إليه وأطلقوا عليه اسماً جديداً: فنغفو.

لم يمض وقت طويل حتى أثار فتنة بسبب تعجرفه وتكبره.

في عام 1449، أرسل زعيم قوم ولر رسوله إلى بكين لتقديم الأحصنة. لكن وانغ تشن خصم مال المكافأة الذي منحه الملك، مما أثار غضب الزعيم. ثم طلب من الملك تزويج الأميرة لابنه. لكن تعرض طلبه إلى رفض وانغ تشن، فقاد الجيش لمهاجمة مدينة داتونغ بسبب غضبه الشديد.

تسلم وانغ تشن وثائق الطوارئ من الحدود.

إن أفكار وانغ تشن في هذا الوقت مضحكة. فلا يفكر في هزم الأعداء، بل ظن أن مدينة داتونغ قريبة من مسقط رأسه ويه تشو. فإذا نجح في تحريض الملك على قيادته الجيش للمهاجمة، سيتيح الفرصة ليزور مسقط رأسه. أما الملك تشو شي تشن فوافق على اقتراح وانغ تشن بسبب جهله وحبه للعب. وقاد جيشاً مكوناً من خمسمائة ألف جندي بغض النظر عن اعتراض تاكينو ويو تشيان المأمورين للقسم العسكري.

لكن رئيس الجيش ليس له النفوذ الحقيقي. سيطر وانغ تشن على النفوذ لكنه لا يعرف الحرب والقتال. سار الجيش لأكثر من عشرة أيام بشكل صاخب حتى يصل إلى مدينة داتونغ، لكنهم لم يجدوا أي جندي والر، مما أثار ابتهاج وانغ تشن معتقداً أن جنود ولر فروا بسبب الخوف. لكن جندي المواصلة أخبره فجأة: هزم الأعداء الكمناء فريقين من جنودهم اللذين أرسلهما لاكتشاف الطريق بسبب كثرة الأعداء وقلة جنودهم.

لم يسر الجيش إلى الأمام كثيراً حتى وجد أن جثث الجنود لأسرة منيغ الملكية منتشرة في الجبل.

شعر الجنود بالجوع والتعب، مما أدى إلى انخفاض المعنوية. فاضطر وانغ تشن إلى أمر الجنود بالتراجع. لكن قوة الجنود قد نفدت واستغرق تراجعهم كثيراً من الوقت حتى وصلوا إلى قلعة تو مو التي تبعد عن المدينة بـ 10 كم. حينئذ كتب تاكينو رسالة للملك مشيراً إلى ضرورة تقدم الجيش السريع وحمايته في نهاية الجيش. لكن هذه الرسالة لم تصل الملك بل أوقفها وانغ تشن. فقابل تاكينو الملك في الحالة الطارئ قائلاً إن الجيش قريب من مدينة هويلا فعليه أن يسرع في تقدم الجيش من أجل ضمان أمنه.

في ذلك الوقت، أراد الملك أن يستمع إلى رأي تاكينو. لكن وانغ تشن صاح في وجهه: كيف تعرف القتال والحرب وأنت طالب العلم الفاسد. السبب الحقيقي وراء رفض وانغ تشن في الإسراع بالتقدم هو أنه كان ينتظر ألف شاحنة مملوءة بالمجوهرات.

رابط جيش أسرة مينغ الملكية في قلعة تو مو لليلة واحدة. لم تشرق الشمس في اليوم التالي حتى حاصرهم جنود والر.

ما استعجل جنود ولر في الهجوم، بل سالم ملك مينغ ينغ تسونغ. في البداية، خاف جنود ملك مينغ من هجوم الأعداء، اهتم بالدفاع والحراسة. والآن، وافق جنود ولر على المسالمة فاسترخى في الدفاع. شعر وانغ تشن بسعادة لا توصف، وأمر الجنود أن يخرجوا من القلعة من أجل البحث عن مصادر الماء. نصحه تشانغ فو جنرال محنك له خبرة في القتال مشيراً إلى خطورة الأمر، لكن وانغ تشن لم يبال بأي اهتمام لنصيحته.

في هذا الوقت، وقع الجيش لملك مينغ في حالة الفوضى، وقفز من الخندق لإيجاد مصادر الماء. فجأة سمع صوت الأبواق ثم صوت الحوافير وصراخ الأعداء. عندما رأى جنود ولر اندفع من المكان الكمين. اتضح أن الأعداء تظاهروا بالمسالمة ووضع الكمناء في الحقيقة. بعد أن قطع جيش مينغ شوطاً كبيراً، أصبحت المعنويات منخفضة ولم يعد في قدرتهم محاربة الأعداء ففروا من المعترك.

أما فرسان ولر فكانت معنويتهم قوية وهزموا جيش الملك بسهولة.

كان الملك مينغ ينغ زونغ ووانغ تشن يرتجفان من الخوف، حاولا عبثاً اقتحام الحصار. ورأى قائد الجيش الملكي أن حالة وانغ تشن ذليلة وحقيرة فشتمه بالغضب: الآن سأقتلك الخائن

المضر لدولتنا باسم الشعب. ثم رفع مطرقته الحديدية وقتله. ثم اندفع إلى الأعداء واستشهد بعد إصابته ثلاثة أعداء على التوالي.

حينئذ أدرك الملك أن الهزيمة قد كتبت لهم. فنزل من حصانه وجلس على الأرض منتظراً موته. هكذا أصبح أسيراً لجنود ولر. في هذه المعركة، بالنسبة إلى خمسمائة ألف جندي منيغ، أصبحوا أكثر من نصفهم قتلى وجرحى. أصبحت هذه الهزيمة أكثر خسارة بعد تأسيس أسرة مينغ الملكية. وتسمى هذه الهزيمة بانقلاب قلعة تو مو في التاريخ.

بعد انقلاب قلعة تومو، ركز ياي شيان زعيم قوم ولر انتباهه على بكين. كيف تواجه بكين التي تخلو من القوات العسكرية هذه الأزمة؟ وفي هذه اللحظة الحرجة، ظهر بطل وأنقذ أسرة مينغ الملكية من الهلاك. ألا وهو يو تشيان.

164
ترك البراءة في الدنيا

أما قصة يوتشان، فلنبدأها بالشعر وننتهي منها بالشعر أيضاً.

إن فاتح الشعر هو الشعر بعنوان «الدخول إلى العاصمة». ذكر فيه ثلاثة أشياء ألا وهي منديل وفطر والتابل. قال يوتشان إن هذه الأشياء الثلاثة هي كانت أشياء يعتاد عليها الشعب بل تصبح مصدر الأسواء. لماذا تجلب هذه الأشياء بالأسواء؟ فهي أن هناك أهل بيروقراطي بخطفها من الشعب ثم يتقدم بها إلى كبار الكوادر عندما ذهب إلى العاصمة ليتولى منصباً ما. إن يوتشان يأنف من هذه التصرفات بل ما الذي سيجلب إلى العاصمة. نعم، ماذا سيعجب جميع كبار الكوادر في العاصمة؟

فقال يوتشان بدون ترعرع: لن أجلب أي شيء هناك سأذهب إلى العاصمة بالنسيم من كامي.

في نفس يوتشان ما العلاقة بعدم إعجاب صاحب النفوذ! وهو يخاف من تقييمات الجماهير قولاً اختلاسه وخطفه من الشعب. إن هذه القصة مكتوبة على «تحرير دو جونغ تان» من دو مون (أهل من أسرة مينغ). يمكننا أن نرى رجوليته وبطوليته من المقالة كما أصبح «النسيم بين الكامين» تعبيراً مشهوراً على لسان الصينيين.

نعرف أنه أسلوب الكوادر هو يتعلق بمعيشة الشعب تعلقاً وثيقاً. إن الاختلاس في لحظة تؤدي إلى أذى مزمن والعفاف يعود على الجماهير بأكمله. ولكن عدداً لا يحصى من الكوادر يركز نظراته على صاحبي النفوذ ويتجاهل من شعور الشعب مما أدى إلى الخطف من من أدنى منه والتملق من من أعلى منه.

أما في هذه النقطة فللشعب تقديرهم بأنفسهم. إن يوتشان يتجاهل صاحبي النفوذ ويهتم بتقييمات الشعب، فذكره الجماهير. فيما يلي سنتحدث عن قصته. إن يوتشان أمل تشيانتانغ بمقاطعة تشجيانغ أي هانغتشو اليوم. إنه يحترم يوي فاي ووين تيان شيانغ كثيراً منذ طفولته وعزم على التعلم من هذين الأبطال. كانت على جدار غرفته صورة لنان تيانشيانغ.

بعدما أصيب يوتشان بمركز الجين ش (أعلى مستوى من امتحان في أنحاء العالم)، سبق له أن يتولى منصب المسؤول في عدد من أماكن. كلما وصل إلى مكان ما، يهتم بمعيشة الشعب وتطوير الزراعة ويخفف من عبء الضرائب على عتب الشعب باستطاعته مما حظي بكثير من رضى الشعب. بل إن عفافه في تلك الجو المعقد جعله مكرهاً من صاحبي النفوذ. وفي البعد، أمر المسؤول وانغ تشن صواحبه بافترائه وأطلقه إلى السجن.

عندما ذاع هذا الخبر، تجمّع كثير من الشعب في الأماكن الذي كان يوتشان حاكماً عليها لإرسال رسالة إلى الإمبراطور مينغ ينغ تسونغ طالباً منه إطلاق سراح يوتشان. مع أن وانغ تشن يريد أن يقتله بهذه الطريقة بسبب الخوف من إغضاب الجماهير وعدم الحجج الكافية، اضطر إلى إطلاق سراح يوتشان. بعد قضية تومولباو (ويشير إلى الحادث الذي وقع في أغسطس في السنة الرابعة عشر من عهد أسرة مينغ الإمبراطور (1449)، إن الإمبراطور مينغ ينغ تسونغ وتسمه تشو شى تشن، قاد الجيش لفتح الجزء الشمالي من مدينة واشى، حصلت الهزيمة وأصبح قبطاناً). أدهشت الأسرة الملكية، إن كل من أمه وجدته تريدان أن تفتدياه بأموال ولكن الطرف الآخر لم يوافق على ذلك بل قاد الجيش لضرب العاصمة، بكين. في ذلك الوقت ذاع شعور الخوف بين أهالي العاصمة، من أجل اطمئنان أنفاس الأهالي، قررت جدة مينغ ينغ تسونغ أن يحكم أخو مينغ ينغ تسونغ تشو شي يو الدولة وتولى منصب الإمبراطور بشكل مؤقت. وجمع تشو شي يو كبار الكوادر في الأسرة لتقرير كيفية مواجهة جيش واشي.

بل يتباين الكبار في الآراء وانتهى بدون أي قرار. اقترح الوزير تش تشنغ نقل العاصمة إلى نانجينغ. أنكر يوتشان الذي بدأ يتولى منصب الوزير العسكري قبل قليل نصيحته بلا ترعرع قائلاً إن مدينة العاصمة بكين أصل للدولة، تقع هنا قصور الأسرة الملكية والدولة والمقابر والكوادر والوزراء وجماهير الشعب ومخزنة الدولة. إذا حصل أي تحرك في المدينة وتحرك زخم التطور،

فإن نقل الأسرة الملكية إلى الجنوب هو درس لنا. لن نخطأ حطأهم. إن شو تشنغ قال هراءً ينبغي أن يقطع رأسه.

بعد أن سمع هذا، خجل شو تشنغ وغير اسمه إلى شويوتشان لإبداء وفائه.

حصل رأي يوتشان على دعم من كثير من الكوادر العادلين. ثمّ عينه تشو شي يو رئيساً لدفاع المدينة ويتولى المسؤولية المهمة فنشر يوتشان الجنود حول العاصمة وقوي القوى الدافعة للمدينة وفي الوقت نفسه سجن دفعة من الأعداء.

ذات يوم، حصلت فوضى عندما قاد تشو شي يو الاجتماعات الروتينية.

والسبب في ذلك أنه حصل التشاجر بين وزير وصاحب ماتشن ولم يستطع الوزراء أن يتماسكوا عن غضبهم وضربوا ماتشن حتى مات. اضطرّ تشو شي يو إلى قصر النوم خوفاً من ذلك. سارع يوتشان إلى إيقافه في المغادرة قال له إن الجميع يعرف أن أصل الفوضى هي في وانغ تشن. فيمكن خمود الغضب عن طريق معالجة وانغ تشن بشكل جدي.

فتمت مصادرة منزل وانغ تشن وإعدام أصحابه ثم استقرت حالة الدولة.

بعد ذلك، اقترح يوتشان على تشو شي يو أن يعتلي عرش قاد الجيش والشعب لمقاومة جيش واشي. فاعتلى تشو شي يو العرش وسجل بمينغ داي تسونج أي إمبراطور تشنع وأصبح مينغ ينغ تسونغ المقبوض عليه الإمبراطور الأكبر.

في هذا الوقت، إن الجيش واشي فتح الذي قاده ياشآن العاصمة بكين باسم إعادة مينغ ينغ تسونغ إلى العاصمة. في أكتوبر وصل الجيش إلى المدينة، جمع تشو شي يو الوزراء والكوادر لتقرير كيفية مواجهتهم. اقترح الجنرال أن يغلق باب المدينة حتى انتهى الجيش من الإمداد وغادر تلقائياً. بل نهر يوتشان إن جيشنا مستعد لخوض في المعركة، إذا غلقنا الباب الآن سيحبط قوى ثقتهم فمن الأحسن أن نواجههم بشكل رسمي ولا شك أننا سننتصرعليهم.

رأى تشو شي يو أن يوتشان تتمتع بالثقة لنصرة وأمره بقيادة جيشهم لمواجهة الأعداء.

فخرج يوتشان من المدينة قيادة الجيش وأمر تابعه بإغلاق باب المدينة لقطع حيز التراجع وعزم أن يستمر في المعركة حتى الوقت الأخير. رأى الجنود جرأته وبطولته فشعروا بقوة وحماسة. وحصل النصر في معركة الدفاع عن مدينة بكين. عندما فشل ياشآن في المعركة، أطلق سراح مينغ ينغ تسونغ باعتباره غير مفيد.

بعد أن أطلق سراح مينغ ينغ تسونغ، تم إعادة عرش بمساعدة الوزير شو يو تشن، شي هنغ وغيرهم من المسؤولين من خلال إصابة مينغ داي تسونج بمرض شديد في عام 1457م وسجل في التاريخ: الانقلاب السياسي عن طريق اغتصاب الباب. عندما عرف مينغ ينغ تسونغ أنه اقترح يوتشان أخاه الصغير تشو شي يو من اعتلاء العرش عندما كان في السجن، كان حزيناً كثيراً. وبمرافقة التشويه المستمر لصورة يوتشان من شو يو تشن، شي هنغ وغيرهم من الكوادر الخبيثين، انتهى يوتشان في الإطلاق إلى سجن الموت.

عندما صادر منزل يوتشان، وجد أن ليس في منزل هذا الوزير العسكري أي شيء إلا كومات من الكتب إضافة إلى الغرفة السرية المغلقة. كان يظن هناك أشياء قيمة بل ما إن فتح الروم حتى وجد فيها ثياباً مرسوم عليها البواء والسيف التي أهداها إليه الإمبراطور تشو شي يو.

تحرك قلب الجنود الذين صادروا منزل يوتشان ولم يستطع أن يتماسك عن الدموع.

إن موقع قطع رأس يوتشان هو بنفس موقع قتل ون تيانشيانغ وموقع قبره قريب من موقع قبر يوي فيي. لم نعرف هل هذا مصادفة بل إنه لم يكن خجلاً من هذين الشخصين المعجبين له. في عصر اليوم إذا زرت معبد يوي فيي، يمكنك أن تزور مقبر يوتشان بعد أن تخرج منه.

إن روح الوفاء يواجه روح الوفاء يمكن القول بأنه لن يكون خجلاً من هذه المناظر الجذابة والإعجاب من الأجيال اللاحقة. في النهاية، لتضع النهاية بالشعر «أغنية الجبس». اتّخذ يوتشان نفسه جبساً أي حتى ولو عشرات آلاف مرة من ضرب ونقر وحرق في النار هو شيء لا بأس فيه بالنسبة إليه كما هو حتى ولو تحطمت أجساد فلا خوف فيه، لماذا؟ لأنه يعزم أن يبقى الصفاء في العالم. حقاً إن يوتشان عمل كما قال في الشعر خلال حياته لأنه لم يغير جرأته وبطولته ويبقي الصفاء في العالم مع أنه عانى من فائق عذابات الدنيا.

165

هلك للمسؤول المسيء

هل سبق لك أن تخيلت الحياة للإمبراطور في أسرة ملكية مينغ؟

ربما يخطر على بالك هو أطعمة لذيذة في القصر وجمال الزوجات ومتعة الاصطاد. لا شك في وجود كل ذلك. لأن طالما فتحت «ديوان خلال شرب الخمر» أو «خريطة اللهو لمينغ شوان تسونغ» أو «خريطة اللهو في عيد يوان تشن ل مينغ شيان تسونغ»، فنستطيع أن نرى صورة صغيرة لحياة الإمبراطور في اللهو بل هناك أيضاً شؤون مملة للإمبراطور.

على سبيل المثال، إن الاجتماع في الصباح هو شيء منها. ينبغي للإمبراطور أن يقوم من النوم مبكراً والشمس لم تشرق بعد للذهاب إلى الموقع المحدد له ويجلس مستقيماً هناك ويستمع إلى جميع الوزراء والمسؤولين ليبلغوا له كل شؤون تهم ثم يفكر فيها ويقدم الرد على كل هذه الشؤون. استمرّت هذه الشؤون المملة من ما قبل إشراق الشمس حتى ما بعد ظهور الشمس كل يوم ونادراً انقطع.

وعلى سبيل المثال الآخر، إن الرد على مقال النصائح المتقدم الوزراء والمسؤولين، فيحتاج الإمبراطور إلى قراءة 20 أو 30 من المقالات وهي تختلف في التعبير وحجم المفردات بل كثير من النصائح تكمن في تعبيرات البلاغة أو قول التحذير. ذات مرة قدم وزير ديوان الجنايات روتايسو في عام 1376م مقال النصيحة إلى الإمبراطور تشو يوان تشن وبلغ طول المقال 17000 مفرد بل تناول الـ 500 المفردات الأخيرة فقط الشؤون الواقعية مما أغضب الإمبراطور كثيراً.

كل هذه الطرائف ذكرها السيد هوانغ رينيو في كتاب «خمسة عشر سنة من التقويم وان»، فيمكنكم أن تتفرجوا عليه إذا كان يهمكم. إن في أعماق نفس الإنسان الميول إلى التمتع وإكراه العمل وخاصة للإمبراطور الذي نشأ في القصر بدون ارتهان ومراقبة كافية بينما يواجه كثيراً من

الإغراء. فمن الطبيعي أنه ينقصهم الصمود فهم يلجؤون من اجتماع الصباح والمقالات وثرثرة الوزراء إلى الإدمان في اللهو.

إذا الإمبراطور لم يهتم بالشؤون السياسية فسلطاته ستضعف وتجاوز إلى خارج حوزه. فإلى أين تذهب هذه السلطات السياسية المهمة؟ قد ذكرنا سابقاً أن هذه السلطات تم توزيعها إلى من كان قريباً من الإمبراطور. وفي أسرة هان الملكية هم الأقارب من الخارج للإمبراطور والمسؤولون المساعدون حصلوا على السلطات وفي عصر الجيل الأول من أسرة مينغ الملكية لم تكبر جمعة الأقارب من الخارج إلى حد معين بل شهد المسؤولون المساعدون تكبراً قوياً في نفوذهم. وإضافة من المسؤولين المساعدين هناك دور لا يتجاهل من الوزراء.

ذكرنا وانغ تشن في السابق وستعرف واحد من المسؤولين المساعدين باسم ليوجين فيما يلي. شهدت نفوذ المسؤولين المساعدين مزيداً من التكبر بعد عصر الإمبراطور مينغ تشنغ زو وخاصة بعد قضية تومولباو، عدد من الإمبراطوريين غير قادرين في تحكم الدولة والسلطات السياسية تقع على يد المسؤولين المساعدين مما جعل الحالة السياسية في الدولة تقع في الفوضى وتشكو جماهير الشعب كثيراً.

في عام 1505م، اعتلى العرش تشو هوزهاو، الجيل العاشر من الإمبراطور من أسرة مينغ الملكية وسجل في التاريخ بمينغ ووزونج.

كان تشو هوزهاو بهمة ونشاط بل هذا في اللهو واللعب، عندما كان ولياً للإمبراطور، يحب تربية النسور والتمتع بالرقص والأغاني ويطلق قصر النوم التابع له باسم ملعب اللهو المائوي. بعد أن اعتلى على العرش، لا يهمه معالجة الشؤون السياسية فتركت السلطات إلى يد المسؤولين المساعدين الثمانية وأطلق عليهم بالأسود الثمانية وتصدر ليوجين بينهم.

اعتمد ليوجين وغيره من المسؤولين المساعدين على إعجاب تشو هوزهاو لهم وعمل كل ما أرادوا بدون أي خوف.

هكذا، اقترح بعض الوزراء على تشو هوزهاو أن يزيح الأسود الثمانية. عندما سمع ليوجين هذا الخبر ركع أمام تشو هوزهاو وقال إنك الإمبراطور، كل ما تقول هو الحق، كيف يسيطر عليك الوزراء؟ فرأى تشو هوزهاو أن قول ليو على الحق مما عمل معاكس نصيحة الوزراء الضبط. هو

لا قتل الأسود الثمانية فقط بل عين ليو جين رئيس ديوان الشعيرة وعين اثنين من أصحابه رئيس المكتبين الشرقي والغربي. في الوقت نفسه، حمل ليو جين أن يعالج جميع الشؤون السياسية كبيراً أو صغيراً. هكذا يمكن لنفسه أن يترك الدولة ويكمن في الفتات بنى غرفاً خاصة للنمر.

ملك ليو جين معظم السلطات السياسية فبدأ يتدخل في الشؤون السياسية: أجبر على دفعة من الوزراء المستقيمين أن يغادروا من السياسة ثم رتب أقاربهم ومن رشاه في هذه الوظيفة الشاغلة. إضافة إلى ذلك، إنهم قاموا بالخطف وخالف القانون باسم الإمبراطور. إن هذه التصرفات جلبتهم كثيراً من الغضب من أنحاء الدولة. ففي عام 1510م، أقام رئيس أنهوا تشو زيفان علم مكافحة ليو جين.

بعث بمينغ ووزونج يانغ يي تشنغ لمقاتلة جيش رئيس أنهوا تشو زيفان واختار المسؤول المساعد تشانغ يونغ كالمراقب له. إن يانغ يي تشنغ لطيف في الخلق وأجاد قيادة الحرب. سبق له أن يحصل على عدد من الانتصارات في المعارك المضادة للأعداء. لكنه متروك في خارج الدائرة السياسية المركزية بسبب عدم ميل إلى ليو حين. هو رجع إلى هذا المركز للحرب تجاه الأعداء.

كان تشانغ يانغ واحد من الأسود الثمانية وانصرف منهم بالتدريج بسبب المشكلة بينه وبين ليو جين. تمتع يانغ يي تشنغ نية في إزالة ليو جين ورأى أن تشانغ يانغ تجدر بالتكتل معه فقرر أن يقنعه. في طريق العودة إلى العاصمة بعد النصر في الحرب تجاه الأعداء، قال يانغ يي تشنغ لتشانغ يانغ مع أننا انتصرنا في الحرب لإزالة الأعداء من الخارج بل أنا لست مطمئناً من تواجد الأذى من الداخل.

سأله تشانغ يانغ ما هو الأذى في الداخل؟ فكتب يانغ يي تشنغ على قلب كفه كلمة جين. فهم تشانغ يانغ بل هو هز رأسه قائلاً إن لليو جين كثيراً من الأصحاب في القصر ومعجب أمام الإمبراطور فمن الصعب إزالته.

حثه يانغ يي تشنغ تتمتع بفائق المأثرة في هذه الحرب، إذا أنت قال للإمبراطور سبب رئيس أنهوا تشو زيفان ضدنا وعرف الإمبراطور ذلك فمن الضروري أن يقتل ليو جين. هكذا، فأنت أزلت الأذى الخبيث لشعبنا.

تحرك شعور تشانغ يانغ بعد أن سمع هذا بل خشي به أيضاً قائلاً: إن ليو جين معجب كثيراً أمام الإمبراطور، إذا لم يثق بي الإمبراطور؟ قال يانغ يي تشنغ: أنت قريب للإمبراطور أيضاً، إذا تردد الإمبراطور، فتبكي بشكل شديد لإبداء وفائك. فسيثق بك. ظل ليو جين غير مرضي عند تشانغ يانغ وفكر في الانتقام منه. يمكنه أن يعتصم هذه الفرصة فقرر أن يعمل وفقاً للحيلة.

من المؤكد أن الإمبراطور ما زال يشكك في ليو جين بعدما سمع ما قال تشانغ يانغ.

بعدما رجع إلى القصر، تقدم تشانغ يانغ بالمقال إلى الإمبراطور وبكى بكاء شديداً في تبليغ له كل التصرفات الخالفة ليو جين ثم أقدم أمامه رئيس أنهوا تشو زيفان لتقول للإمبراطور سببه في تمرده. في الوقت نفسه، أقنع صاحبا تشانغ يانغ تشانغ شيونغ، تشانغ روي بجانبه. علم الإمبراطور أن ليو جين خالفة النظام واللائحة إلى هذا الحد، استيقظ أخيراً وأمر بسجن ليو في ذلك الليل.

لم يخطر على بال ليو جين أن هناك من أقدم على تبليغه إلى الإمبراطور، فتم سجنه بعدم أي عمل تعددي.

وتم مصادرة 240 ألف سبيكة من الذهب و5 ملايين سبيكة من الفضة في منزل ليو جين إضافة من الألبسة المرسوم عليها التنين وكثير من الدرع والسلاح. نشر تشانغ يانغ كل هذه المصادرات أمام الإمبراطور. غضب الإمبراطور كثيراً وأمر بإعدام ليو جين على الفور.

بعد موت ليو جين، لم يؤخذ تشو هوزهاو درساً منها وما زال يكمن في اللهو واستبدل مسؤول مساعد آخر بجانبه واسمه جيانغ بين الذي كان أكثر من ليو جين أذى مما جعل العاصمة مفعمة بالاضطرابات بأكملها.

من الطبيعي أن يثار غضب الشعب تحت هذه الحوكمة واندلع كثير من الانتفاضات من أنحاء البلاد. في عام 1510م، قام ليوليو وليو تسي الذين ربيا الخيل بالانتفاضة قريباً من العاصمة. فما بين السنتين، نقلا إلى خبى وخنان وشاندونغ وغيرها من الثمانية من المقاطعات وفتحا عشرات من المحافظات وقتلا آلاف من الكوادر الشريهين وقد أنفقت الحكومة ملايين من سبائكالذهب والفضة وبعث مائة ألف من الهوش لمواجهتهم مما سارع عجلة هلاك أسرة مينغ الملكية.

166

إدراك حكمة داو في لونغ تشانغ

هل ما زالت تذكر المجادرة بين تشو شي ولوجيو يوان في اجتماع بحيرة الوز؟

إنهما اتفقا على أنه يمكن لشخص عادي أن يصبح حكيماً من خلال الدرس والاجتهاد. طالما أن عملية كون الحكيم يمكن أن يتعلم ويدرك فعن أي طريق نستطيع أن ندرك المثل الأعلى للمدرسة الكونفوشيوسية؟ وأي طريق علينا أن نسلكها؟ هل هو واسع التفرج على العالم وفائق الفهم لمخلوقات العالم أو هو القلب الحكيم الموجود في الإنسان ولا داعي لصرف قوتنا في الأشياء من خارج نفس الإنسان التي دعاه الأخوان لو؟

إذاً، هل هناك شخص حاول أن يسلك طريق من هذه الطرق خطوة فخطوة ووصل إلى الحكيم أخيراً؟

هل ما زالت تذكر الخالدات الثلاثة في قضية ون تيانشيانغ؟ وهل حقاً أن هناك من يتصف بالأخلاق الحميدة ويتكلل بالمآثر غير المسبوقة ويشير الآراء القيمة والحقة حتى وصل إلى حالة المخادلة؟

هل هناك من نجح هكذا؟

نعم، يوجد شخص تقدم بكل إخلاص في طريق وراء الحكمة حتى أصبح كبار الحكيم وخلق الخالدات الثلاثة أخيراً. ألا وهو وانغ يانغ مينغ. سنتحدث عن قصته فيما يلي.

وانغ يانغ مينغ، أهل يوتاو في مقاطعة تشجيانغ، ولد في سنة تشينغوا الثامنة أي عام 1472م. قيل إن جدته السيدة تسن حلمت بالرجل السحري المرتدي ملبساً أحمر ركب السحاب وتقدم إليها مع دردار الطبل لتقديم لها المنفوس. كان وانغ يانغ مينغ ذكي جداً وهو أدهش الموجودين بشعر

عندما مر بمعبد جين شان في طريقه مع جده إلى العاصمة في الحادية عشرة من عمره وزعم أن يصبح حكيماً في الثانية من عمره.

كان يدرس في الكتاب حينئذ، ذات يوم سأل المعلم: ما هي الأولية في العالم؟

ماذا يستطيع المعلم أن يجيب له؟ فقال له إن الأولية هو الحصول على نتائج جيدة في الامتحان الإمبراطوري من خلال الدراسة. لكن الشاب لم يوافق على ذلك لأنها طموح علماني لا تعجبه أبداً. فقال للمعلم: النتائج الجيدة في الامتحان الإمبراطوري ظهرت دائماً بل كيف أن يكون أولية في العالم؟

هذا أدهش معلم الكتاب كثيراً فسأله: ما رأيك في الأولية؟

أجاب بصوت عال: لا أولية إلا الدراسة وكون الحكيم.

إن هذا القول يشبه رعداً يدهش الموجدين. يمكننا أن نتخيل كم من طموح الشاب في الثانية عشرة من عمره وكم من الأشعة المهذبة من وجهه الفتي.

ربما كان هذا قولاً مجنوناً في رأي معلم الكتاب. ولكن عندما سمع أبوه هذا لم يستطع التمتع بالضحك قائلاً: أنت تريد أن تصبح الحكيم وأنت صغير في السن هكذا.

يستطيع وانغ يانغ مينغ أن يلم بالسخر من لهجة أبيه لكنه لم يسط وهو يعزم أن يسلك الطريق الذي قد اختار له بنفسه. لكن هل هناك طريق سهل إلى الحكيم؟ تردد وانغ في هذه الطريق تردداً أكثر بكثير.

إن أول طريق إلى الحكيم له هو واسع التفرج على العالم وفائق الفهم لمخلوقات العالم من مفهوم قيمة تشو شي. بل ما هي واسع التفرج على العالم وفائق الفهم لمخلوقات العالم؟ باختصار هو تأمل ودراسة شيء ما ثم الحصول على العلم الكامن فيه. رأى تشو شي أن لأي شيء جهتين من الظاهرة والباطنة والدقة والخشب. حتى ولو عشب أو شجرة تكمن فيها جوهر الحقيقة. فيستطيع شخص أن يلم بكل الحقائق الكامنة في هذه الأشياء بدون استثناء فيمكنه أن يصبح حكيماً.

يبدأ يلم بأي شيء؟

التفت وانغ يانغ مينغ نظرته فيما حوله ورأى خيزراناً أخضر في خارج الغرفة. لا شك أن الخيزران يكمن فيها الحقيقة باعتبارها شيئاً. فدعا صديقاً له أن يدرس في الحقة في الخيزران معاً. تلفق الصديق بكل البهجة فجلس أمام الخيزران محاولاً أن يلم الحقة فيها ليلاً ونهاراً، بل في اليوم الثالث، لا يقدر على المثابرة عليها وأصيب بمرض من القلق.

رجع وانغ يانغ مينغ فشل صديقه إلى عدم قوة كافية وقرر أن يلم به بنفسه. بل هو ثابر عليها أكثر ببضعة أيام من صديقه كما أصيب بمرض في اليوم السابع من الدراسة.

هكذا، سد طريق واسع التفرج على العالم وفائق الفهم لمخلوقات العالم.

إن هذا الصعب يخيم على طريقه إلى الحكيم بالغيوم. بدأ يشك في استعداده في كون الحكيم كما أخذ يشك في الطريق المشار من قبل تشو شي. بل لم يحطب بهذا وقرر أن يحول إلى طريق آخر.

إذا سد طريق إلى الحكيم من المذهب الكونفوشيوسي، فكيف المذهب البوذي؟ قرر وانغ يانغ مينغ أن يحاول.

في أول السنة من هونغ تش، كان وانغ يانغ مينغ في السابعة عشر من عمره، ذهب إلى نانتشانغ بمقاطعة جيانغشي ليتزوج من فتاة هناك، بل في ليل حفلة الزفاف، خرج من غرفة النوم ذاهبة إلى قصر عمود حديد. والتقى درويش بجانب القصر. إن الدرويش لطيف الوجه وأبيض الشرص وهو جلس هناك ساكتاً. رأى وانغ يانغ مينغ أنه غريب إلى حد فأراب إذا هو درويش الذي قد نجح في الحصول على حقة العالم ولم يمتنع عن التقدم إليه لاسترشاد علم الاطمئنان منه. فعلمه الدرويش علم التنفيس. ثم أدرك وانغ فجأة. فجلس مواجهة من الدرويش حتى فجر اليوم الثاني وترك شؤون الزواج بأكمله.

ولكن هل هذا الطريق مفتوح؟

بعد ذلك، ما إن تمتع بالوقت الفراغ فزار أهل العجائب بين الجبال المشهورة. في جبال جيوهواشان، سأل تساى بينجتو حول الحقة، بحث عن العجيب في كهف ديتسانغ بعد تسلق كثير من الجبال الشاهقة وسمع إلى أغاني من راهب البوذي. بعد ذلك، رجع وانغ يانغ مينغ إلى مسقط رأس

بسبب مرض وعاش معزولاً في جبال سيمينغ وتمرن على عملية التنفيس كما علمه الدرويش عند جانب قصر العمود الحديد. مع مرور الأيام، خطرت على باله خاطرة التخلص من الدنيا. لكن ما إن ظهرت هذه الخاطرة وجد أنه لم يستطع أن يقطع الشوق إلى جديه وأبيه. في هذا الشعور الوثيق بأهاليه، أدرك أن حقة البوذي هو ليس أي شيء إلا تقلبات الروح وليس حقة الحكيم أبداً بالنسبة إليه.

إذا سد طريق البوذ أيضاً، فرجع وانغ يانغ مينغ إلى طريق المذهب الكونفوشيوسي مرة ثانية.

أكمن في دراسة الحكيم، لكن رأى مهما اجتهد في ذلك فهو غير قادر على تحقيق الاندماج بين حقة المخلوقات ونفسه. واصل وانغ يانغ مينغ محاولة، كان يدمن في المقالات البلاغة ووجد ذلك صعب الوصول إليه؛ كان ينهمك في العلم العسكري ووجده غير عادل...... فشل كل هذه المحاولات. وأخيراً بدأ طريقه إلى الحكيم بالتدريج بين هذه التقلبات.

لكن، هذا الطريق إلى الحكيم بدأ بمصيبة.

قد حدث عن التصرفات الخبيثة من قبل ليو جين وغيره من الأسود الثمانية. وقرر بعض الكوادر المستقيمين مثل ليو جيان وشيه تشيان أن يقدموا كتاب الاستقالة تجاه هذه الحالة المظلمة. يوجد المسؤول داي سي وهو تقدم بكتاب النصائح إلى الإمبراطور طالباً فيه من الإمبراطور أن يبقي هؤلاء الكوادر. بل هذا التصرف أغضب ليو جين. أطلق داي سي إلى السجن. ولم يعز على وانغ يانغ مينغ أن يرى داي سي أن يتحمل هذا ظلم فتقدم بكتابة النصيحة التي دافع عن داي سي فيها مما يجعله أصيب بأربعين ضربة ونفاه إلى قويتشو وتولى منصب المسؤول في محطة النقل الصغيرة في لوتغ تشانغ.

إن في لونغ تشانغ، تغيرت حياة وانغ يانغ مينغ بشكل حقيقي.

لم يصل وانغ يانغ مينغ إلى لونغ تشانغ حتى بعد سنة تامة بسبب العملية الشاقة. إن لونغ تشانغ، أي محافظة تسيوون اليوم، ما زالت أرضاً جدباء في عصر أسرة مينغ الملكية وهي منشورة بالجبال والأشواك والأفاعي الكثيرة إضافة إلى أن لغة الشعب المحلي صعبة جداً للفهم. إن المحطة صغيرة جداً وهناك مسؤول واحد فقط.

إن وانغ يانغ مينغ شعر بشيء من الإحباط حينئذ.

كيف يمكنه أن يبعث عن الطريق إلى الحكمة في هذه الأرض الجدباء؟

ما إن وصل، ليس هناك مسكن له فبنى وانغ يانغ مينغ بنفسه كوخاً. وبعد ذلك، عثر على كهف في جبل لونغ قونغ القريب منها فنقل إليه بعد ذلك. خيل إلينا لا تتفتح وردة الحياة الجميلة إلا في الحالة المودّرة. إذاً، فأي وردة يتتفتح عند وانغ يانغ مينغ؟

حينئذ، وجد وانغ يانغ مينغ أنه تتخلص من الشرف والإهانة والشيء الوحيد الذي لم يستطع أن يلم به هو الحياة والموت. ونقر ناووساً من الحجرة وجلس عليه ليلاً ونهاراً وتطلع إلى الحياة بعد تجربة الموت. هناك سؤال واحد فقط عاود نفسه، ألا وهو ما إجابة الحكيم مثل كونفوشيوس في حالته؟

تكررت هذه الخاطرة في ذهنه.

مع مرور الأيام، هدأت نفس وانغ يانغ مينغ. ذات ليلة، كان يجلس ساكتاً، ألم بالحقة فجأة وعج بصوت عال كما هو مجنون، أخيراً ألم بطريقه الخاص إلى الحكيم. باختصار، إن طريق الحكيم هو يكفي بنفس الإنسان بمفرده. مما يدل على خطئه المتمثل في السعي وراء الحقة في المخلوقات من خارج نفسه.

هذا هو إلمام مشهور في لونغ تشانغ.

في هذه السنة، كان وانغ يانغ مينغ في السابعة والثلاثين من عمره وقد مرت 25 سنة عليه عندما قرر أن يكون حكيماً.

ماذا خطر على بالك بعدما عرفت طريقة الحكيم لوانغ بعد عملية شاقة؟ هل ذكرت العلم النفسي من لوجيو يوان؟ هو من تطلب من الإنسان العثور على الحقة الموجودة في نفسه بل لن أصرف القوة في الأشياء في خارج النفس. نعم، إن طريقة وانغ يانغ مينغ إلى الحكيم تتخذ من لو لكن طريقه أكثر عمق من طريق لو. انطلاقاً من هذه النقطة، طرح وانغ انطباق العلم على التصرف وفائق السعي وراء العلم الحقيقي......

من التبين إن أصل لهذه المفهومات هو أن النفس هو الحكمة. أما مفهوم عدم تواجد أي شيء من خارج النفس، يمكننا أن نرى من الحوار البسيط من "مسجل التمرن":

ذات مرة، زار وانغ مع صديقه المحافظة الجنوب.

أشار صديقه باقة من الزهرة سائلاً: أنت قلت إنه ليس هناك أي شيء من خارج القلب، فما هي العلاقة بين تلك الزهرة وقلبي؟

فأجاب وانغ له إن الزهرة تبقت في الهدوء معك عندما لا تنظر إليها. واتضح لون الزهرة عندما نظرت إليها، فمن هنا يمكن القول بأن لم تكن الزهرة في خارج قلبك.

ما أجمل هذه التعبيرات.

بدأ وانغ يانغ مينغ سلك طريقه إلى الحكيم من الإلمام في لونغ تشانغ. بعد ذلك، صقل نفسه وأقام كتاب للتعليم وألف الكتاب ونشر مفهومه. قاد الحيش لمحاربة الانقلاب في تشن هاو. قدره الجماهير عالي التقدير المتمثل في الحصول على المآثر وطرح المفهوم ونشر الخلق الحميد مما يجعله الحاكم التام بين الشعب. توفي وانغ يانغ مينغ في عام 1529م. قال عندئذ إنه منور في حياته بدون أي قول آخر. حقاً إن تكللت حياته بالنجاح التام من غنى عن مزيد من القول.

167

المسؤول المسيء يان سونغ تمت حياته بالعقوبات القانونية

قد ذكرنا من قبل كيف أن يسير السلطات الإمبراطور إلى المسؤولين المساعدين، بل كيف أن تسير إلى أصحاب الوزارة؟

في الحقيقة هو أمر بسيط.

ما يرجع إليه بشكل رئيسي هو التناقض بين قوة الإمبراطور المحدودة والشؤون السياسية غير المحدودة. رغم قد ذكرنا أن الإمبراطور كره الاجتماع الصباحي والنصائح المتقدمة وثرثار المسؤولين ولجأ إلى اللهو. بل حتى ولو تفرغ الإمبراطور في الشؤون السياسية، صعب عليه أن يتجنب سريان السلطات إلى خارجه.

أما هذه النقطة فيمكننا أن نضرب مثل الحرث به. إذا كان أمامك فدان واحد من الأرض فتستطيع أن تتم حرثها بسهولة. أما عشر فدانات فتستطيع أن تتم حرثها أيضاً بأكثر من الشاقة. لكن إذا كان أمامك ألف فدان من الأراضي فمن اللازم أن تؤجر الفلاحين لمساعدتك. كيفما يكن الشخص قوياً متقناً حكيماً، لم تستطع أن يعالج كثير بكثير من الشؤون. إذا لم يكن قوياً لمواجهة ومعالجة كل هذه الشؤون فمن اللازم أن يوزع بعض الشؤون إلى الآخرين. في نفس الشيء فإن الإمبراطور عين الوزراء الكبراء أن يساعدوه في الشؤون السياسية.

لكن قد عرفنا أن الإمبراطور تشو يوان تشانغ ألغى منصب الوزير الكبير.

إنه نجح في جمع السلطات على يده. بل إن اليد هي يد فقط، كيفما يكن صاحبه طموحاً لم يستطع أن يتجاوز على وسع اليد. في ذلك، خيل إلى الإمبراطور أن الوزير الكبير هو عثور أمامه

في جمع السلطات بل في الوقت نفسه أن الإمبراطور يحتاج إلى الوزير إلى حد كبير. في الجيل الأول لأسرة مينغ الملكية، ألغي منصب الوزير الكبير بل بالتدريج، ظهر نوع آخر من المنصب الذي استطاع أن يبدل منصب الوزير الكبير هو المعلم الكبير في الوزارة.

بين هؤلاء المعلمين رئيس واحد وأهمهم هو أول مسؤول مساعد. هكذا، تم سريان السلطات إليه من الإمبراطور، طالما حصل هذا الأول المسؤول على السلطات الموزعة فاستطاع أن يؤثر على آخرين بشكل كبير وأصبح الكادر ذا النفوذ الكبيرة. فيما يلي سنتحدث عن واحد من الكوادر ذو النفوذ الكبيرة جداً.

في عام 1522م، توفي الإمبراطور منيغ وو زونج وانتهت حياته المدمنة في اللهو. اعتلى ابن عمه تشوهوى كونغ على العرش بسبب عدم تواجد الأطفال لدى منيغ وو زونج، اطلع عليه بالاسم السنوي جيا جينغ وأرخه التاريخ بمينغ شيزونج. إن الإمبراطور لم يكن أحسن من الإمبراطور مننغ وو زونغ بكثير. في البداية إنه تفرغ في الشؤون السياسية بل لم يمر بزمن طويل فأغلي بالسعي وراء السحر وطمع أن يخالد حياته. هناك مسؤول أجاد بكتابة الشعر لذكر الآلهة مما أعجب جيا جينغ وعينه بالأول المسؤول بين الوزراء.

هو يان سونغ، الكادر المسيء المشهور في التاريخ. في البداية إن يان سونغ تمتع بالسمعة العفيفة. واسمه الخلقي وى تشونغ، أهل فن يي. إنه أصيب بمركز الجين ش (أعلى مستوى من امتحان في أنحاء العالم) في العام الثامن عشرة من زمن الإمبراطور شياو تشونغ، ثم عين بشوجيتسي والمحرر على التوالي. بعد ذلك، استقال بسبب مرضه ورجع إلى مسقط رأسه ودرس في لينغ تشان لمدة عشر أعوام. أشعر وألف المقالات وتمتع بالسمعة العفيفة. بعدما رجع إلى الحكومة، بدأ يتغير تدريجياً.

لا يدخر جهداً في إعجاب الإمبراطور. زين القصر كالمعهد ونشر فيه التضحية مهما الرفض من الوزراء. رأى الإمبراطور أن القصر امتلأت بالدخان، ظنه نشر الدخان السحري مما أعجبه كثيراً. دائماً جلب يان سونغ للإمبراطور كثيراً من المقالات المتقدمة من الوزراء ليتفرج عليها عندما كان الإمبراطور ينهمك في طقوس السعي وراء السحر. من الطبيعي له أن يتجاهل هذه النصائح فترك كل هذه المقالات ليان سونغ قائلاً: ألم ترى أني في السعي وراء الحقة؟ كل هذه

المقالات تحت أمرك الآن. هذا هو بالضبط ما أراد يان سونغ. بدأ يان سونغ تتمتع بالسلطات الكبيرة وكان ابنه يان شي بأن قام بالتصرف المسيء مما أثار كراهية من المدينة بأكمله.

في ذلك الوقت، تبكرت قوة القومية داتا المنغولية في الجزء الشمالي. قام القائد آندان بتدبير الجنود وفتح القبائل وتمتع بالنفوذ القوية وقام بعدد من الاعتداء على الأراضي الحدودية مما جلب تهديدات كبيرة لأسرة مينغ الملكية. في الوقت نفسه، كان قوة الجنود لأسرة مينغ الملكية ضعيفة جداً إضافة إلى أن قادة لجنود أسرة مينغ الملكية ما اهتم بتدبير الجيش بل اتهمك في اللهو مما أدى إلى عدد من الفشل تجاه آندان.

رأى آندان ضعف أسرة مينغ الملكية فقاد جيشه جنوباً إلى مدينة بكين. واصل أن يفتح عشرات المدن. عندما ذاع الخبر إلى بكين، أدهش الإمبراطور الذي كان يقوم بطقوس السعي وراء الآلهة، عين تشيو وان، صاحب يان سونغ جنرال للدفاع عن مدينة بكين. انطلاقاً من خوف أن فشل تشيو سيؤثر على مركبته، فأمر يان سونغ صاحبه بعدم الدفاع عن الأعداء بشكل سري. قام جيش آندان بالحرق ونهب فيما قريب من مدينة بكين ثم غادر. بعد ذلك، قام تشيو وان بالتواطؤ مع آندان مستعداً للتفاوض.

إن تصرفات يان سونغ وتشيو وان أغضبت بعض الكوادر المستقيمين.

قدم المسؤول العسكري يانغ جيشنغ نصيحة المقاتلة مع الأعداء رغم الخطر معارضاً للتفاوض مع الأعداء. رأى يان سونغ أن العيب تجاه نفسه فأمر تشيو وان بقول سيئ ليانغ جيشنغ. كان الإمبراطور على استعداد لتدريب الجنود لمعارضة الأعداء بعد قراءة مقالات نصائح يانغ جيشنغ بل بعد تفريق يان سونغ، بعث الإمبراطور يانغ جيشنغ إلى ديداو، أي لين تشاو بمقاطعة قانسو الآن.

بعدما وصل يانغ جيشنغ إلى ديداو، لم يكن محبطاً. رأى معظم الأهالي هناك من أقليات وكثير منهم أميون فاستدعى أستاذاً لتدريس الشباب هناك القراءة والكتابة. قدم يانغ جيشنغ دائماً مساعدة مالية لأولئك التلاميذ مما أدى إلى مشكلة اقتصادية لنفسه. أطلق عليه أهالي محليون أب يانغ.

لم يمر زمن طويل، جرت عملية التفاوض بين أسرة مينغ الملكية وآندان بل كسر جهة آندان التفاوض واعتدى على الأراضي الحدودية مرة أخرى. لم يستطع تشيو التصدي له، فوجئ بالموب من الخوف من لوم الإمبراطور. بعد فشل التفاوض، اتخذ الإمبراطور نصيحة يانغ جيشنغ فرجع يانغ إلى العاصمة، ما إن وصل يانغ إلى بكين حتى وصل الكثير من الهدايا الثمينة من يان سونغ إلى منزله. استغرب يانغ منه كثيراً، فأعاد الهدايا على الفور وكتب عشر جرائم لإسقاطه.

هذا الأمر أدهش بكين بأكملها وكثير من الكوادر شعر بالقلق منه.

بعدم استثناء، أمر الإمبراطور بقتل يانغ تحت تفريق يان سونغ.

في الوقت نفسه، شعر الإمبراطور ببعض الشيء من تصرفات يان المتمثلة في الأذى للكوادر المستقيمين ونشر أصحابه في أنحاء البلاد. ذات مرة، اتخذ البوذي لان داوتشن فرصة الطقوس ليقنع الإمبراطور أن يقتل يان سونغ. بعد ذلك، واصل الكوادر المستقيمين أن يقدم مقالات النصائح لطرد يان وابنه من الحكومة مثل المسؤول الكبير أمام الإمبراطور زو ينجلونج. فأمر الإمبراطور بانتهاء الحياة السياسية ليان سونغ وبعث ابنه إلى جيش ليتشو. لم يكن يان شيزين مستعداً لهذا، فقد تواطأ مع وانغ تشي واستعد للهرب إلى اليابان. بعد اكتشاف المسؤول الكبير لين ران، أشار هذا على الفور إلى الإمبراطور. بعدما سمع هذا الخبر، أدهش الإمبراطور كثيراً، أرسل على الفور أشخاصاً ليأخذوا يان شي بان، وأمر بقطع رأسه، وفي نفس الوقت أصبح يان سونغ شعباً عادياً.

إن الأيام الأخيرة ليان سونغ يمكن وصفه بأنه قاتم جداً. في هذا الوقت، كان عمره أكثر من ثمانين عاماً، ذو الشعر الأبيض، كبير في السن وأصيب بالمرض، بلا مأوى، كان عليه أن يعيش بين القبر، معتمداً على إمداد من تضحية بعض المقابر، وتوفي بعد عامين.

168

لي شيجن و«خلاصة العقاقير الطبية»

في عام 1596م، أي السنة الرابعة والعشرين من التوقيت وان، رغب لي تشانيوان، المسؤول الخاص بعلم الكونفوشيوس في هونغ تشو بمقاطعة خوبي في تقديم الكتاب الطبي من قبل أبيه إلى الإمبراطور، فكتب مقال النصيحة إليه.

في هذا المقال، ورد كم من الصعب والشرك التي واجهها أبوه خلال تأليف هذا المقال قائلاً فيه: كان أبي نحيف ومريض منذ الصغر ولم يظهر ذكياً بعد تقدم في السن بل هو مشغوف بقراءة الكتب من نوع الطب. حقق الكتاب من قديم ومن عصره وعمل على التحديد من السؤال من كتب العصر قبله ودقق الأخطاء فيها. هكذا، استمر في العمل الجدي وأخيراً تم تأليف كتاب من الطب. بل بسبب أن الكتاب الطبي يهم الكثير بينما أن فيه بعض الأخطاء وأدمن في تدقيقه. نجح هذا العمل في أكثر من السبعين من عمره بدأ من الثلاثين من عمره.

عنوان مقال النصيحة هو كتاب لتقديم «خلاصة للعقاقير الطبية».

إن أبا لي تسنيوان هو الطب المشهور لي شيجن، والكتاب المتقدم هو «خلاصة العقاقير الطبية». خلال ذلك الوقت، كان الإمبراطور مينغ تشنتسنغ يتطلب الكتب من جميع البلاد. فقدم لي تشنيوان «خلاصة العقاقير الطبية» إلى الإمبراطور وفقاً لنية أبيه. ويأمل أن يقرأ الإمبراطور هذا الكتاب أو يؤرخه المؤرخون أو أعاد معهد المستشفى تأليفه بل فاتت كل أشكاله هذه. إن هذا الكتاب الثقيل القيمة ما هم الإمبراطور كثيراً. مع أن الإمبراطور والبلاد ما اهتم به، بل أظهر الكتاب أشعة القيمة مع مرور الأيام.

سنتحدث حول قصة لي شيجن وكتاب «خلاصة العقاقير الطبية» فيما يلي.

لي شيجن أهل تيتشو أي مدينة تيتشو اليوم بمقاطعة خوبي. ولد في أسرة طبية. إن أباه لي يانوان مجيد في الطب بل تفرغ للدراسة العميقة في نظرية الطب وتم تأليف «ابتكار التشخيصات الأربعة» و»طريقة النبضة الثماني الطبية» وغيرها من الكتب الطبية. رافق لي شيجن أبيه أن بجي العقاقير الطبية في الجبل منذ الصغر فعرف اسم وفعالية جميع العقاقير وجذب بهذه العقاقير بشكل عميق. لكن كان أبوه ما أراده أن يسلك طريقة الطبيب.

أرسله أبوه إلى كتاب للدراسة.

كان لي شيجن ذكي جداً أصيب بمرتبة «سيوتشاي» في الرابع عشر من عمره لكن لم يحصل على أي شيء في الامتحان بين المقاطعة لثلاث مرات القادمة. كان لي شيجن لا يريد أن يسلك طريقة الكادر في الأصل فهكذا أصبح عزمه في أن يصبح طبيباً في المستقبل. تفرغ لي شيجن علم الطب من أبيه والدراسة في الطب. عالج الفقراء لم يأخذ المقابل أحياناً بل يصرف من حسابه لشراء الأدوية لهم. كان المزيد من المرضى ذهب إليه لإجادته وبينهم الأشخاص الأرستقراطيين. وجد لي أن في بيت هؤلاء الأرستقراطيين كثيراً من الكتب الطبية فاستعارها للدراسة خلال هامش المعالجة.

وضع لي ما درس في الكتب موضع المعالجة وارتفع طبه.

خلال معالجة المرضى، وجد أن طريقة المعالجة مهمة جداً بل إن الأدوية تهم أيضاً. في بعض الأحوال عرف المرض بل ليس لديه أي دواء له فصعب على المرضى أن يتعافى. فقرر لي شيجن أن يدرس في الأدوية. زرع في بستانه عدد من العقاقير وذاق كلها بنفسه مما خلص كثيراً من علم العقاقير. قارن لي شيجن ما وجد بنفسه وما ورد في الكتاب القديم واحد تلو آخر ثم وجد أن هناك كثير من نقص وأخطاء في فعالية الدواء.

فقال لأبيه إنه اعتزم تأليف كتاب كامل للأدوية.

هز أبوه رأسه قائلاً هذا غير سهل. صعب على شخص واحد أن يحقق جميع الأدوية وتحديد فعاليتها. إن هذا القول لم يخب أمل لي شيحن. بدأ جمع المعلومات ويسجل صفة وفعالية لكل أدوية مما يعد لتأليف الكتاب.

ذات مرة، مرض ابن حاكم دولة تشو فاستدعى لي لمعالجته. قد استخدم غير الأطباء جميع الأدوية بل ما عمل، بينما استخدم لي نوعاً واحداً من أدوية وتعافى الأمير. شكر حاكم تشو له جزيل الشكر فطلب منه أن يبقى في القصر. بعد وقت قصير، جمع الدولة الأكفاء، فرشحه حاكم تشو إلى المستشفى الإمبراطوري وأصبح الطبيب الإمبراطوري.

كان في المستشفى الإمبراطوري صيدلية أدوية نادرة قيمة وكتب قيمة، مما أعجب شيجن كثيراً. قتل لي جميع أوقاته الفارغة في الدراسة في الكتب الطبية والعقاقير. على وشك نهاية الدراسة في الكتب والعقاقير في المستشفى الإمبراطوري، ترك لي العمالة الثقيلة واستقال وعاد إلى بيته، قدم معالجة للمرضى نهاراً وألف الكتاب ليلاً. خلال عملية تأليف الكتاب، رأى أن المعلومات غير كافية فقرر أن يجني العقاقير مع تلاميذه بانغ يي. سلك طريقاً طويلاً وتسلق جبالاً كثيرة في طريقه أكل ونام في حالة مسيئة وأوشك أن يزور جميع الجبال والأنهار في أنحاء البلاد وعانى كثيراً من الصعوبات.

مع مرور الربيع والصيف والخريف والشتاء، ابيض شعره وأصبح ظهره أحدب بل لم يغير عزمه في تأليف الكتاب الطبي. مرت السبع والعشرون سنة، زار لي منطقة خوبي وقوانغدونغ وجيانغسو وتشجيانغ وجيانغشى وخنان وأكبر من نصف الصين ورجع أكثر من 800 كتاباً طبياً. أخيراً نجح في تأليف الكتاب الطبي. بعد ذلك، قام بثلاثة التصحيحات.

هكذا، ظهر الكتاب الطبي الكبير وعنوانه «خلاصة العقاقير الطبية»، فيه أكثر من 1.9 مليون كلمة وسجل فيه 1892 نوعاً من الأدوية وأكثر من 10 آلاف وصفة. كل عقار ووصفة تم تحقيقه وتحديده من قبل لي شيحن بنفسه. يمكن القول بأن الكتاب تبلورت فيه عرقه وقلبه.

بعد أن توفي لي شيحن، قدم ابنه الثاني هذا الكتاب إلى الإمبراطور بل لم يحصل على أي اهتمام. لكن هذا الكتاب المفيد للبشر بأكمله لن يخيف شعته. مع مرور الأيام، أصبح «خلاصة العقاقير الطبية» أول مرجع في دراسة الطب الصيني وتم ترجمه إلى كثير من اللغات الأخرى ونشر في أنحاء العالم جيلاً بعد جيل.

169
ساعد تشانغ جوتشنغ صاحبه بوفاء

في خريف عام 1941، كان يتردد جو دونغرون في السادس والأربعين من عمره.

في ذلك الوقت، قرر أن يسلك طريقاً جديداً بل أين وجد الطريق الجديد؟ وكيف شق الأشواك؟ كان متردداً بسبب مقارنة الأدب للسيرة الذاتية في العالم الغربي، رأى أن الأدب للسيرة الذاتية في الزمن القديم متخلف جداً قائلاً: فات عصر سيرة التاريخ وهان كما فات عصر سيرة عصر هان ووي كما فات عصر مقالات القبر في عصر تانغ وسونغ كما فات عصر التسجيل السنوي في عصر أسرة مملكة سونغ حتى فات عصر الذي فيها الأعمال الجييدة مثل «السيرة الذاتية لتشانغ ويجونغ» من قبل جوشي و»السيرة الذاتية لجوزي» من قبل هونغ هان. لكم فاتت الأعمال الممتازة القديمة بل لم يظهر الأعمال الجديدة.

مع أن جو دونغرون عزم أن يقوم عمل شق الأشواك لأدب السيرة الذاتية بل كيف بدأ بفتح باب أدب السيرة الذاتية في هذا العصر الجديد؟ رتب كل الأشخاص الكبير في القديم حاملاً هذا السؤال. من اختار لتأليف السيرة الذاتية وعن أي طريقة في التأليف؟

بعد قلق شديد، اختار تشانغ جوتشنغ أخيراً. لماذا تشانغ جوتشنغ؟ أجاب مع أن هناك كثير من كبار الأشخاص في تاريخ الصين بل إن شخصاً تاريخياً مثل تشانغ معدود. لماذا تشانغ حظي بإقبال من جو؟ لنتعرف على هذا الشخص التاريخي فيما يلي.

أدمن الإمبراطور مينغ شيتشنغ في تبلور الأدوية السحرية متخيلاً أن يخالد بل توفي بسبب أخذ حبة دواء سامية. بعد أن توفي، اعتلى تشوجايو العرش باسم مينغ موتسنغ. خلال السنوات الستة تحت سلطة مينغ موتسنغ، عين تشانغ جوتشنغ، كان تشانغ جوتشنغ ذو كفء كثير مما حظي بكثير

من الإعجاب من مينغ موتسنغ. قبل وفاة مينغ موتسنغ، عين تشانغ جوتشنغ والمسؤولين الآخرين أن يساعدوا الإمبراطور الصغير في سنه في حوكمة الدولة.

منذ ذلك الوقت، بدأ تشانغ جوتشنغ يساعد الإمبراطور الصغير في شؤون الدولة بكل إخلاص.

كان الإمبراطور مينغ تشنتسنغ في العاشرة من عمره وأحب اللعب إلى حد ما. من أجل إفهامه طريقة حوكمة الدولة، اتخذ تشانغ جوتشنغ الإجراءات تقدر استطاعته. اختار قصصاً لأكثر من الإمبراطورين في التاريخ وألفها ككتاب فيه الصورة المشوقة تحت عنوان «الكتاب المصورة لتاريخ الإمبراطوريين» وقدمه إلى مينغ تشوتسنغ.

إن هذا الكتاب التاريخي المصور أعجب مينغ تشنتسنغ كثيراً.

ذات مرة، حكى تشانغ جوتشنغ للإمبراطور قصة تقشف سونغ رنتسنغ وعدم الزينة باللؤلؤ. بعدما سمع القصة، قال الإمبراطور ما قيمة اللؤلؤ؟ إن الكادر اللطيف أكبر قيمة من اللؤلؤ ويستحق أن يعالج معالجة اللؤلؤ. رأى تشانغ جوتشنغ أن مينغ تشنتسنغ قصري هكذا، لم يتمسك بسروره.

إضافة إلى مساعدة الإمبراطور الصغير في السن بالرشد والمشعور بل أخذ مأخذ الجد لشؤون البلاد.

في ذلك الوقت، كان فيضان النهر الأصفر من أكبر المشاكل بالنسبة إلى البلاد. ما إن جاء فصل الفيضان، فاضت مجرى الأنهار القديمة فمن الطبيعي أن الشعب يعاني من عواقب الفيضان. من أجل استئصال مشكلة الفيضان، عين تشانغ جوتشنغ بان تسيشون الذي تبرع في العمل ليكون مسؤولاً عن صروح وبناء سدادات النهر الأصفر. ما إن وصل بان تسيشون ليتولى المنصب لا يخيب أمل الشعب، قاد عمل بناء السد مما جعل مجرى النهر الأصفر مسيلاً بدون الفيضان.

لم يكن تشانغ جوتشنغ مجيداً بتعيين الأكفاء بل عالج مشكلة الحدود بشكل جيد.

في ذلك الوقت، في شمال أرض أسرة مملكة مينغ قليب داتا من قومية منغوليا الذي استمر في اعتداء على الأراضي الحدودية مما أثر على حياة الشعب. أرسل تشانغ جوتشنغ جيش تي الجريء إلى السمال لأسكن المعتدين. نجح جيش تي في مقاتلة قليب داتا فأعلن قائدهم آندا إذعان له.

بموافقة من مينغ تشنتسنغ، أطلق تشانغ جوتشنغ آندا حاكم شوني ورشح الشعب تبادل التجارة مع داتا وتبادل الحجات. في الوقت نفسه، لم يقف تدبير الجيش نظراً لحماية من إعادة اعتداء داتا مرة ثانية. منذ ذلك الوقت، تبادلت القوميتان التجارة فيما بين 20 و30 سنة.

من أهم مآثر تشانغ جوتشنغ هو دفع الإصلاح.

خلال عصر مينغ تشنتسنغ، إن ضريبة الأرض تحنى وفقاً لمساحة الأرض، من أجل تجنب الضريبة، إن أقارب الأسرة الملكية والأسر القوية النفوذ المحلية أخبر عدد مساحة أراضيهم خاطئ. الأمر الذي أدى إلى مزيد من الأراضي على أيديهم بل أقل من الضرائب في مخزنة الدولة. وجد تشانغ جوتشنغ هذه المشكلة فأرسل زميله لمحاسبة مساحة الأرض.

بعد ذلك، دفع تشانغ جوتشنغ قانوناً آخر، أي جمع جميع الضرائب والعمل وحوله إلى نقود الفضة وتم تحنئتها بشكل موحد. عن هذا الطريق، يتجنب عمل الغش من الأشخاص الأرستقراطيين وحشد الأموال في مخزنة الدولة وأصبحت قوى الدولة التدريج. إن إجراءات إصلاح من قبل تشانغ جوتشنغ ساعدت أسرة مينغ الملكية على تخليص من الصعوبات وتحسنت معيشة الشعب. بل أي نوع من الإصلاحات يحسس منافع الفئة الأرستقراطية مما دعا عدم إرضاءهم.

في عام 1577، توفي أبو تشانغ جوتشنغ في جيانغلينغ. وفقاً لنظام القديم، على الابن أن يرجع إلى البيت لتذكير أبيه لمدة ثلاثة أعوام. لكن كان تشانغ جوتشنغ بصدد عمل الإصلاح لم يستطع أن يرجع إلى البيت. من أجل مصلحة الدولة، تمسل حزنه وأرسل ابنه للرجوع إلى البين بل بقي نفسه في العاصمة لمعالجة عمل الإصلاح.

ففي ذلك الوقت، هناك من اختزن الفرصة لتشويهه قائلاً إنه لم يحفظ أسلوب الابن وليس لديه استعدادات لكون الكادر.

ذاع النقد به في أنحاء العاصمة. كان تشانغ جوتشنغ حزيناً جداً إضافة إلى الشؤون السياسية الثقيلة وهذه الإشاعات، مرض تشانغ جوتشنغ ولازم على الفراش. وجد مينغ تشنتسنغ لا أحد يستطيع أن يعالج شؤون الدولة، قلق كثيراً فأمر بقطع رأس الشخص الذي شوه تشانغ جوتشنغ. سكت هذا الأمر حتى في هذه النقطة.

كانت أم مينغ تشنتسنغ جدية في تربيته ودائماً ما قالت له كيف الأمر إذا عرف هذا الشيء السيد تشانغ؟ هكذا، إن الإمبراطور خاف من تشانغ جوتشنغ إلى حد كبير. لكن مع مرور الأيام، كان الإمبراطور ترعرع بالتدريج، لم يعد مستعداً لتلقي إرشاد تشانغ جوتشنغ وزرع في قلبه كراهية له. إضافة إلى أن هناك بعض الكوادر قال له ما شوه تشانغ جوتشنغ. في البداية، لم يستعد الإمبراطور لسماع هذا، بل عندما وجد أن جميع الشؤون السياسية كبيراً أو صغيراً تحت قرار تشانغ جوتشنغ، فأصبح غير مرضي أكثر فأكثر بالتدريج.

في عام 1582م، توفي تشانغ جوتشنغ بسبب المرض المترتب على العمل الثقيل. فبدأ مينغ تشنتسنغ بترؤس الشؤون السياسية بنفسه. من أجل تعبير غضبه من تشانغ جوتشنغ، حذف جميع منصب تشانغ وأمر بمصادرة منزله. كان أفراد الأسرة بعدد أكثر من عشر مغلقين في داخل الغرفة وماتوا بسبب الجوع. يا لها من أن تشانغ جوتشنغ قدم كل ما فيه لخدمة الدولة بل أثار إعادة خيره بالشر. إضافة إلى ذلك، ألغى مينغ تشنتسنغ جميع إجراءات الإصلاح له.

خيل إلينا أن مينغ تشنتسنغ ما فهم ماذا يعني بموت تشانغ جوتشنغ بالنسبة إلى أسرة مينغ الملكية.

ورد هونغ رنيو في كتاب «السنة الخامسة عشرة بتوقيت وان»: موت تشانغ جوتشنغ جعل الإمبراطورية تنفذ ركنها وتنازلها في التقدم مما أدى إلى هلاك الإمبراطورية.

حقاً إن موت تشانغ جوتشنغ أدى إلى تراجع قوة أسرة مينغ الملكية من الازدهار المبتدئ، اتجهت هذه الإمبراطورية المنشأ على يد تشن يونتشانغ إلى هاوية الهلاك خطوة بخطوة. هناك كثير من الأسباب أسهمت في كومية هذه الهاوية لكن هناك سببان رئيسيان. أولاً علينا أن تتجه نظرتها إلى شمال الشرقي لأسرة مينغ الملكية الذي شهد نهضة قومية أخرى هناك بين البيئات المسيئة. والآخر هو بعد موت تشانغ جوتشنغ بعشرين سنة، الجيش الجريء المولود في ميتشي بمقاطعة شانشي. اسمه لي تسيتشنغ. ستتجه نظرتنا إلى ما بين البيئة المسيئة فيما يلي.

170

يتولى نورهاتشي منصب كوهان

ورد السيد يان تشنغنيان في الكتاب «السيرة الذاتية ليوان تشونغهوان – المقدم»:

قتلت أسرة مينغ الملكية شخصين خطأً في الحدود الشرقي في لياو نينغ: الأول هو أب نورهاتشي تاكش والثاني هو المسؤول في لياونينغ يوان تشونغهوان. في عصر بتوقيت وان، قتل تاكش وفي عصر تشانغ تسنغ قتل يوان تشونغهوان مما أثار سلسلة من التقلبات التاريخية: إن موت الأول أدى إلى مواجهة عسكرية انطلاقاً من حقد، وتبقى هذا الشيء منعطفاً تاريخياً بين هلاك أسرة مينغ الملكية ونهضة أسرة تسنغ الملكية؛ أما موت الثاني، فأدى إلى تخريب سور الصين العظيم من قبل تشن يوجان مما أدى إلى تسرع هلاك أسرة مينغ الملكية.

أما السبب والعاقبة بين هذه الأشياء فتستحق مزيد من التفكير فيها.

في كثير من الأحوال أن التاريخ مثل حصير اللؤلؤ متكون من اللؤلؤ. إذاً نرتب كل الأشياء واحداً تلو الآخر، وكل الأشخاص واحد تلو الآخر، فيمكننا أن نفهم التقلبات، الأسباب والعواقب فيها ثم يمكننا أن نفهم درساً في ذلك.

يمكن القول إلى حد ما إن هناك كثير من الأشخاص يقرأون التاريخ من أجل السعي وراء التقلبات والأسباب والعواقب والدرس فيها. لا نقرأ التاريخ من أجل الماضي فقط بل من أجل الحاضر والمستقبل. بمساعدة ما قرأنا من التاريخ نستطيع أن نسلك طريقنا إلى الأمام مما يساعدنا أن نتفرج على المستقبل.

سنتحدث عن أول شخص الذي قتل خطأ من قبل أسرة مينغ الملكية أولاً فيما يلي. في الحقيقة، إذاً نأخذ الأمر مأخذ الجد، لم تقتل أسرة مينغ الملكية أبي نورهاتشي، تاكش فقط، بل قتل

جده جو تشانغآن خطأً أيضاً. انطلاقاً من موت هذين الشخصين، أصبح نورهاتشي أخيراً حراقاً لهذه الأسرة الملكية، الأمر الذي أدى إلى انهيارها التي كانت على قيد الحياة لمدة مائتين سنة.

خلال عملية تراجع لأسرة مينغ الملكية، شهد التاريخ تقدماً كبيراً لقومية الأقليات في الشمال الشرقي ألا وهو قومية جنتشن نيوتشن. إن جنتشن نيوتشن أقوى فرع بين ثلاث فروع القلبية لقومية جنتشن نيوتشن، أما الفريقان الآخران فهما هاسي نيوتشن ويارن نيوتشن. الشخص الذي قاد نهضة جنتشن نيوتشن هو آشينجوه لوه نورهاتشي.

ولد نورهاتشي في أسرة أرستقراطية في لقومية جنتشن نيوتشن بل إن هذه الهوية الأرستقراطية لم تجلب له مزيداً من الحظ. توفيت أمه في العاشرة من عمره. عالجته أمه، زوجة أبيه معالجة شديدة. لكنه محظوظ بالعناية الدقيقة من جده جو تشانغآن وأبيه تاكش.

علمه أبوه وجده ركون الحصان ورماية الأسهم مما جعله يتمتع بكثير من التقنيات الممتازة من الصغر. كان نورهاتشي له قوة العزيمة فيما أراد أن يعتمد على الآخر لم يعد يطيق زوجة أبيه. دائماً ما رافق أصحابه أن يحفرجذور الجنيسن والصيد وجنيا العقاقير ثم باع هذه السلع في سوق فوشن. كان في سوق فوشن كثير من التجار من قومية هان فدرس اللغة الصينية هناك، يعجبه أن يقرأ «رومانسية الممالك الثلاث» و»حافة الماء» التي فتحت عالماً جديداً أمامه.

هكذا، ترعرع نورهاتشي بالتدريج.

كان في الخامسة والعشرين من عمره، قتل أبوه وجده على يد أسرة مينغ الملكية وهذا الأمر غير حياته رأساً على عقب. السبب في القتل هو أن القائد العسكري في الشمال الشرقي لي تشنغليانغ نجح في فتح قرية كولو وأمر بقتل جميع الحياة في القرية، في ذلك الوقت، أن تشانغآن وتاكش بادر إلى إعلان الإذعان له بل قتل خطأً أيضاً.

ما إن سمع هذا الشيء، غضب نورهاتشي كل غضب. بعد بكاء حزين، أدان المسؤول عن الشؤون الحدودية قائلاً: لماذا قتل أبي وجدي؟ أنتم أعداء الحياة لي، هل لديك أي تبرير لنفسك؟

أجاب المسؤول قائلاً إنهم لم يعزموا على قتلهم بل هو قتل بشكل خطأ.

كيف يطمئن نورهاتشي بهذه التبريرات الضعيفة؟ في مايو من هذه السنة، قام بمواجهة عسكرية. بسبب أن جيش أسرة مينغ الملكية موجهة إلى دولته من قبل رئيس المدينة تور، نيكاولا وهو ليس قوي في قيادة المواجهة العسكرية تجاه أسرة مينغ الملكية. قاد نورهاتشي جيشه تجاه مدينة تور.

كيف يكون نيكاولا عدواً نظيراً لنورهاتشي؟

وجد أن الحالة غير جيدة، فهرب إلى أروهو التي أقام هناك جيش أسرة مينغ الملكية، أي المكان القريب من تشيتشيهار اليوم. ما استعد نورهاتشي للتغني عن الانتقام، فتعقب بجيشه هناك، رأى الجيش مينغ عزمه وصبره، لا حول ولا قوة إلا أن أمثل نيكاولا.

فيما بعد، كان نورهاتشي يقود بفتح شرق وغرب ثم تم اتحاد لقومية جنتشن نيوتشن. شعر كل من فرع هاسي نيوتشن ويارن نيوتشن بالقلق الشديد وجشي من أن نورهاتشي سيقود مقاتلة لفتحهما فقرر أن يبادر العملية العسكرية أولاً. فاتحد أقوى جزء من جيش لهاسي نيوتشن، ياهو والقومية منغوليا ونيوتشن فقاد المواجهة العسكرية تجاه جنتشن نيوتشن منفرداً من ثلاث وجهة في عام 1593م.

كان نورهاتشي أعد كل شيء للتصدي للمواجهة قبل أن عرف ذلك. رتب كميناً ووضع الخشب الدوار والحجز الضخم في قمة الجبل. بعدما تم الترتيب لكل الشيء بشكل جيد، شعر نورهاشي بشيء من التعب، ما إن رجع إلى منزله، لزم الفراش. رأته زوجته، هزته قائلة: كيف تستطيع أن تنام بهدوء والأعداء على الطريق إلينا؟

تمطى نورهاشي ثم قال مبتسماً لها: لن أتورط في الحرب بدون التعددات. إذا لم أقم بالعمل التعددي جيداً لن أستطيع النوم حتى ولو عندي رغبة شديدة لذلك.

في فجر اليوم الثاني، قام نورهاشي من النوم بكل قوة ونشاط وارتدى درعه ثم قاد جيشه على الجبل في انتظار الأعداء. لم يمض إلا لحظة، جاء جيش الأعداء كمرور السحاب الأسود. من الطبيعي أن جنود نورهاشي شعروا بالخوف إلى حد ما فشجعهم نورهاشي قائلاً: مع أن الأعداء كبير في العدد بل هو موحد من مختلف القبائل وينقصهم التوجيه التوحد إضافة إلى أنهم فقدوا المواقع الاستراتيجية، كيف يقارن مع امتيازاتنا؟ حقاً أننا سننتصر عليهم.

بعد سماع هذا، شعر الجنود بقوة ونشاط، يبدو أنهم يريدون أن يحاولوا كل محاولة.

بعث نورهاشي مائة من جنود الركوب أولاً. خرج قائد من قادة قبيلة ياهي للمواجهة العسكرية. إنه ارتكز على القدوم إلى الأمام بل لم يأبه تعثر القدم فتعثر حصانه فصرع على الأرض. أمثل إليه جنود جيش تشنتسون قطع رأسه وانتصر على العدو في الشوط الأول.

بعد الانتصار الأول، شعر جنود جيش تشنتسون بمزيد من النشاط والحماسة بينما جنود الجيش المتحد شعروا بالإحباط بعد الفشل إضافة إلى النقص عندهم من القيادة. فيما يلي، ازدادت جرأة جيش تشنتسون مع تعميق الحرب واغتنم نورهاشي الفرصة للحصول على الانتصار على قبيلة ياهي وتمت عملية اتحاد بين جميع فروع نيوتشن.

كيف جرت إدارة هذه القبيلة الكبيرة؟

أنشأ نورهاشي نظام الأعلام الثمانية حيث قسم قومية نيوتشن إلى ثمانية أعلام تنفرد بعضها ببعض وتنافس بعضها البعض. قامت بالزراعة في أيام السلام وخاض المعركة عند الحرب، استطاعت الاعتماد على نفسها وزادت قوتهم في الحرب عن هذا الطريق. في عام 1616م، أنشأ نورهاشي عاصمته في هاراتو أي قريب من مدينة تشنبين بمقاطعة ليونينغ. أطلق على نفسه بكوهان الكبير واسم دولته همكي تحت اسم السنة بتيان مينغ. بعد ذلك، اتجه نورهاشي القوي نظرته إلى أسرة مينغ الملكية لأنه اعتزم الانتقام منها من أجل أبيه وجده. بعد نشأة دولة همكي بالسنتين أي 1618م، أقام نورهاشي علم ضد أسرة مينغ الملكية. سيجري في ساره الحرب الحاد بين همكي ومينغ الملكية.

171

جيوي و«سيكو كوانشو»

بعد ذلك، أصبحت أسرة تشينغ أكثر ازدهاراً ودخلت في العصر المزدهر.

لكن هذا الوضع غير مستقر. في ذلك الوقت، بعد فترة وجيزة من زوال عهد أسرة مينغ، واجه العديد من الأدباء هذا الصعود والهبوط، وكثيراً ما وضعوا أفكارهم حول وطنهم في الشعر. لكن أسرة تشينغ غير راضية، ووضعت الأدباء في السجن للقمع. السجن الأدبي، القضية التي تسببتها المقالات الأدبية. في نهاية عهد أسرة تشينغ، كانت السجون الأدبية هي الأكثر شعبية في سلالات شونزي، كانغ شي، يونغتشنغ، تشيان لونغ الأربعة، وكان العدد الإجمالي للناس مئات المرات، وقد قُتل ونُهب. هذه المئات من السجون الأدبية جعلت العالم الأدبي الصيني صامتاً.

أسكت السجن الأدبي الأدباء من سلالة تشينغ، لكنه تعلم أن يغني القوة الإمبراطورية.

ومع ذلك، لم يكن ملوك سلالة كينغ مقتنعين بهذا فحسب، بل امتدوا إلى نظرهم وتطلعوا إلى نصوص أسلافهم، واعتقدوا أنه في تلك الكتب التي تم تمريرها لفترة طويلة، كانت هناك كلمات كثيرة انتهكت محظورات أسرة تشينغ، كيف تختفي هذه الكلمات؟

يتم الحذف وإعادة الكتابة والتدمير. أرادت أسرة تشينغ أن تعكس تماماً ذكرى الأمة لكي لا تتذكر بعد ذلك الرضا والاحتجاجات التي كانت لها. وبهذه الطريقة، بدأت أسرة تشينغ تصحيحاً طويلاً، وسيكو كوانشو (المكتبة الكاملة من أربعة أقسام) تمثل أكبر مجموعة من النصوص في الصين قبل الحديثة ولها مكانة تاريخية هامة في سجل النصوص الثقافية والفكر الأكاديمي في الصين.

قال السيد لو شيون بحزن شديد في «بعد المرض»: لا أريد أن أقول أي شيء آخر الآن، إنه يكفي أن يكون من المذهل رؤية أساليب كتابات الشعب الصيني في سلالتي يونغ تشنغ وتشانلونغ. دمرت تماماً، تحطيم، وما شابه ذلك، الأكثر غدراً هو حذف محتويات الكتاب القديم. كان «تشيكو كوانشو» من تشيانغ شيوى شائعاً بين الكثير من الناس، لكنهم لم يخلطوا فقط بين شكل الكتب القديمة، بل قاموا أيضاً بتعديل مقالات القدماء. لا يقتصر الأمر على محكمة التبت الداخلية فحسب، بل أيضاً على المكان الذي يكون فيه أسلوب الكتابة أكثر ازدهاراً، حتى يتمكن علماء العالم من القراءة، ولا يفكرون أبداً أن هناك أشخاصاً لديهم بعض العظام في مؤلفي الصين.

أدناه، سوف نتحدث ببساطة عن تأليف سيكو كوانشو.

في عام 1722، توفي الإمبراطور كوانشو من المرض. وخلف الأباطرة الرابعة العرش، والمعروف أيضاً باسم الإمبراطور يونغ تشنغ. كان الإمبراطور يونغ تشنغ وحشياً ومريباً، وخلال فترة حكمه، كان السجن الأربي متكرراً. في عام 1735، توفي الإمبراطور يونغ تشنغ وخلف الإمبراطور تشيان لونغ. ومع ذلك، استمر الإمبراطور تشيان لونغ في متابعة السجن الأدبي. بالنسبة لأولئك الذين يرفضون الانصياع أو لديهم شكوك مضادة واضحة، فإنهم سيعاقبون على جميع أنواع الجرائم. ولذلك، فإن عدد السجناء الأدبيين خلال عهد تشيان لونغ كان أبعد بكثير من كانغشي ويونغ تشنغ. عرف تشيان لونغ أن هناك العديد من المحتويات المضادة للشفقة في الكتب المنتشرة في القوم.

إذن كيف حذف من هذا المحتوى؟

حصل الإمبراطور تشيان لونغ أخيراً على الفكرة، أي جمع وفرز جميع الكتب قبل تشينغ، وإعادة تحرير ودمج سلسلة من الكتب تسمى «سيكو كوانشو»، وهذا لا يمكن أن يشجع فقط عدداً كبيراً من الأدباء، بل يُظهر أيضاً أن أسرة تشينغ تعلق أهمية على الثقافة، ويمكنها أيضاً معرفة محتويات المجموعات الشعبية التي لا تفضي إلى سلالة تشينغ، وإجراء المراجعة.

السبب في أن اسم «سيكو كوانشو» يرجع إلى أن الكتب قسمت إلى أربع فئات، وهي الكلاسيكية، والتاريخ، والسادة، والأدب المحض. وسيكو كوانشو يعني هذا التصنيف ويحتوي على جميع الكتب. في عام 1773، أنشأ الإمبراطور تشيان لونغ مكتبة سيكو كوانشو، حيث استدعى

جيوي، الذي كان بعيداً عن شينجيانغ، رئيساً للخصي، ونظّم الأدباء الموهوبين لبدء التحرير والانتهاء. جي يون، هو الاسم الشهير بالفم. موهبته رائعة، ويحظى بتقدير كبير من قبل الإمبراطور تشيان لونغ، لذا حمل هذه المرة بمسؤولية كبيرة.

من أجل إصلاح هذه السلسلة الضخمة من الكتب، أمر الإمبراطور تشيان لونغ المحافظات بجمع كل أنواع الكتب، من أجل تشجيع توزيع الكتب، وتطوير أسلوب المكافأة، وكلما زادت الكتب الخاصة، زادت المكافأة. بعد ذلك، والكتب في أماكن مختلفة تركز قريباً في بكين، بالإضافة إلى المجموعات الأصلية في المحكمة، فإن العدد كان كبيراً.

في عملية الإصلاح، أمر الإمبراطور تشيان لونج جي يون بفحص الكتب بعناية، أي شيء له آثار سلبية على أسرة تشينغ، تم تدميره بالكامل أو تحطيمه. حتى في أعمال سونغ، فإن النصوص ضد قوى الأقلية لياو وجين ويوان وغيرها من الجماعات العرقية سوف تذكر الناس بسلالة تشينغ التي أسسها مانوشوس، وأمر الإمبراطور تشيان لونغ بإزالة. قدر بعض الناس أنه أثناء إصلاح «سيكو كوانشو»، هناك أكثر من 3000 نوع من الكتب وأكثر من 700.000 مجلد التي تم حظرها، لا يزال هناك العديد من الكتب التي تم تلطيخها وتعديلها بحيث لا يمكن التعرف عليها أو عدم اكتمالها، والذي أصبح شديد الأسف في تاريخ الفكر والثقافة الصينية. ومع ذلك، لحسن الحظ، على الرغم من الكثير من اللطخة والمراجعة، فقد تم حفظ العديد من الكتب سراً، بحيث يمكن للعالم أن يرى المظهر الأصلي.

بعد عشر سنوات، في عام 1782، اكتمل الكتاب. يحتوي الكتاب على ما مجموعه 3.503 نوعاً و79، 337.375 من الكتب. من أجل تسهيل التفتيش، أمر أيضاً جي يون لتجميع «الملخص لسيكو كوانشو». كتاب «الملخص لسيكو كوانشو»، معلقاً على أعمال جميع السلالات في الماضي، إذا بحث بعناية، من البداية إلى النهاية، كان واضحاً ورائعاً.

ثم أمر الإمبراطور تشيان لونج بنسخة «سيكو كوانشو» ليكون سبعة ونشر إلى أنحاء البلد ومفتوحة للقراء في ذلك الوقت.

إن إصلاح سيكو كوانشو يستحق التقدير، بالإضافة إلى تعزيز الثقافة التقليدية والمساهمة في تنمية الثقافة الصينية، تم الحفاظ على العديد من الكتب القديمة. في أواخر السبعينات من عهد أسرة

تشينغ المتأخرة، إذا لم يكن هناك مثل هذا «سيكو كوانشو»، فمن المقدر أنه سيكون هناك المزيد من الكتب القديمة المتناثرة، مما يؤدي إلى خسائر لا يمكن إصلاحها.

172
قصة خو شين

هل كانت السلالة مدمرة بسبب أنها غير راضية؟

الأمر ليس كذلك.

على الرغم من أن السجن الأدبي يمكن أن يخلق جمهوراً محروقاً، إلا أنه يخلق فكرة محروقة. حيث السلالة بدأت في الانزلاق إلى الانخفاض في الفكر الواحد.

منذ أن خلف الإمبراطور تشيان لونغ، حقق إنجازات كبيرة في الحكم، والذي جلب تأسيس السلالة إلى ذروتها. لكنه مغمور في بلد السلام وغالباً ما يسافر إلى الخارج. عندما يخرج للعب، فضل مع خو شين، هو يتم ترتيب كل شيء على الطريق بشكل صحيح.

خو شين شخص ذكي وسيم عالم، لذلك فاز ثقة الإمبراطور تشيان لونغ. يقال إن مكانة خو شين مستمدة من الحوار. في يوم من الأيام، ذهب الإمبراطور تشيان لونغ للقيام بدوريات وقراءة الصحيفة في السيارة. عندما رأى عبارة «هناك شخص يريد أن يهرب»، اقتبس من خطاب في «كونفوشيوس» لإدانة هؤلاء القائمين بالرعاية. في ذلك الوقت، واجه حراس آخرون بعضهم البعض ولم يعرفوا معنى خطاب تشيان لونغ. فقط خو شين يمكن أن يفهم على الفور كلمات تشيان لونغ. وأوضح أن الإمبراطور قال إن الحراس يجب ألاّ يفلتوا من المسؤولية.

كان الإمبراطور تشيان لونغ سعيداً جداً لسماع هذا الكلام. منذ ذلك الحين، لقد أولت اهتماماً كبيراً بخو شين. كما أن ذكاء خو شين جعل تشيان لونغ يثق به أكثر فأكثر. كان يفضله تشيان لونغ، وفي أقل من عشر سنوات، تولى الحكم تدريجياً على السلطة.

بعد توليه السلطة، بدأ يتجاهل القانون، وينفذ الفساد، ويبحث عن المال دون عقاب. إنه جيد في معرفة فكر تشيان لونغ، حتى يتمكن من الحصول على رضا تشيان لونغ. بالنسبة لأولئك الذين لا يطيعونه، فهو ينظر إلى الفرصة لجذب غضب تشيان لونغ وتأطيرهم. بالنسبة لأولئك الذين يرشونه، فإنهم يتعمدون تأخير عمل الشخص إلى أن يتبدد غضب تشيان لونغ.

فهو لا يقبل فقط الرشاوى سراً، ولكن أيضاً في كثير من الأحيان يبتز بل وحتى الخطف. يجب أن تمر أي تحية للإمبراطور من خلاله أولاً، وسيبقى الشيء الذي يحبه، وإذا لم يعجبه، فسيرسله إلى الإمبراطور. لم يجرؤ أحد على اتهامه، فقد نما طمعه أكثر فأكثر.

يستخدم خو شين السلطة والاختلاس ويقبل الرشاوى ويعيش حياة مترفة. والأكثر من ذلك هو أنه غالباً ما يرتدي ثياباً لا يستطيع سوى الإمبراطور ارتداءها في الغرفة السرية، ويتمتع بنفسه في المرآة.

كان تشيان لونغ كإمبراطور لمدة ستين عاماً ونقلها إلى ولي العهد يونغ يان، المعروف أيضاً باسم إمبراطور جياكينج.

سمع الإمبراطور جياكينج عن خو شين في جشع القانون، لكن تشيان لونغ تقاعد للتو، وكان مفضلاً لخو شين، ولم يتمكن من إدانته على فور. لم يكن حتى وفاة تشيان لونغ أن النصب التذكاري لجريمة خو شين طار مثل الثلج. اتهم هو جين تانغ المقالات بخو شين، وأدرج الجرائم الكبرى العشرين فيه. كان هناك العديد من الأشياء التي لم يعرفها جيا تشينغ إمبراطور عن الفساد والرشوة. أمر جيا تشينغ الإمبراطور على الفور بالتوقيف والتشهير واستولى على ممتلكاته.

في البداية، كان خو شين يعتمد على الإمبراطور تشيان لونغ. عندما توفي الإمبراطور تشيان لونغ، كان يعرف أن جيا تشينغ شعر بالاشمئزاز منه وكان يفكر في كيفية الهروب. ولم يأت بعد مع خطة، وصل مرسوم الإمبراطور جيا تشينغ، وكان يعرف أن أيامه الأخيرة قد وصلت.

خو شين شخص غني، الجميع سمعها للتو، ولكن نتيجة لنسخ المنزل صدمت الجميع. في الواقع، اكتشف أن هناك ما يصل إلى 80000 من الذهب، وهناك حوالى 800 مليون من الفضة الاصطناعية. وخو شين في مكانه لمدة 20 عاماً فقط. في ذلك الوقت، كان الدخل السنوي لأسرة تشينغ 70 مليون يوان فقط، وللوصول إلى عدد خو شين، يجب أن يتراكم لأكثر من عشر سنوات.

في هذه المرحلة، قد يتساءل بعض الناس عن السبب في أن الدهاء من تشيان لونغ لماذا يتسامح مع مثل هذا الفساد؟

في الواقع، ما نحتاج إلى فهمه هو أن هذا ليس فقط فساد خو شين، بل هو فساد سلالة كينغ من الأعلى إلى الأسفل. هذا الفساد متجذر في حقيقة أن الإمبراطور تشيان لونغ أراد أن يفعل شيئاً كبيراً تجاهلاً للواقع في سنواته الأخيرة. في هذا الوقت، دفن حكام الإمبراطور تشيان لونغ الجذور الشريرة في جذور السلالة، وسرعان ما ينبتون، يتجهون، وينتجون أزهاراً شريرة.

على أي حال، انتهى حكم كانغشي وتشيان لونغ هكذا، والصين على وشك الدخول في العصر الجديد. إن موجات هذا العصر الجديد أكثر اضطراباً. وذلك الوقت، نهضت الدول الغربية. العالمان الناميان على وشك التصادم.

إذن، ماذا ستكون نتيجة هذه المواجهة؟ ودعونا نتحدث عن لين زيكسو، الذي أشعل نقطة التصادم.

173

حرق مخزونات الأفيون في ساحل هومين

قبل أن نحكي قصة لين زيكسو، دعونا نمضي قدماً إلى عام 1793، وهو ما كان ثماني وخمسين عاماً من حكم الإمبراطور تشيان لونغ.

في هذا العام، أرسلت الحكومة البريطانية فريقاً، انطلق من ميناء بورتسموث، جنوباً على طول ساحل أوروبا وأفريقيا، ودخل بحر الصين الجنوبي من خلال مضيق ملقا، لكنه هبط في تشوشان. وقاد هذا الفريق ماكارتني الذي كان يأمل في التفاوض مع سلالة تشينغ وفتح الباب الصيني المغلق.

لكن سرعان ما تحطمت آمالهم.

رفضت سلالة تشينغ بكل بساطة الشروط الستة التي اقترحتها للسماح لرجال الأعمال البريطانيين بالتجارة في نينغبو وتشوشان وتيانجين. في ذلك الوقت، كان الإمبراطور تشيان لونغ يأخذ استراحة صيفية في قصر ريه، وبالنسبة له، لم يكن ماكارتني وفريقه أكثر من مهمة رافدة من بعيد، كان فقط إضافة إلى بعض النكهات الغربية لمأدبة عيد ميلاده.

بهذه الطريقة، أضاعت الصين فرصة جيدة لمعرفة العالم وتغيير الدولة المغلقة. لكن الصينيون لا يهتمون بالتغييرات في العالم الغربي، كانوا منغمسين في أحلام السماوات، لذا لا تتقدم الصين.

بعد عودة إلى البلد، قال ماكارتني إن سلالة تشينغ كانت بالفعل مثل سفينة حربية من الدرجة الأولى. نعم، في المستقبل القريب، اندلعت حرب الأفيون الأولى، وكانت السفينة الفاسدة في سلالة

تشينغ أن تفتح الباب تحت هجوم السفينة الغربية، يعني الانفتاح القسري لهذه المرة فتح تاريخ من الإذلال للأمة الصينية لمائة عام.

بدأت حرب الأفيون الأولى من حرق الأفيون في ساحل هو مين تحت قيادة لين زيكسو. وبما أن بعثة ماكارتني لم تستطع فتح باب الصين، فقد اختاروا الأفيون. وبهذه الطريقة، استمر تدفق الأفيون المصنوع من الخشخاش الذي يمكن أن يحمل الأزهار الساحرة إلى الصين، وغمرت السوق الصينية في أواخر فترة حكم الإمبراطور جياجينغ، ومع تدفق الأفيون تدفقت الفضة الصينية إلى الخارج. في مواجهة هذا الوضع، اضطرت سلالة تشينغ المتدهورة إلى تفاقم الضرائب الثقيلة على الشعب، وكانت حياة الناس أكثر صعوبة.

في عام 1820، عندما توفي الإمبراطور، خلف ابنه الثاني، سوينينغ عن العرش، المعروف باسم الإمبراطور داوجوانغ.

بعد خلع داوجوانغ عن العرش، على الرغم من أنه لم يحقق أي إنجازات في السياسة والجيش، عين عدداً من الوزراء مثل لين زيكسو وهوانغ جوزي كرئيس ممنوع الأفيون. ونتيجة لذلك، قلت عمليات الشراء المكثفة لتجار الأفيون، وأصبح حرق الأفيون تحت قيادة لين زيكسو أكثر فعالية.

ولد لين زيكسو في هو جوان لمقاطعة فوجيان، وهو الآن فوتشو.

هو مرشح ناجح في الامتحانات الإمبراطورية العليا يبلغ من العمر 27 عاماً، وأصبح حاكماً رسمياً لهونان وهوبي، وهو معروف بكونه نزيهاً وصادقاً. عندما رأى أسرة تشينغ ينحط بسبب تدفق الأفيون، قام بعمل شاق وأعطى إمبراطور داوجوانغ مذكرة لحظر الأفيون. صرخ فيها: إذا لا يحظر الأفيون، فإنه سيؤدي إلى خواء الخزانة الوطنية، والجيش والشعب سيكونان ضعيفين، بعد أكثر من عشر سنوات، لن تكون قادرة على تحضير راتب الجندي، ولن يكون هناك جنود يمكنهم الدخول في المعركة. هذه الكلمات صادقة، أقنعت داوجوانغ حيث عينت لين زيكسو وزيراً إمبراطورياً وذهب إلى قوانغتشو لحظر الأفيون.

إن لين زيكسو مثقل بشدة وعزم على حظر الأفيون. بعد وصوله إلى قوانغتشو، حيث تم تهريب الأفيون، عاقب بشدة المسؤولين الفاسدين الذين يتغاضون عن التهريب، في الوقت نفسه،

صدر أوامر إلى تجار الأفيون البريطانيين بتسليم جميع الأفيون خلال مهلة زمنية، وإلا فسيتم معاقبتهم وفقاً لقانون أسرة تشينغ.

كان الصينيون سعداء عندما خرج الإشعار ولكن رجال الأعمال البريطانيين الذين يهربون الأفيون يشعرون بالقلق، لانسلوت دنت الذي حظي أكثر ربحاً في تهريب الأفيون وجد فوراً المشرف إليوت الذي أشرف على الأعمال البريطانية في تشينغ، مستعد للمساعدة. إن إليوت قام مراراً برشوة مسؤولين في أسرة تشينغ لحماية التجار البريطانيين، ويشعر بأن أسرة تشينغ فاسدة ويعتقد أن لين زيكسو مجرد خدعة.

قرر إليوت ولانسلوت دنت تسليم ألف صندوق لمداراة أسرة تشينغ.

ولكن قبل وصول لين زيكسو إلى قوانغتشو، لقد استقصى المعلومات الكافة عن تهريب الأفيون، وعرف أن لانسلوت دنت هو أكبر تجار الأفيون، إن ألف صندوق من الأفيون التي سلمها لم تكن سوى جزء صغير من كل الأفيون. أرسل لين زيكسو على الفور شخصاً لإرسال رسالة تحذير قاسية للسماح له بتسليم جميع الأفيون. بعد أن يقرأ الرسالة، كان لانسلوت دنت متوتراً جداً ووجد إليوت على الفور لمناقشة الحيلة. أخيراً دعا رجال الأعمال البريطانيين لمناقشة التدابير المضادة، لكن لديهم آراء مختلفة، وفي نهاية المطاف لم يتوصلوا إلى الاتفاق.

لم يسلم إليوت ولانسلوت دنت الأفيون، أرسل لين زيكسو أكثر من ألف جندي لإحاطة الشركة الأجنبية، وقطع إمدادات المياه والحبوب من الشركة الأجنبية والعالم الخارجي. في الوقت نفسه، أخذ شعب قوانغتشو الغاضب عفوية أسلحة مثل السيوف والبنادق للمشاركة في هذه المعركة.

وأخيراً أذعن إليوت ولانسلوت دنت وسلما أكثر من 20.000 صندوق من الأفيون.

بعد أن استلم لين زيكسو أكثر من 20.000 صندوق من الأفيون، قام فوراً بتوضيح الأخبار إلى داوجوانغ. عندما شاهد داوجوانغ التقرير، كان سعيداً جداً وأمر بمكافأة لين زيكسو كما أمره بتدمير الأفيون والسماح للناس بمشاهدته. في 3 يونيو 1839، كانت مدينة قوانغتشو هومين بحراً من الناس. كثير منهم بعد عرف الإشعار جاء لمشاهدة حرق الأفيون. كان لين زيكسو يجلس في وسط المدرجات ويحيط به الحكام الآخرون.

عندما حان الوقت، صاح لين زيكسو: بدأ حرق الأفيون.

قام الجنود على الفور بصب الأفيون والجير في الحفرة، ثم وضعوا ماء البحر فيها. كان الماء مغلياً والدخان مكثفاً والناس الذين يقفون حولهم يهتفون. لقد تم حرق الأفيون لأكثر من 20 يوماً. هكذا، نجح لين زيكسو في حرق الأفيون في هومين. ومع ذلك، على الرغم من نجاح حظر الأفيون، لم يتمكن لين زيكسو أن يهتم بالعالم الخارجي. كيف العالم الغربي في ذلك الوقت؟ كيف البلاد الغربية؟ ستهاجم الصين؟

مع هذه المشاكل، بدأ لين زيكسو يستكشف الوضع الخارجي. من أجل فهم التاريخ والوضع الحالي للدول الغربية، بعث لين زيكسو الناس إلى أنحاء الدولة لجمع وترجمة المواد الأجنبية خلال حظر التدخين في قوانغتشو. ومن الجدير بالذكر أنه قام بتنظيم مساعدين العمل لترجمة «موسوعة الجغرافيا» لهيو موراي البريطاني، وقام بتعديلها شخصياً وكتب كتاب «موسوعة الجغرافيا» للصين. بسبب هذه الممارسات، يدعى لين زيكسو أول شخص لاستكشاف العالم الجديد في الصين الحديث.

لكن، هل الأمر متأخر في هذا الوقت؟ إن حرب الأفيون سوف تثبت ذلك.

174

استشهد جوان تيانبي في هومين

قبل أن نتحدث عن حرب الأفيون، دعونا نفهم العوامل التي تحدد نتيجة الحرب.

في رأي صن وو (الاستراتيجي الصيني في العصر القديم)، هناك خمسة عوامل جديرة بالملاحظة.

كتب في الفصل الافتتاحي «فن الحرب»: الحرب هي حدث كبير في البلد، إنها مسألة الحياة والموت والبقاء، ويجب أن تؤخذ بجدية ودراسة متأنية، ولكن هل يمكننا الحكم على النتيجة من هذه الجوانب؟ ولكن ماذا يمكن أن يكون الحكم على الفوز والخسارة من هذه الجوانب؟

اقترح أن يجب التحليل والبحث من خمسة جوانب ثم توقع النتيجة. واحد هو تاو، والثاني هو السماء، والثالث هو الأرض، والرابع هو القائد، والخامس هو القانون. تاو يقصد أن الشعب والملك متحدان، السماء تقصد الين واليانغ، البرد والساخنة والربيع والصيف والخريف والشتاء. الأرض تقصد أن المساحة بعيدة أو قريبة والتضاريس الجغرافية شاهقة أو سهلة وساحة المعركة واسعة أو ضيقة. القائد يقصد ما إذا كان عاقلاً وصريحاً وصادقاً وشجاعاً وصارماً. القانون يقصد المؤسسة العسكرية، وتقسيم المسؤوليات، والإمدادات اللوجستية.

ومع ذلك، يمكننا ملاحظة أنه لم يذكر وضع السلاح. في الواقع، يمكن أن نفهم أنه في عصر الأسلحة الباردة، فإن الفجوة بين الأسلحة ليست كبيرة جداً، لذلك يمكن أساساً أن تتبنى هذه العوامل بشكل كامل. لكن عندما يتعلق الأمر بحرب الأفيون، كان الوضع مختلفاً لأن الفجوة بين الأسلحة كانت كبيرة بالفعل.

يستخدم الجيش في أسرة تشينغ الأسلحة الباردة والساخنة. الأسلحة الباردة تشتمل على السيوف والرماح والأقواس، الأسلحة الساخنة تشمل بندقية، وهي سلاح ناري هو من الغرب. لقد كان هذا وراء استخدام الأسلحة النارية من قبل الجيش البريطاني لأكثر من مائتي عام. بالإضافة إلى الأسلحة النارية، تختلف السفينة أيضاً. لا شك في أن سبب هذه الفجوات يرتبط بحالة عزل البلد من العالم الخارجي في أسرة تشينغ.

ماذا تعني هذه الفجوات؟ هذا يعني أن عند الشخصيان في الحرب، أحدهما لا يملك أي سلاح والآخر يستخدم الخنجر.

هذه هي تحليلات مفصلة للغاية في كتاب «انهيار المملكة السماوية» لماو هايجيان. إذا كنت مهتماً بها، يمكنك البحث عنه. ما نحتاج إلى معرفته هو أن حرب الأفيون تختلف عن المعارك المختلفة التي تحدثنا عنها من قبل. فقط من خلال معرفة هذه الأشياء يمكننا أن نفهم لماذا سيتم هزيمة جيش تشينغ في حرب الأفيون. بالطبع، يمكنك القول إن الأسلحة ليست سوى عامل في الهزيمة، ولكن كيف نرى العوامل الأخرى، مثل القادة؟ كانت أسرة تشينغ في ذلك الوقت فاسدة، بالرغم من وجود قائد بطولي، إلا أن المزيد من الجهلاء والجهل والضعف كانوا أكثر قدرة على التنافس مع بريطانيا.

الآن، دعنا نتحدث عن القائد البطولي، جوان تيانبي.

أدت حرب حرق الأفيون في هومين إلى إضعاف غطرسة تجار الأفيون البريطانيين، مما أدى إلى انخفاض حاد في ضريبة المملكة المتحدة.

في يونيو 1840، رئس إليوت البريطاني جيش حملة الشرق، واقتحموا مصب نهر اللؤلؤ في الصين، وأثاروا حرب الأفيون الأولى. أرسلت سلالة تشينغ تشى شان للتفاوض مع البريطانيين. تنازل تشى شان عن الشروط الكثيرة ولكن لا يقبل البريطانيون. عندما رأى الإمبراطور داوجوانغ الظروف القاسية أصبحت سوءاً شيئاً فشيئاً، قرر بدء الحرب. وأرسل وزير الولي، لوشان كجنرال، لونغ ون ويانغ فانغ كالمستشارين وقادوا القوات إلى قوانغدونغ.

في 25 فبراير 1841، اندلعت معركة هومين بين الصين وبريطانيا. قبل ذلك، كان الجيش البريطاني قد استولى على معقل داشاجيا وشاجيا، هو باب أول لهومين، كان موقفه شديداً للغاية.

هاجم الجيش البريطاني بسرعة معقل تشن يوان وييوان. وكان جوان تيانبي يحرس هذا المكان.

غوان تيانبي هو مواطن من محافظة شانيانغ لمقاطعة جيانغسو، والآن تسمى مدينة هوايان بمقاطعة جيانغسو. خلال فترة عمله كأمير من البحرية داتشينغ في قوانغدونغ، وهو أيد لين زيكسو تماماً في حرق الأفيون في هومين. هو شخص صادق وجيد في قيادة الجيش، يعرف أنه ليس هناك الكثير من قذائف في هومين وأن القوات ليست كافية، حيث من المستحيل أن يحمي المعقل، لذلك، كان يقرر أن يتعايش مع هومين.

مصمماً على اتخاذ قرار، كتب الرسالة إلى الأم المسنة. الرسالة محزنة للغاية، قال فيها إن البلاد في المرحلة الصعبة، حان الوقت حمايتها، ويأمل أن أمه تفهم، حيث لا تشتاق إليه. بعد كتابة الرسالة، استدعى جميع المحاربين في المعقل، أقسموا عدم ترك المعقل لنصف خطوة.

رتب جوان تيانبي بشكل جيد، وانتظر الجيش البريطاني. في هذا الوقت، جاء بعض الكشاف للإبلاغ عن وجود عدة بقع سوداء في البحر، والتي قُدرت بأنها سفينة حربية بريطانية. أمر غوان تيانبي على الفور جميع الجنود بالاستعداد للمعركة، وقاموا بتركيب القذائف وأشاروا إلى السفينة البريطانية.

لم يضع الجيش البريطاني معقل تشن يوان ومعقل وييوان في أعينهم. أمر القائد جورج من ثلاثة جهات بإحاطة معقل تشن يوان ومعقل وييوان في محاولة تدمير قلعة هومين في ضربة واحدة. على الرغم من أن الجيش البريطاني لديه الكثير من الناس والذخيرة وفيرة، لم يكن غوان تيانبي يخشى وقاد الجنود للمجاهدة. ولكن أصبحت القذيفة قليلاً...

تقترب السفينة البريطانية، وقد قفزت العشرات من القوات البريطانية إلى المعقل. كان الوضع في خطر، وصاح غوان تيانبي بصوت عال: أيها الجنود، الوقت المناسب لنا لخدمة البلاد هنا. رد الجنود بصوت عال. الصوت شديد لدرجة أنه يبدو أن ماء البحر يغلي. لذا تسلحوا بأسلحة وبدأوا معركة مع البريطانيين. في أصوات القتل المروعة، قاتل جيش تشينغ بشجاعة لقتل العدو. ولكن عددهم قليل جداً لا يمكنهم التعامل بسرعة. كما عندما سقط جندي بريطاني واحد، تجمهر أكثر من 12 جندياً بريطانياً.

وقاد جوان تيانبي الجنود ليحاربوا العدو، ووصلت الجروح على جسده إلى أكثر من عشرة أماكن، وسقطت الدماء، أصبحت ملابسه حمراء.

ورأى جوان تانبى أن المعقل سوف تتورط في اليد البريطانية، أرسل متابعته صن تشانغ تشينغ لإرسال ختمه إلى قوانغتشو، معتبراً أنه سيعيش مع هومين. لم يستطع صن تشانغ تشينغ أن يتحرك، هرع جوان تيانبي بسكين وتنهد: لقد فشلت في سداد نعمة الإمبراطور وفشلت في دعم أمي، وهذا هو استيائي، فبعد عودتك، أرجوك تخبر زوجتي ودعها تستبدلني لعيالة أمي، ثم سأموت بلا ندم.

بعد ذلك، هرع جوان تانبى إلى الجيش البريطاني وسقط في النهاية مع الندوب واستشهد، سقط معقل تشن يوان وييوان في أيدي البريطانيين. ويقال إن السفينة البريطانية أطلقت التحية عندما أخذت عائلة جوان تانبى جثته لإظهار الاحترام لشعب البلد. في اليوم الذي دفن فيه، كان مئات الناس يرتدون ملابس بيضاء، وبعض المتفرجين انفجروا بالدموع.

175
معاهدة نانجينغ

بعد غوان تيانبي، لم يتمكن يانغ فانغ ولوشان من مقاومة الجيش البريطاني. في النهاية، اضطر لوشان للتوقيع على «اتفاقية هدنة قوانغتشو» ودفع رسوم استرداد ستة ملايين يوان للجيش البريطاني. فإن المملكة المتحدة غير راضية عن مثل هذا الانتصار. في 30 أبريل 1841، قرر مجلس الوزراء البريطاني استدعاء إليوت وإعادة إرسال بوتينجر لمواصلة الغزو.

قدم الجيش البريطاني شمالاً على طول الساحل الجنوبي الشرقي واستولى على شيامن، وسرعان ما استولى على تينخاي وتشينهاي ونينغبو.

وجاءت الأخبار السيئة في ساحة المعركة واحدة تلو الأخرى، وعين الإمبراطور دوغوانغ ابن أخيه ين جينغ على عجل ليذهب إلى تشجيانغ للإشراف على الحرب كالجنرال يانغ وي، وعين نيو جيان كحاكم للقتال معاً. نيو جيان هو الشرير الذي يعتمد على التكهنات للحصول على المكانة. من أجل تلبية ين جينغ الطمع، بحث نيو جيان عن المال والجمال في جميع أنحاء الطريق إلى تشجيانغ. اشتكى الأقوام من هذا. بعد الوقت الطويل من التسلي، تذكر المهمة التي كلفه بها الإمبراطور.

لكنه لم يكن يعرف كيف يقود الجيش. قبل الحرب، لا الكشف عن وضع العدو أو التعرف على التضاريس، قد قسم جنوده على ثلاث طرق ليهاجموا مدن دينغهاي وتشنهاي ونينغبوه. حافظ على نفسه بعيداً عن خط المواجهة في المعركة واستمتع بوقته طوال اليوم. بشكل غير متوقع، جاءت أنباء الهزيمة واحداً تلو الآخر، حيث تعرض تشنغ غوهونغ، الذي هاجم دينغاي، لإعصار في الطريق، وكان فقدان السفينة خطيراً وكان عليه العودة دون نجاح. دوان يونغفو وتشانغ يينغ يون، الذين هاجموا نينغبو، كافحوا للقتال، لكنهم هزموا وخسروا. أما وين وي، المسؤول عن مهاجمة

تشنهاي، فقد خرجت المسيرة في منتصف الطريق ولم تجرؤ على المضي قدماً، وأمر نائب الجنرال تشو تشاوجوي بقيادة بعض القوات لمهاجمة تشنهاي. ونتيجة لذلك، قام تشو تشاو قو والجيش البريطاني بالحرب الدموية ليلاً ونهاراً، ووجد وين وي طلباً للمساعدة. ولكن بعد سمع الأخبار لم يبعث الجنود، مما جعل تشو تشاو جي يضحي. كما ين جينغ لا يمكن أن تقاوم الجيش البريطاني. يتبع الجيش البريطاني على الفور الشمال للقبض على وو هاو، بالقرب من تشنجيانغ.

بعدما عرف الجنرال هلير الذي قام بحراسة تشنجيانغ هذا الأمر، قرر إغلاق المدينة، وأمر بأن يتم حظر القناة من الملاحة، وأعد سكان المدينة بالهجرة إلى الداخل، وإضافة البنادق للحماية من الليل والنهار.

في 21 يوليو 1842، هبط الجيش البريطاني على المدينة.

على الرغم من أن ين جينغ لم يرغب في إرسال جندي لإنقاذ، إلا أن هلير قاد الجيش للقتال بقوة. لقد قاوم الصينيون الجيش البريطاني بعناد، ومن الصعب اختراق المدينة، وفي النهاية، كان من الضروري تنظيم 300 بحار لتشكيل أسطول، الدخول بالقوة وتفجير البوابة الغربية بالمتفجرات.

كان القتال شديداً جداً، وأصيب هلير بجرح خطير. ولكنه قاد الجيش في الحرب لفترة طويلة. في النهاية، وقعت تشنجيانغ في أيدي الجيش البريطاني. في مواجهة هذه الهزيمة، اختار هيلر أن يحرق نفسه.

إن خسارة تشنجيانغ تعني أن حرب الأفيون تقترب من نهايتها.

عندما اقتربت السفينة البريطانية إلى شاوجوان لمقاطعة نانجينغ، أدرك الإمبراطور داوجوانغ أنه غير قادر على المقاومة، حيث أرسل كيينغ وإيليبو للمناقشة. على السفن الحربية البريطانية، وقعت بوتينجر بريطاني وكيينغ وإيليبو ممثلي الصين «معاهدة نانجينغ» التي أدت خسارة السلطة وإهانة البلاد. هذه هي أول معاهدة غير متكافئة في التاريخ الصيني. فيها البنود عن قطع الأراضي والتعويض وفتح الموانئ التجارية والتعريفات التفضيلية وغيرها كلها تضر بمصالح الصين.

هذا اليوم يوم مشين في التاريخ الصيني: 29 أغسطس 1842.

بعد توقيع معاهدة، انتهت حرب الأفيون الأولى. الآن، دعونا نعود ونذكر ببساطة لين زيكسو. قبل السنة، من أجل استرضاء الجيش البريطاني، كان الإمبراطور داوجوانغ حرم لين زيكسو من مهنته ووزعه على شينجيانغ. فقط في تشنجيانغ، التقى لين زيكسو وي يوان، وهو صديق الذي جاء لاستئذانه لهذا الالتقاء، ويوي يوان لديه مشاعر مختلطة، ولكن ماذا يمكن أن يقول؟ لقد التقيا بدون كلمات، لكن القلب كان مليئاً بالقلق من الوضع. بمناسبة مغادرته، سلم لين زيكسو مخطوطة «موسوعة الجغرافيا»، التي ترجمها الموظفون خلال إقامته في قوانغتشو، إلى وي يوان، وطلب منه مواصلة جمع المعلومات وكتابة كتاب من شأنه أن يجعل الشعب الصيني ينظر إلى العالم.

تولى وي يوان المهنة. وفي وقت لاحق، جمع معلومات من مصادر مختلفة وكتب كتاباً بعنوان «سجلات وخرائط العالم» بعد عام واحد. الطبعة الأولى من هذا الكتاب هو خمسين مجلداً، وقد نُقش في يانغتشو في يناير 1843. ومع ذلك، لم يجذب انتباه الشعب الصيني بعد نشره. مقارنة بالصمت في البلاد، عبر هذا الكتاب المحيط ودخل اليابان، تسببت في استجابة هائلة.

في ذلك الوقت، كانت اليابان في تنفيذ استعادة ميجي. عندما رأى كبار المسؤولين في «سجلات وخرائط العالم»، فهموا على الفور الأهمية العظيمة الواردة فيه، لذلك نظموا الترجمة وأصدروها. في هذا الكتاب طرح وي يوان وجهات نظره الخاصة حول التعامل مع الغزوات الغربية وأثر على اتجاه التاريخ.

كيف هزم الجيش البريطاني؟ اعتقد وي يوان أن الصينيين احتذوا الغرب فقط، وصنعوا السفن، والقطارات، والآلات، والبنادق، وبعد ذلك يمكنهم تجاوز الغرب وإلحاق الهزيمة بهم.

176

أنشأ هونغ شيو تشيوان مملكة تاي بينج السماوية

في ذلك الوقت، لم تكن سلالة تشينغ مضطرة للتعامل مع المتاعب الخارجية فحسب، بل كانت لها أيضاً مخاوف داخلية.

فقط في ربيع نشر «سجلات وخرائط العالم»، ذهب أحد الباحثين إلى قوانغتشو للمشاركة في اختبار السلالة وفشل وهو سقط في اليأس. في الواقع، عندما فشل في الامتحان المدني الإمبراطوري في قوانغتشو للمرة الثالثة في عام 1837، تم تحفيزه بشكل كبير. بعد عودته إلى المنزل، كان طريح الفراش لأكثر من أربعين يوماً. هذه المرة، هل هذا الامتحان الإمبراطوري لن ينجح أبداً؟ جاهد في الغرفة الباردة لستة عشر ربيعاً وخريفاً، هل هذه الفترة هي الفقاعة؟

كان الباحث غير راغب إلى حد ما وغير راضٍ نوعاً ما. هو استاء من ظلام الامتحان واستاء من الفساد في سلالة تشينغ. بما أن مجال العلوم لا يمكن أن يمر، أراد أن يبدع الطريق الأكبر. في القارب الذي عاد إلى المنزل، كان لديه الكثير من الأفكار ولم يكن بوسعه إلا أن يذكر قصيدة. في القصيدة، يقارن نفسه بالتنين. في شهر يونيو من هذا العام، أسس عبادة الله، متجاهلاً أقراص كونفوشيوس في المدرسة الخاصة، وشرع بعزم على طريق مكافحة تشينغ.

تم تسمية الباحث هونغ رينكون ثم أعاد تسميته هونغ شيو تشيوان، فهل سينجح في هذا الطريق؟

هونغ شيو تشيوان ولد في محافظة هوا بمقاطعة قوانغدونغ، درس بجد منذ طفولته وأراد أن يجلب الشرف لعائلته، لكنه حاول مراراً وتكراراً ولكن فشل أخيراً. رأى ظلمة السلالة، فرجع إلى

مسقط رأسه وأسس عبادة الله. في السنوات القليلة الماضية، ارتفع عدد الناس إلى عشرات الآلاف في قوانغشي، من بينها، يانغ شيوكنج، شياو شاوجوي، ووي تشانغي، وشي داكاي وغيرهم.

ومع دخول المزيد من الناس إلى المذهب، تزداد قوة عبادة الله. بعد تسع سنوات من توقيع «معاهدة نانجينغ»، أي في عام 1851، توفي داو غوانغدي. كانت خلافة الإمبراطور سيزي للعرش للإمبراطور شيان فنغ. في الحادي عشر من يناير من هذا العام، أي عيد الميلاد الـ 38 لهونغ شيو تشيوان، قام بانتفاضة جينتيان في محافظة جويبينج، قوانغشي، هي مملكة تاي بينج السماوية. عرف الإمبراطور هذا الأمر، هو غاضب جداً، قام على الفور بتعيين ساي شانغا كمدرب رئيسي وقاد أربعة آلاف جندي إلى حملات التطويق والإبادة. في ذلك الوقت، كان هونغ شيو تشيوان قد استولى على ولاية يونغ آن. هنا، وادعى أنه كان ملك السماء، وكان عين يانغ شيوكنج الملك الشرقي، شياو شاوجوي كملك الغرب، فنغ يون شان كالملك الجنوبي، ووي تشانغي هو الملك الشمالي، وشي داكاي هو الملك ين. بعد قليل من الراحة، اجتاح جيش تايبينج الشمال والتقى بجيش تشينغ بقيادة ساي شانغا في قويلين. على الرغم من فقدان فنغ يونشان وغيرهم من الجنرالات، ولكن معنويات الجيش تايبينغ عالية، مهاجمة مقاطعة كثيرة على طول الطريق، فإن الوضع هو مثل كسر الخيزران. في الشهر الأول عند ثالث سنة من شيان فنغ، أي عام 1853، بلغ جيش تايبينغ إلى نانجينغ.

للتغلب على نانجينغ، ناقش هونغ شيو تشيوان ويانغ شيوكنج التدابير المضادة. قال يانغ شيو تشينغ: إن لو جيان وي، الذي يحرس نانجينغ، مهملة لدفاع، يمكننا إرسال أشخاص لحفر ممر خارج المدينة إلى أسفل جدار المدينة، واستخدام البارود لتفجير الفجوة، ومن ثم يمكننا مهاجمة المدينة. وافق هونغ شيو تشيوان.

لذلك، في 10 فبراير، استخدم هونغ شيو تشيوان خطة يانغ شيوى تشينغ لمهاجمة مدينة نانجينغ، وناجحة. وفي 22 مارس، قام جيش تاي بينج بمرافقة الملك السماوي هونغ شيو تشيوان إلى نانجينغ. بعد دخوله إلى المدينة، أعلن هونغ شيو تشيوان أن نانجينغ أعيدت تسميته إلى تيانجينغ، كما كانت عاصمة مملكة تايبينج السماوية. في الشتاء من هذا العام، أصدر هونغ شيو تشيوان «نظام الأرض للمملكة السماوية»، كان من المقرر توزيع الأراضي والممتلكات الأخرى بالتساوي، وتعزيز المساواة بين الجنسين وحظر الزواج من أجل تحقيق مكاسب مالية.

ومع ذلك، بعد دخول مدينة نانجينغ، تغير هونغ شيو تشيوان، وبدأ يفكر بجد وانغمس في الحياة الفاخرة.

بناء على اقتراح من يانغ شيو تشينغ، قام ببناء قصر الملك السماوي، كما قام ببناء قصر الملك الشرقي وقصر الملك ين وغيرهم. قصر الملك فاخر جداً، محاط بأكثر من عشرة أميال، القصر كما رائع، أكثر جمالاً من الإمبراطور القديم. أما بالنسبة للملابس والأحذية والسيدان، فهي فاخرة للغاية. في نفس الوقت، وضع هونغ شيو تشيوان ويانغ شيو تشينغ على مجموعة من النظام الاحتفالي، على سبيل المثال، عندما رأى الإنسان الملك، يجب أن ينحني وصاح وآنس (عش أكثر من 10.000 سنة)، عندما رأى الملك الشرقي، صاح بشيتوس (عش أكثر من ألف سنة). عندما يسافر الملوك، يجب أن ينتظر الآخرون لتجنب جانب الطريق ويصرخون وآنس أو بشيتوس.

في هذا الوقت، كان في العاشرة من عمره من الفشل الرابع عن الامتحان في قوانغتشو.

علم الإمبراطور شيان فنغ أن مملكة تاي بينج السماوية قامت ببناء عاصمة نانجينغ، وكان غاضباً للغاية، وأرسل على الفور شيانغ رونغ الذي قاد القوات إلى نانجينغ. كان شيانغ رونغ محتجزاً في مدينة شياو لينغ شرقي بمدينة نانجينغ، ويسمى معسكر جيانغنان. وفي وقت لاحق، قاد تشي شان فريقاً من الجنود والخيول إلى يانغتشو، والمعروفة باسم معسكر جيانغبي داي، وشكل المعسكران حصاراً لنانجينغ. لكن جيش تشينغ في ذلك الوقت كان فاسداً، من الصعب عليهم إكمال مهمة مهاجمة جيش تايبينغ. على الرغم من أن قوة جيش تشينغ ليست كافية، إلا أن جنرالات مملكة تايبينغ السماوية هم أيضاً منغمسون في أحلام الثروة والأحلام، وهم ليسوا على دراية بالمخاطر القادمة. لم يدركوا أبداً أن مملكة تايبينج السماوية في عاصفة الانهيار.

إذن من يستطيع إنهاء هذا الوضع؟

اسمه تسنغ جوفان.

في عام 1853، في العام الذي بنت فيه مملكة تايبينج السماوية عاصمة نانجينغ، عاد تسنغ غوفان، الذي كان وزيراً في وزارة الطقوس، إلى شيانغشيانغ لمقاطعة هونان لأن والدته توفيت. بعد ذلك، حصل على الأمر وقرر تشكيل جيش جديد، هذا هو جيش شيانغ.

177

قمع تسنغ جوفان

مملكة تايبينج السماوية

في عام 1864، تم احتلال تيانجينغ، وفشلت حركة مملكة تايبينج السماوية التي دامت 13 عاماً. كان جيش شيانغ هو الذي أسسه تسنغ غوفان هاجم تيانجينغ. دعنا نرجع إلى قبل أحد عشرة سنة. في ذلك العام، تم تعيين نانجينغ كعاصمة مملكة تايبينج السماوية. كان جيش تشينغ ضعيفاً جداً، لا يستطيع أن يهاجم جيش المملكة تايبينج السماوية، تمركز خارج المدينة. في هذه اللحظة الحرجة، طلب الإمبراطور شيان فنغ من المسؤولين المحليين الإشراف على الفوج لمقاومة جيش تايبينغ. مع أخذ هذا الأمر كنقطة انطلاق، أصبح تسنغ جوفان العضو الشهير في عهد أسرة تشينغ.

كان زنغ غوفان من مواطني شيانغشيانغ لمقاطعة هونان، وخلال فترة دوغوانغ، فاز في امتحان الإمبراطور بالمركز الثالث في البلاد وكان مسؤولاً في وزارة الشعائر. في بداية عام 1853، توفي من وفاة والدته وعاد إلى مسقط رأسه ليحد أمه. بعد فترة وجيزة من تلقي أمر شيان فنغ الإمبراطور، لهذا الأمر، كان تسنغ جوفان متردداً. في ذلك الوقت، شعر بأن جنازة الأم كانت سهلة للغاية، لذلك كانت هناك فكرة أخرى عن إيجاد مكان يدفن فيه، وكانت هناك أشياء كثيرة في العائلة. لذلك، سوف يقدم استقالته إلى المحكمة، ويريد أن يقضي ثلاث سنوات من الحداد. لكن صديقه قوه يان نصح: لطالما كان لديك الطموح لتقديم مساهمة، والآن أنت لا تعمل في البلد، متى ستعمل في البلد؟ ما هو أكثر من ذلك، في العصور القديمة، كانت هناك مثالاً للبلاد أن يكون أكبر أهمية من العائلة. نتيجة لذلك، دمر تسنغ جوفان ما تم كتابته وذهب إلى تشانغشا من مسقط رأسه. وفي وقت لاحق، اتبع زنغ غوفان طريق تدريب جي جي قوانغ للجيش وأسس جيشاً جديداً.

يتكون هذا الجيش من شعب هونان، ويشار إلى هونان باسم شيانغ، لذلك يطلق عليه جيش شيانغ.

على الرغم من أن زينج جوفان باحث ضعيف، فهو صارم بشكل خاص في تدريب الجنود. بعد العمل الشاق، وصل معسكر البر ومعسكر المياه لجيش شيانغ إلى أكثر من 17000 في السنة.. في يونيو 1853، أرسل جيش تايبينغ القوات إلى الغرب، من الصعب لجيش تشينغ أن يقاوم جيش تايبينغ. ولذلك، أمرت محكمة تشينغ تسنغ جوفان بقيادة تعزيزات. ومع ذلك، يعتقد تسنغ جوفان أن التدريب لم يكتمل، وأنه لم يكن كافياً لمقاومة جيش تايبينغ ولم ترسل القوات. حتى نهاية عام 1853، استولى جيش تايبينغ على هوانغتشو لمقاطعة هوبي، ورأى تسنغ جوفان أن جيش شيانغ أقوى وقرر إرسال الجيش. في الشهر الأول من العام التالي، قاد تسنغ جوفان قواته من هنغزهو، في ذلك الوقت، كان لديه بالفعل 280 سفينة حربية و10 أقسام تابعة للبحرية. اتبعت هذه القوات أنهر شيانغجيانغ وكانت قوية جداً.

أصبح جيش شيانغ العدو الرئيسي لجيش تايبينغ.

على الرغم من أن جيش شيانغ يختلف عن جيش تشينغ، إلا أنه غالباً ما هزمه جيش تايبينغ. في أبريل من عام 1854، أباد جيش تايبينج بشكل كامل تقريباً جيش شيانغ بالقرب من تشانغشا، وألقي تسنغ جوفان في الماء للعثور على الموت، وتم إنقاذه من قبل الوفد المرافق له. في حالة اليأس، اضطر تسنغ جوفان إلى إعادة بناء السفينة الحربية وحارب مع جيش تايبينغ مرة أخرى.

في يناير 1855، قاد شي داكاي القوات لدعم جيش تايبينغ في البعثة الغربية، هزم جيش شيانغ. حزن وغضب تسنغ جوفان، كان ألقى بنفسه مرة أخرى في الماء، وبعد أن أنقذ، قاد الجنود المتبقين وفر إلى مدينة نانتشانغ. على الرغم من أن المعركة قد هُزِمَت، إلا أن تسنغ جوفان دون تنازلات.

في هذا الوقت، اندلع الصراع الداخلي في جيش تايبينغ.

في عام 1856، اضطر ملك الشرقي يانغ شيوكنج هونغ شيو تشيوان لختم نفسه كإمبراطور آخر. وعد هونغ شيو تشيوان على السطح، ولكن في الواقع، أمر وي تشانغهوي لإعادة إلى تيانجينغ. بعد استلام الأمر، قاد وي تشانغيوي 3000 شخص للعودة إلى مدينة تيانجين في منتصف الليل، وحاصر قصر الملك الشرقي، وقتل يانغ شيو تشينغ وعشرات الآلاف من الناس. بعد ذلك، كان ويي تشانجهوي فخوراً بنفسه، وكان بإمكان هونغ شيو تشيوان فقط أن يقتله من أجل إرضاء

الجميع. بعد قتل ويي تشانجهوي، أمر هونغ شيو تشيوان شي داكاي لدخول تيانجينغ لمساعدته في السياسة. ومع ذلك، بعد أن وصل شي داكاي، استهزأ به هونغ شيو تشيوان وقام عمداً بقمعه. ونتيجة لذلك، غادر شي داكاي بقيادة جيش النخبة البالغ عددهم 100.000 إلى الجنوب الغربي، وفي النهاية تم القضاء عليه من قبل جيش تشينغ.

التغيير في تيانجينغ قلب الوضع، منذ ذلك الحين، بدأ جيش شيانغ في كسب اليد العليا. في عام 1961، استولى جيس تسنغ جوفان على أنشينغ وفتح البوابة إلى تيانجينغ. وفي وقت لاحق، أرسل قوات إلى الطريق الثالث، يحاصر تيانجينغ. في هذا الوقت، أصبحت شكوك هونغ شيو تشيوان أثقل وأثقل. إلى جانب الحياة الباهظة في الماضي، لم يتمكن في النهاية من تحمل المرض في حريق الجنود خارج المدينة. في 1 يونيو 1864، توفي في تيانجينغ، وكان عمره 50 سنة.

تيانجينغ في الوضع الخطير.

توفي هونغ شيو تشيوان، ووقع عبء حراسة تيانجينغ على لي شيوشينغ وهونغ رنشى. ولكن سرعان ما حفر جيش تشينغ نفقاً إلى المدينة تحت المدينة وقام بتفجير البوابة. في يوليو 1864، هاجم جيش شيانغ تيانجينغ. على الرغم من أن جيش تايبينغ قاتل بشجاعة مع جيش تشينغ، كان من الصعب استعادة الهزيمة.

وبهذه الطريقة، وصلت حركة مملكة تايبينغ السماوية إلى نهايتها. بدأت الانتفاضة في انتفاضة جنتيان 1851 وانتهت في نانجينغ في عام 1864. لمدة ثلاثة عشر عاماً، تعرضت لهجوم شديد من قبل أسرة تشينغ. بعد أن قام تسنغ جوفان بتشكيل جيش شيانغ وأنقذ أسرة تشينغ، اختار أن يتراجع ويسرح عن جيش شيانغ البالغ عدد أعضائه 120.000 فرد. ومع ذلك، بعد هذه المعركة، وصلت سمعة تسنغ جوفان ذروتها. ومع ذلك، فإن عصر تسنغ غوفان على وشك الانتهاء، ينتمي الحقبة المقبلة لوزير عظيم خرج من فريقه: لي هونغ تشانغ.

178
صدرت الإمبراطورة الارملة تسيشي
الأوامر من خلف الستار

خلال حركة مملكة تايبينغ السماوية، ظهرت امرأة الطائفة السياسية لأسرة تشينغ المتأخرة وكانت على وشك أن تبدأ نصف قرن من الحكم.

عندما كان الإمبراطور شيان فنغ في منصبه، لم يكن هناك معرفة أدبية وعسكرية، لكنه كان مهتماً جداً بالجمال.

لديه زوجة محبوبة تدعى لانر، اسم عائلتها يه نارا.

ما لم يفكر فيه أن يه نارا هي تدفع أسرة تشينغ إلى الهلاك. قبيلة يه هي قبيلة تم تدمير جنودها بجيش تشينغ. يقال إن زعيم قبيلة يه، بويانغ جو، لعن قبل نهاية الموت، قائلاً إنه حتى لو لم يتبق سوى امرأة واحدة في يه، فإنه من الضروري تخريب منشوريا. ولذلك، أقام تايتزونغ (أحد الإمبراطور لأسرة تشينغ) نظاماً، ولم يُسمح للإمبراطور باختيار امرأة اسم عائلتها يه لدخول القصر. ومع وقت المرور، لا أحد يهتم بهذا تدريب الأجداد.

من أجل الاقتراب من إمبراطور شيان فنغ، درست وغنت لانر جيانغنان تونز بشكل خاص، وقد فتنت الأغنية الإمبراطور شيان فنغ وتتبع الصوت، جذب جمالها شيان فنغ.

لانر ذكية جداً، يمكن أن تفهم عقل الإمبراطور شيان فنغ، لذلك فهي محبوبة للغاية. قريباً، أنجبت ولد للإمبراطور، ومختومة باعتبارها نبيلة. كانت الملكة بسيطة ولطيفة، وتولت لانر الاهتمام لقلبها من أجل إرضائها. حتى عندما كانت الملكة تعاني من مرض خطير، قامت لانر في

الواقع بقطع اللحم على ذراعها اليسرى كدواء. هذا لا يسعه إلا أن يجعل الملكة متأثرة للغاية، فبعد أن تتعافى، أصبحت أقرب إلى لانر، والعديد من الأشياء على استعداد للسماح لها بأن تكون سيدها.

في عام 1860، أثارت القوات البريطانية والفرنسية حرب الأفيون الثانية، حيث استولوا على تيانجين وذهبوا مباشرة إلى بكين. عندما سمع الإمبراطور شيان فنغ الأخبار، غادر على الفور. وبقى أخوه الأصغر، الأمير غونغ يونغ تشنغ، تفاوض مع قوات التحالف البريطانية والفرنسية. في 22 أغسطس 1861، توفي شيان فنغ في منتجع صيفي لتشنغده.

وخلف الأمير البالغ من العمر ست سنوات العرش. تم تكريم لانر كالإمبراطورة الأرملة تسيشي كأم الولادة، وكانت الملكة تسمى الإمبراطورة الأرملة سيان. نتيجة لعمره الصغير، عين لإمبراطور شيان فنغ قبل وفاته ثمانية أشخاص، بما في ذلك سوشون، دوانهوا، جينغشو وزيو يو، كوزراء، وساعدوا السيد الشاب.

هذا جعل استياء الأمير غونغ.

الموهبة الأدبية لأمير غونغ في الواقع أفضل بكثير من إمبراطور شيان فنغ. في البداية، كان داوجوانغ متردداً عندما اختار وريث العرش في سنواته الأخيرة. تزامن مع الصيد في نانيوان، وتبعه جميع الأبناء. من بينها، كان الأمير غونغ بطولياً وحاسماً، وحصل على أكبر فريسة أثناء الصيد. ومع ذلك، لم يكن الإمبراطور شيان فنغ مطلقاً يسقط سهماً ويصطاد شيئاً.

كان الإمبراطور دوجوانغ غريب بعض الشيء، لذلك سألته لماذا؟

أجاب الإمبراطور شيان فنغ: كان وقت الربيع، بدأت الطيور والحيوانات تتكاثر، وأنا لا أريد أن أقتل وأذى.

بعد الاستماع إليه، شعر الإمبراطور دوجوانغ بشعور في قلبه وفكر أن شيان فنغ كان لديه قلب من الحب وكان إمبراطوراً حقيقياً. في الواقع، يتم تدريس جميع كلمات شيان فنغ من قبل الوزير دو فوتيان. علم أمير غونغ هذا الأمر، حيث يجعل شيان فنغ خوفاً من أنه سيستولي على المنصب. لذلك، قبل وفاته، لم يكن مشمولاً في الوزراء.

في ذلك الوقت، كانت الإمبراطورة الأرملة تسيشي تبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً، وكانت في سن شبابية، ولم تكن راغبة في دفنها في القصر العميق بطريقة بسيطة، وكانت تريد كسب المزيد من السلطة. ومع ذلك، في الطريق إلى السلطة، ليس هناك شك في أن الوزراء الثمانية هم حجر عثرة. كيفية تحريكه؟

ذكرت يونغ تشنغ في ذلك الوقت، بقي يونغ تشنغ في بكين للتفاوض مع الأجانب، وكان لديه صلاحيات معينة في يديه. بعد التفكير العميق، اعتقدت تسيشي أن يونغ تشنغ وحده هو الذي يستطيع كبح جماح الوزراء الثمانية.

لكن كيف يمكنها الاتصال بيونغ تشنغ؟

ذهبت إلى تشنغده للعثور على يونغ تشنغ كان في الحداد، وتفاوضت سراً، وأطلقت انقلاباً. ومع ذلك، لم يلاحظ سوشون وآخرون ذلك، فهم يعتقدون أن تسيشي مجرد جيل من النساء، لذا فهم لم يبدوا الكثير من الاهتمام.

بعد عودة الأمير غونغ إلى بكين، حصل بالسيطرة على القوة العسكرية وتم تصميم الفخوخ.

في 26 أكتوبر 1861، نُقلت جنازة الإمبراطور شيان فنغ إلى بكين. بسبب حرارة الجو، تفاوضت تسيشي وسوشون وغيرهم للانقسام إلى طريقتين. سوشون لم يفكر كثيراً في هذا ووافق.

ومع ذلك، عندما وصلت تسيشى إلى بكين، أمرت باعتقال ثمانية وزراء. تم سجن دوانهوا وزاي على الفور. بعد ذلك، أرسلت تسيشي رينشو ويان لاعتقال سوشون وآخرين حتى ذلك الوقت كانوا يجهلون كل شيء. بهذه الطريقة، تم تقييد سوشون في نوم هادئ. بعد أن استيقظ، كان يكره إهماله الخاص والتقليل من أهمية تسيشي. وسرعان ما تم إعدام سوشون ودوانهوا وزاي من بين الوزراء، وتم نفي الخمسة الباقين.

هذا هو الشهير «انقلاب كسينو» في التاريخ.

من خلال هذا الانقلاب، تسيشي سيطرت تدريجياً على سلطة السلالة. في عام 1862، تم تغيير اسم العصر إلى تنغ جين، هذا يعني أن حكمت الإمبراطور الأرملة والإمبراطور معاً البلد.

ومنذ ذلك الحين، جلست خلف الإمبراطور الشاب وبدأت حياتها السياسية في الستارة.

179
حركة التغريب بقيادة لي هونغ تشانغ

بعد هذا الانقلاب في القصر، دعونا نواصل التركيز على المشاكل الخارجية.

تُفتح البوابة الوطنية بعد حربان الأفيون بالبريطانيين والتي كانت مغلقة منذ فترة طويلة، وبدأت أسرة تشينغ تدخل إلى النظام العالمي الذي وضعته الدول الغربية خطوة بخطوة مهما كانت هذه العملية مؤلمة ومتعرجة.

يمكن أن نصف هذا النوع من الألم والتعرج باستخدام استعارة.

نعم، لقد تم حبسك في البلاد المغلق لفترة طويلة، فأنت مغمور في الكتب الأربعة (رسالة العلم الكبير، رسالة المحجة الوسطى، كتاب الحوار، كتاب منفوشيوس) وأمهات الكتب الخمس (كتاب الأغاني، كتاب التاريخ، كتاب الطقوس، كتابة تقلبات الزمن وحوليات الربيع والخريف) في فنائك، مغمور في شعر التانغي وسي (نوع من الشعر) لأسرة سونغ، مغمور في الفلسفة المثالية الكونفوشية لأسرتي سونغ ومينغ، مغمور في كلاسيكيات الكونفوشيوسية في عهد الإمبراطور كانغشي وتشيان لونغ، مغمور في الحلم المستحيل، وتعتقد أن هذا الفناء هو العالم كله. ومع ذلك، فتحت الأبواب الخشبية للفناء فجأة بعنف، ودخل بعض الناس وهم أقوياء ويحملون البنادق القوية.

قمت في الهلع وأردت إخراجها برمح القوس والسهم، لكن سرعان ما تم إخضاعها.

فتحت الكتب القديمة وحاولت البحث عن المقاومة منها، ولكن سرعان ما أصبت بخيبة أمل، لأن هؤلاء الأشخاص والأشياء لم يتم تسجيلها في الكتاب. كيف تتعامل معها؟

بدأت أن تفهم أنه ما لم تكن أقوى منهم، يمكنك طردهم تدريجياً. ومع ذلك، كيف يمكن أن تكون أقوى، لا يمكنك تجاهل البندقية في أيديهم. إذا استطعت صنعها، فهل هناك أمل؟

هذه الاستعارة صعبة للغاية، ولكن يمكن دائماً ملاحظة أن عقلية الناس في ذلك الوقت قد تغيرت. النهوض بعد الألم ضروري. وكيف ينهض؟ ما هو الطريق للنهض؟ هذا هو ادعاء وي يوان في «سجلات وخرائط العالم» بأن على الصينيين البدء بتقليد الغرب وصنع السفن والقطارات والآلات والمدافع. يأملون في الاعتماد على الذات والبحث عن الثروة بهذه الطريقة، ثم يستطيعون قمع الغرب.

ها هو حركة التغريب المشهورة في التاريخ. بدأ الصينيون أن يتخذوا الخطوة الأولى في السعي وراء القوة. هل يمكن أن ينجحوا في هذه الطريقة؟ دعونا نلقي نظرة على قصة لي هونغ تشانغ لنعرف.

لي هونغ تشانغ، من أهالي خفى في مقاطعة آنهوي، وكان مجازاً في الفحوص الإمبراطورية في السنة السابعة والعشرين من حكم الإمبراطور داوجوانغ، وعمل لاحقاً كمستشار في المكتب الرسمي لقيادة تسنغ جوفان، وبسبب قدرته ومواهبه في الحكم، كان تسنغ جوفان يهتم به كثيراً. لذلك، أوصى تسنغ جوفان أن يكون حاكم جيانغسو. بعد أن تولى لي هونغ زانغ منصبه، قام بتجنيد 7000 شخص من هوايونغ، وأسس جيش هواي، وقام بتدريب فريق المدافع الأجنبي الذي كان بذل جهود كبيرة في قمع مملكة تايبينغ السماوية.

على الرغم من قمع مملكة تايبينغ السماوية، والمشكلة الداخلية انتهت، ولكن المشاكل الخارجية لا تزال موجودة، وفهم لي هونغ تشانغ لهذا الأمر فهماً واضحاً.

في عام 1872، في شهر مايو من السنة الحادية عشرة لحكم الإمبراطور تونج تشى، قدم لي هونغ تشانغ المذكرة إلى العرش فيها ذكر أن الدول الغربية قد انتقلت من الهند إلى بحر الجنوب ودخلت الصين من بحر الجنوب، وهذا شيء لم يتم تسجيله في التاريخ القديم. لقد تجمعوا في الصين، الأمر الذي أدى إلى تغييرات كبيرة لم تشهدها الصين منذ ثلاثة آلاف سنة، وكيف يواجه هذا التغييرات؟

الجواب والاقتراح الذي طرحه وي يوان.

عندما تم قمع جيش تايبينغ، أدرك لي هونغ تشانغ قوة المدافع الأجنبية. لذلك، فهو متحمس للغاية حول التغريب. وأراد إنشاء ترسانته الخاصة. في رأيه أن مع كمية كبيرة من الأسلحة

والذخائر في متناول اليد، له قدرة مقاومة على الدول الغربية. في هذه اللحظة، قال رجل إنجليزي، ماجري، للي هونغ تشانغ إنه يستطيع مساعدته في إنشاء مصنع وصنع الأسلحة.

يسر لي هونغ تشانغ هذا الخبر كثيراً، تحت إشراف ماجري، نفق لي هونغ تشانغ 40 ألف فضة في بناء إدارة التصنيع جيانغنان، وبدأ إنتاج البنادق والمفجرات والقنابل اليدوية ومدافع الهاون وغيرها. مع أخذ ذلك كنقطة انطلاق، أنشأ لي هونغ تشانغ مكتب ترويج الاستثمار في البواخر، كما اشترى السفينة الحديدية، وأنشأ المدرسة البحرية، وأنشأ التلغراف بين الجنوب والشمال إلخ.

بقيادة لي هونغ تشانغ، والوزراء الآخرون متحمسون لحركة التغريب. على سبيل المثال، أنشأ تسنغ جوفان معهداً للذخائر الداخلية، وأنشأ تسوه تسونغتانغ إدارة السفينة، وأسست تشانغ زه دونغ مصنع البنادق ومصنع الحديد لمدينة هانيانغ وبدأ في بناء السكك الحديدية. فإن هذا العصر يتغير باستمرار، أسرة تشينغ في حالة التأخر لفترة طويلة، لذا كل الأشياء الأجنبية بديعة، حتى إلى قدر لا يُصدق. وبهذه الطريقة، بدأت الصناعة الوطنية الصينية تنبت، وأطلق على أولئك الذين بنوا الصناعات الوطنية اسم مجموعة التغريب.

كتب لي هونغ تشانغ عملية إدارة التصنيع جيانغنان بالتفصيل في المذكرة إلى العرش، فبعد قراءة تسيشي (الإمبراطورة الأرملة)، كانت سعيدة للغاية وقدمت له مكافأة كبيرة. في المقابل، من أجل تسمير لي هونغ تشانغ في مكانه ومنعه من التمريد، كما أن سيكسي استقطبت الأمير غونغ، وأيدته في بناء المصنع.

بالإضافة إلى ذلك، يعد أكبر إنجاز لي هونغ تشانغ هو التخطيط لإنشاء سلاح البحرية في منطقة الشمال (تسمى أيضاً ببيانج) (بوهاي، البحر الأصفر، بالقرب من شبه الجزيرة الكورية) لأسرة تشينغ.

في عام 1875، أُمر لي هونغ تشانغ بإنشاء سلاح البحرية. واشترى سفينتين من سفن الحديد بسعة 7000 طن وسبع طرادات تزن 3000 طن من الدول الغربية، ثم اختار بناء قواعد بحرية في لوشون ويهاي وسرعان ما أنشأ دار الولاية لسلاح البحرية، وقد أدت هذه إلى تحسن كبير في القوة البحرية لأسرة تشينغ.

بعد ذلك، كان لي هونغ تشانغ متحمساً لحركة التغريب وأسس سلاح البحرية، ما مدى فعالية مقاومة غزو الأعداء الأجانب؟

الجواب مؤسف للغاية.

في عام 1894، أصاب سلاح البحرية التي أسسه لي هونغ تشانغ بنتيجة الفشل بشكل عام.

180

غرق أسطول بيانج في يهايوي

وقعت تلك المعركة البحرية في عام 1894، أي السنة العشرين من حكم الإمبراطور جوانجكسو، وكانت الجذور السماوية والفروع الأرضية جياو، لذلك سميت بالحرب معركة جياو. إن التقويم القمري لهذا العام في 10 أكتوبر هو عيد الميلاد الستين من تسيشي.

لذلك، منذ شهر فبراير، كانت المدينة مشغولة. دخل الموظفون الرسميون من جميع المقاطعات إلي العاصمة للاحتفال بعيد ميلادها، وتم بناء عشرات الأميال من البوابة الغربية إلى القصر الصيفي مع عدد لا يحصى من سقيفة المصباح. سيتم تحديث المناظر المنعشة على طول الطريق واحدة تلو الأخرى، تجميل بعض الزينة، وإنشاء المذبح، يرجى اللاما يرددون، وقم بإعداد مذبح، اللاما تلا الكتاب المقدس فيه. كما إنشاء مسرح لعب فرقة تمثيل عليه، إن هذه الأيام مهمة بالنسبة إلى المواطنين. ومع ذلك، وراء هذا الازدحام هو الفضة البالغة، استعداداً لهذا الاحتفال بعيد الميلاد، خططت سلالة تشينغ في الواقع لتخصيص 30 مليون فضتين كالاعتماد. ولكن هذا الازدحام المكثف لا يمكن أن ينتهي إلا بشكل مفاجئ في شهر يوليو.

لأن الحرب الصينية اليابانية عام 1894 اندلعت.

في 1 أغسطس من هذا العام، أعلنت الصين واليابان الحرب. على الرغم من إعلان الحرب في هذا اليوم، إلا أن الحرب بدأت بالفعل في 25 يوليو. في الصباح الباكر من ذلك اليوم، غرقت السفن الحربية اليابانية بشكل علني قاوشنغ (اسم السفينة)، الذي حملته تيانجين إلى كوريا الديمقراطية. بعد ذلك، غزت أربعة آلاف من الجيش الياباني فجأة في جيش تشينغ المتمركزة في آسان. لسبب ذلك، كان على سلالة تشينغ أن تعلن الحرب على اليابان.

في 17 سبتمبر 1982، واجه أسطول بييانغ الأسطول الياباني المشترك في البحر الأصفر، وأطلق الجانبان معركة شرسة. في هذه المعركة، خسر جيش تشينغ خمس سفن حربية. هم تشى يوان، جينغ يوان، تشاويونغ، قوانغجيا ويانغوي، من بينها، كان تشى يوان وجينغ يوان الأكثر مأساوية. في المعركة الشرسة، أطلق تشيوان النار، وحمّس رئيس السفينة دنغ شيتشانغ الضباط والجنود ويقول: وبما أننا اخترنا أن نكون جيشاً لحماية بلدنا، فقد وضعنا الحياة جانباً واليوم، لا يمكننا إلا الدفاع عن بلدنا بالموت، لذا قرر مهاجمة سفينة العدو ومات بنفس الطريقة، لكن للأسف غرق بواسطة الطوربيد. غرقت السفينة ودنغ شيتشانغ سقطت في البحر. أراد أتباعه لإنقاذه، ولكن رفض دينغ شيتشانغ بحزم.، في اللحظة الأخيرة من حياته، قال إنني قررت قتل العدو وخدم البلاد، واليوم، توفي في البحر، وهذه هي ممارسة هذا الطموح.

بعد ذلك، غرق في الأمواج.

وتبادلا النار بين سفينة جينغ يوان الصينية وسفينة تشيتشنغ اليابانية، أصابت سفينة جينغ يوان بالرصاصة وأصبح حريقاً، رئيس السفينة اللين يونغ شنغ أراد الاندفاع إلى سفينة العدو، وقتل العدو ومات معهم، ولكن غرق في النيران، أكثر البريئة على الغرق هو يانغ ويى، وقد تم جنح، ولكن تم ضربها من قبل جبيوان، مع العلم الأبيض الخاص بها، تسببت في غرق السفينة، كانت سفينة حربية أخرى، قوانغجيا، في الطريق الهارب صدمت إلى حجر الجزيرة ويجري غرقت من الألغام.

غرقت خمس سفن حربية من هذا القبيل. في معركة البحر الأصفر، تكبدت البحرية بييانغ خسائر فادحة. في ذلك الوقت، كانت العاصمة مشغولة لأيام ميلاد ستين من تسيشي، بعد سماع الأخبار، كل الناس في الحال المذهل، اتهم جميع الوزراء لي هونغ تشانغ من سوء الأداء في التغريب، وكان منزعج للغاية الإمبراطور جوانجكسو، أمر لي هونغ تشانغ لتحمل مسؤولية صارمة. في مواجهة هذه الهزيمة، كيف يمكن استردادها؟

قررت لي هونغ تشانغ للتفاوض.

أدار لي هونغ تشانغ سلاح بييانغ منذ سنوات عديدة، ولم يستطع تحمل أي ضرر، لذلك أمر ببحرية بييانغ بالانتظار في حصن ويهايوي، وعدم الذهاب إلى البحر لمقابلة العدو. في وقت لاحق،

أرسل لي هونغ تشانغ الناس إلى اليابان للتحضير للتفاوض ومع ذلك، فإن اليابان لم تتوقف عن الغزو.

في يناير 1895، أرسلت اليابان 25 سفينة وغزت يهايوي علنا، قاعدة سلاح البحرية لبييانغ.

غزا الجيش الياباني الصين، وتوقف سلاح البحرية في الميناء. كان دينغ يوتشانغ، كبير ضباط الجيش، بعد رؤية هذه الحال، قلقاً ولم يستطع المساعدة. في هذه المرحلة، كان هو والوزارة ليو بو تشن قد قررا تعايشاً بالفعل مع الأسطول. عندما رأى الجيش الياباني السفن الحربية في ميناء ويهايوي، كانوا أكثر تغطرساً، وسرعان ما احتلوا ويهايوي وبدأوا بقصف السفن الحربية. في ذلك الوقت، غرقت سفينتان حربيتان من وى بيوان ولانع بيوان، وأطلقوا النار في السفينة دينغيوان. في مواجهة هذا المشهد المرير، كان دينغ شوشانغ جاهزاً للقتال من أجل القتال، ولكن قاومه نيو بينغزين. سحب حتى نيو بينغزين السكين وأجبر دينغ شوشانغ على الاستسلام لليابانيين.

كان دينغ شوشانغ حزيناً وغاضباً شديداً، ويختار الانتحار.

في هذه المرحلة، أجبر بعض الضباط والرجال من ليو بوزين وجيوشه على الاستسلام. رفض ليو بوزين، لكنه فهم أن الاتجاه العام قد ذهب وأنه لم يتمكن من إنقاذ الوضع العام. من أجل تجنب سقوط السفينة الحربية في أيدي اليابانيين، أمر بتفجير سفينة حربية دينغيوان. التي كان يشرف عليها في ألمانيا وكان يقودها. مجرد الاستماع إلى «فرقعة» ضوضاء عالية، غرقت دينغيوان. عندما تم تفجير دانجيوان، اختار ليو بوزهن الانتحار.

توفي دينغ شوشانغ، وتوفي ليو بوزين.

انتهى أسطول بييانغ بقيادة لي هونغ تشانغ بالفشل. تنهد ليانغ تشيتشاو مع الحزن في «السيرة لي هونغ تشانغ»: في عصر المعارك البحرية، لا يوجد صوت أشرعة على البحر الصيني، وكيف يمكن الدفاع عن البلاد. في 17 أبريل 1895، وقع لي هونغ تشانغ على «معاهدة شيمونوسيكي» مع اليابان. تتضمن المعاهدة التعويض والتنازل والتجارة المفتوحة وما إلى ذلك. الجزء الأكثر إيلاماً من ذلك هو التنازل عن تايوان إلى اليابان. وبهذه الطريقة، تبادل لي هونغ تشانغ وتسيشي سلاماً مؤقتاً بثمن باهظ، ولكنه دفع الصين خطوة بخطوة نحو الهاوية.

181
الإصلاح القانوني في عام وو شو

في الحرب الصينية اليابانية، كانت عملية لي هونغ تشانغ لبحرية بييانغ فاشلة، مما يعني أن الخطوة الأولى للتحسين الذاتي لسلالة تشينغ كانت تعاني من الاختناق.

لماذا فشلت حركة التغريب؟

في «سيرة لي هونغ تشانغ»، ليانغ تشيتشاو يعتقد أن لي هونغ تشانغ يعرف فقط أن التغريب أمر مهم، لذلك فهو ملتزم بالتغريب، لكنه لا يعرف أن هناك أيضاً مشكلة داخلية. في الدولة إذن ما هي مشكلة في الدولة؟

في نظر ليانغ تشيتشاو، فإن مشكلة الدولة هي أكثر أهمية من الشؤون الخارجية، في حين أن المشكلة في الدولة هي لتوضيح ما هو البلد؟ العلاقة بين الدولة والسلالة؟ سلطة كل من السلالة والشعب؟ واجبات وزارية؟ فقط من خلال فهم هذه يمكن أن نعرف أسباب ازدهار الدول الغربية. ومع ذلك، لاحظ لي هونغ تشانغ فقط الأسلحة والبنادق والقوارب والآلات، لكنه تجاهل العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية الخفية وراءها.

على الرغم من أن كلمات ليانغ تشى تشاو متشابكة إلى حد ما، فلا يمكن القول إنها تعليق عادل على لي هونغ تشانغ.

تظهر معركة جياو أنه من المستحيل تعلم التكنولوجيا الغربية فقط، هذه مجرد ثورة في السطح. في هذه المرحلة، كان على الصينيين أن يبقوا أعينهم مفتوحة، ولا يسعهم إلا البدء بالتفكير في ما وراء هذه المهارات الطويلة؟ تدريجياً، وجدوا أن المدافع، والبنادق، والبوارج ليست سوى

فروع وأوراق، والعمود الفقري لهذه الفروع والأوراق هو السياسية والاقتصادية والثقافية التي يمكن أن تتكيف مع اتجاه العصر.

إذا كنت تريد أن تعتمد على نفسك، فيمكنك الانتقال إلى أبعد من ذلك.

وعلى أي حال، فإن عصر وي يوان قد انتهى، وسوف ينتهي عهد لي هونغ تشانغ، وسوف يتم فتح حقبة كانغ يوي وليانغ تشيتشاو قريباً، ففكرهما أكثر عمقاً بكثير، ولا يجب أن يتعلم التكنولوجيا الغربية فحسب، بل يتعلم السياسة الغربية أيضاً. هل يمكن أن يساعد ذلك أسرة تشينغ في التغلب على الصعوبات؟

دعونا نواصل الحكاية.

وقع لي هونغ تشانغ واليابان على «معاهدة شيمونوسيكي» التي صدمت شعب البلاد. تجمع آلاف الأشخاص برئاسة كانغ يوي وليانغ تشيتشاو أمام المحكمة لتقديم المذكرة إلى العرش، وطالبوا برفض التوقيع على المعاهدة. في وقت لاحق، كتب كانغ يويي عريضة أخرى بعنوان «الرسالة إلى الإمبراطور»، وطلب من الإمبراطور جوانجكسو الإصلاحات القانونية. وما نجح. وقد رأت تسيشي هذه المذكرة ولم تسمح للإمبراطور جوانجكسو برؤيتها. ومع ذلك، بعد هذا الحادث، أصبح كانغ يوي وليانغ تشى مشتهرين، كما تم دعم إصلاحاتهم المقترحة من قبل العديد من الناس، لذلك أطلق عليهم اسم الإصلاحيين. بسبب غوانغكسو لم يرد على رسائلهم، ولم يتم إعاقتهم، فقد كتبوا أربع مذكرات متتالية. وأخيراً، رأى الإمبراطور جوانجكسو المذكرة. إنه يؤيد بشدة الإصلاح الدستوري، وهي فرصة جيدة لإعادة تنشيط أسرة تشينغ، ويمكن أن تنتهز الفرصة لاستعادة السلطة السياسية من تسيشي.

عندما علمت تسيشي أن جوانجكسو قرر الإصلاحات القانونية، لم تعارضه، وقالت فقط طالما أنه لا ينتهك نظام الأجداد، يمكنه إصلاح القانون. ولماذا وافقت تسيشي على ذلك، فإن صوت الإصلاح مرتفع للغاية، وعليها أن تتحرك في اتجاه المجرى، والثانية أن للإمبراطور جوانجكسو في سيطرتها.

أعلنت تسيشي انسحاب الستار، وبعد عودة السلطة الملكية، أمر الإمبراطور جوانجكسو على الفور الإعلان عن الإصلاح.

في الحادي عشر من يونيو عام 1898، أصدر الإمبراطور جوانجكسو نصاً للترويج للإصلاح. كان هذا العام في الجذوع السماوية والفروع الأرضية هو وو شو، لذلك كان يسمى هذا الإصلاح إصلاحاً قانونياً لعام وو شو.

استدعى الإمبراطور جوانجكسو كانغ يوي، واستمع إلى أفكاره المفصلة عن الإصلاحات، وعينه رئيس الديوان للوزراء، الذي يمكنه استخدام المذكرة الخاصة إلى العرش للإبلاغ عن الشؤون الحالية. في وقت لاحق، أمر الإصلاحيين، تان ييتونغ، يانغ روي، ليو قوانغدي، ولين شو، ليكون مسؤولاً عن صياغة أوامر الإصلاح. يشمل هذا الإصلاح الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية والتعليمية. أساساً لتعلم من الدول الغربية لتحقيق هدف تعزيز البلاد وتقوية الجيش، وتشمل المحتويات إلغاء وزير العدل والدواوين التافهة الأخرى، ويسمح للإنسان العادي أن يقدم رأيه إلى الحاكم، وإلغاء امتحان بطريقة بان قون (النوع من الامتحان في أسرتي مينغ وتشينغ، الفحص من ثمانية أجزاء)، وإقامة قاعة جامعة بكين للمعلمين في بكين، وإنشاء الإدارة العامة للألغام الحديدية وغيرها.

في الواقع، يمكننا أن نرى أن هذا الإصلاح لا يزال سطحياً ولا يفشل في تعميق إصلاح النظام السياسي، إلا أن هذه المحتويات فقط قد لمست العديد من الشخصيات البارزة ومصالح العلماء. علاوة على ذلك، فإن الإصلاحيين يعلقون آمالهم على إجراء إصلاحات على الإمبراطور جوانجكسو الذي لا يملك قوة حقيقية، وموجهاً إلى مصير الفشل النهائي.

لم تكن تسيشي، عاشت في القصر الصيفي مع حياة الغناء والرقص، راضية.

تسيشي تشعر بالقلق من أن جوانجكسو ستحتكر السلطة. كما العديد من العاملين يشجعوا الإعادة إلى السلطة السياسية، قررت استعادة النظام ومنع الإصلاح. قامت تسيشي بإزالة منصب ونج تونج وهو معلِّم للإمبراطور جوانجكسو، وعيّنت المؤيد رونغلو 总督 رئيساً، مما جعل العاصمة بأكملها تحت سيطرة رونغلو.

يفهم جوانجكسو قصد تسيشي بالتأكيد. هي أكبر عقبة على الطريق لإصلاحات، وكيفية الابتعاد؟

أصدر الإمبراطور جوانجكسو النص السري، مما يسمح للإصلاحيين لمناقشة التكتيك المعين. اقترح تان بيتونغ أن تعاون مع يوان شيكاي، الذي يملك القوة العسكرية، للسماح له بالقيام بانقلاب عسكري ووضع الإقامة الجبرية لتسيشي في 5 سبتمبر.

لذلك، في منتصف الليل الثالث من أغسطس، جاء تان بيتونغ سراً إلى معبد فوهوا حيث عاش يوان شيكاي. ودهش يوان كثيراً، وهو يريد سبب زيارته.

وأعرب تان بيتونغ عن سببه وكما طلب يوان شيكاي بالوضع الإقامة الجبرية لتسيشي عند يستعرض جوانجكسو في تيانجين.

تفكر يوان شيكاي والمتفق عليه. وأشار أيضاً إلى السماوات والأرض أن أقسم: كشاهد للسماء، سوف يتابع يوان دائماً الإمبراطور حتى الموت.

قال تان بيتونغ مسروراً، من خلال مشاركتك، هذا الأمر قريب من النجاح، خطتنا هي قتل رونغلو أولاً، ثم إرسال قوات لإجبار تسيشي على العودة إلى قوة السياسة. إن قوة رونغلو قوية وليس من السهل التعامل معها.

وقال يوان شيكاي بثقة، قتل رونغلو أمر سهل.

لذلك، وافق الطرفان على طريق السير، وعاد يوان شيكاي أولاً إلى تيانجين لترتيب القوات، ورد تان بيتونغ في وقت لاحق. ومع ذلك، وبعد مغادرة تان سيتونغ، عاد يوان شيكاي، الذي وعد بالفعل، على الفور إلى تيانجين ليقدم تقريراً إلى منزل رونغلو في المساء، وتم الحديث عن جميع خطط الإصلاحيين.

عرف رونغلو، عرفت تسيشي.

في صباح يوم 21، عجلت تسيشي مرة أخرى إلى القصر الإمبراطوري، وغضبت غضباً شديداً ثم وضعت جوانجكسو تحت الإقامة الجبرية. ثم أمرت بالقبض على تسعة ممثلين للإصلاحيين. حصل كانغ يوي وليانغ تشيتشاو على أخبار وفروا إلى اليابان. لكن اختار تان سيتونج البقاء، وقال بحماسة إن هناك تضحيات في إصلاحات الدول المختلفة، والصينيون ما بذلوا كل ما يستطيعون، يرجى البدء بنفسه.

بسبب خيانة يوان شيكاي، كان أعضاء الإصلاح الستة قُتلوا في يوم 28 سبتمبر في مدينة بكين. بدأت حركة الإصلاح القانوني في عام 1898 تماماً من 13 أبريل إلى 6 أغسطس، وتمت مراجعتها خلال 103 يوماً، لذلك تم استدعائها من قبل العالم: إصلاح مائة يوم.

182

أنشأ صن يات سين جمعية التحالف

أعلنت كل من حركة التغريب وحركة الإصلاح في عام 1898 الفشل، وتحطمت المحاولة لإنقاذ أسرة تشينغ. فأين تذهب السفينة الفاسدة لأسرة تشينغ؟

هل تقطعت بهم السبل وغرقت؟

في ذلك الوقت، كانت المشاكل الخارجية أكثر خطورة. في 2 يونيو 1900، شكلت الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا وفرنسا وألمانيا واليابان وإيطاليا والدول الثمانية هجوماً ائتلافياً على بكين. دخلوا تيانجين من داغوكو، وأحرقوا ونهبوا، ثم استمروا. في هذا الوقت، كانت تسيشي، الشخص الأكثر شرفاً من أسرة تشينغ، تتظاهر بأنها امرأة قرية، وفرت إلى شيآن مع الإمبراطور جوانجكسو. بعد دخول قوات التحالف بكين، استمروا في النهب. والكثير من التحف النادرة في القصر الصيفي والقصر الإمبراطوري سُرقت. وقد تحولت العديد من لوحات المشاهير والكتب الثمينة إلى رماد في النار.

كيف تواجه أسرة تشينغ هذه الظاهرة؟

أرسل تسيشى لي هونغ تشانغ للتفاوض مع مجموعة الثماني. في 7 سبتمبر 1901، وقعت سلالة تشينغ على المعاهدة الأكثر إهانة منذ حرب الأفيون. وتسمى هذه المعاهدة بروتوكول الملاكمين. تسبب توقيع «بروتوكول الملاكمين» على سلالة تشينغ في الغرق استمراراً.

ليس هناك الكثير من المشاكل الخارجية فحسب، بل هناك أيضاً طبقات من القلق الداخلي. يتم إضافة التعويض الثقيل إلى الناس، بحيث يكونون بائسين، لا بد أن يقاوموا هذه الظاهرة، يفهمون

أن الإصلاح القانوني ضروري، ولكن، هل يمكن استعادة الوقت الذي تأخر في حركة التغريب وحركة الإصلاح في عام 1898؟

هذه المرة، كانت وتيرة التقدم في سلالة تشينغ سريعة للغاية، وتم فتح التاريخ:

في عام 1905، أرسلت سلالة تشينغ زي فنغ وخمسة وزراء آخرين إلى الخارج لاستطلاع السياسة الدستورية كما الاستعداد للصياغة الدستور. في عام 1906، أصدرت تسيشي الأمر من الاستعداد لنسخ الدستور. في عام 1907، تم إعداد هيئة الدستورية التحضيرية؛ في عام 1908، أكدت تسيشي شخصياً المخطط الدستوري. في عام 1909، أمرت المقاطعات بإنشاء المجلس الاستشاري. في عام 1910، افتتح المجلس الاستشاري. في عام 1911، تم تعيين مجلس الوزراء.

وهذه الإجراءات ترتبط ارتباطاً وثيقاً، ولكن هناك العديد من التأخيرات في حركة التغريب وحركة الإصلاح. ومن المتوقع أن تكون أسرة تشينغ غير قادرة على إكمال هذه السياسة الجديدة، فهي تأمل في مواصلة حياة السلالة، ولكن فقط للحفاظ على الحياة. لأن حرارة الثورة على وشك الإشعال، تحولت أسرة تشينغ إلى رماد.

هذا هو السباق.

فشلت أسرة تشينغ في النهاية، ولم تكن خطوتها قادرة على اللحاق بخطوة الثورة.

في عام 1911، اندلعت انتفاضة ووتشانغ واضطرت أسرة تشينغ إلى السير في المرحلة التاريخية. واضطرت أسرة تشينغ إلى الخروج من مسرحة التاريخ. أدناه، نبدأ الحديث عن كيف اشتعلت هذه النار الثورية. الشخص الذي رفع راية الثورة هو صن يات سين.

صن يات سين، ولد بمقاطعة شيانغشان. عندما كان طفلاً، كان يهتم بشؤون الدولة. وهو غضب بغزو البلدان الغربية وفكر باستمرار في طريقة لإنقاذ الأمة. في عام 1894، وكان هو عام معركة الحرب الصينية اليابانية، كتب صن يات سين نتائج أفكاره كـ «كتاب إلى لي هونغ تشانغ» المكون من 8000 كلمة، مطالباً الإصلاح ولكن غير معتمد. من المعروف أن كانغ يويي اختار أن يواصل الكتاب بعد أن فشل في المرة الأولى التي كتب إلى العرش، وكان يريد أن يسلك طريق

الإصلاح، ولكن بعد أن كتب صن يات سين الكتاب، شعر بخيبة أمل من سلالة تشينغ ويختار طريق الثورة.

في خريف هذا العام، ذهب صن يات صن إلى هونولولو لتأسيس جمعية إحياء الصين. ورفع شعار الثورة وإعلان الحرب على سلالة تشينغ. هذا الطريق أكثر صعوبة وليست سهلة. بعد فشل انتفاضة قوانغتشو في عام 1895، قال بحزن شديد: كثير من الناس يعتبرونه لصاً فوضوياً، تمرد كبير، لعنة، ولا نهاية لها. كثير من الناس يعتبرونه خائناً ويلعنونه. ومع ذلك، حتى لو كان هناك لعنة، هناك سب، يختار أن يتقدم إلى الأمام.

تحت قيادة صن يات سين، أسس هوانغ شينغ وسونغ جياورين جمعية هواكسينغ. أسس تساى يوان بى وتشانغ تايان جمعية الترميم، وأسس سون وو جمعية المعروف الغربي. بدأت نار الثورة تنتشر. يدرك صن يات سين أنه إذا كان للثورة أن تفوز، فإن توحيد الوطنيين الثوريين وتشكيل جبهة موحدة. لذلك بدأ في تأسيس منظمة ثورية موحدة.

في يوليو 1905، سافر صن يات سين إلى اليابان للقاء هوانغ شينغ، أحد قادة لجمعية هواكسينغ، اقترح باندماج هواكسينغ وجمعية إحياء الصين، ووافق هوانغ شينغ. وفي وقت لاحق، وفي إطار الدعوة النشطة لهوانغ شينغ وسان يات سين، دعت مجموعات ثورية أخرى بالإجماع إلى إنشاء جبهة موحدة.

في 20 أغسطس 1905، اجتمع قادة مختلف المجموعات الثورية في طوكيو. يتم جمعية التحالف الثوري الصيني، انتخب الاجتماع صن يات سين كرئيس الوزراء. كما حددوا الشعار «الإطاحة بأسرة تشينغ، إحياء الصين، إقامة الجمهورية، توزيع الأراضي على قدم المساواة بين الناس» الذي طرحه صن يات سين كصدد وبرنامجهم.

تم إنشاء جمعية التحالف الثوري الصيني وفقاً لمبدأ الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ولها خمسة فروع، تقع في شنغهاي وهونغ كونغ وهونولولو. من أجل تعزيز اقتراح ثوري خاص بها، أنشأت جمعية التحالف الثوري الصيني صحيفة رسمية: «صحيفة الشعب». في «كلام» شرح صن يات سين برنامج جمعية التحالف الثوري الصيني وطرح مبادئ الثورة الثلاث. مبادئ الشعب الثلاثة هي: الوطنية وسيادة الشعب والاشتراكية أو رخاء المعيشية.

الوطنية بشكل كامل هي الإطاحة بأسرة تشينغ، إحياء الصين، وسيادة الشعب بشكل كامل هي إقامة الجمهورية، ورخاء المعيشية بشكل كامل هي توزيع الأراضي على قدم المساواة بين الناس.

منذ ذلك الحين، بدأ مفهوم الجمهورية الديمقراطية في اختراق قلوب الناس.

183

انتفاض وتشانغ

طرح صن يات سين شعاراً: الإطاحة بأسرة تشينغ، إحياء الصين. وبعبارة بسيطة، هي للإطاحة بأسرة تشينغ من خلال الثورة. لذا، هل تعرف ما هي التضحيات التي قدمها عدد لا يحصى من الناس في هذه الثورة؟

نبدأ برسالة.

كانت ليلة 24 أبريل 1911، والمناطق المحيطة هادئة، ولم يكن صوت سوى صوت الأنهار خارج المبنى. في مثل هذه الليلة، الشاب لم يستطع النوم. يمشي إلى النافذة، مصحوباً بصوت الماء، وكتب رسالة إلى زوجته تشن يينغ. في الرسالة، يقول: أريد أن أعيش معك حتى أموت. ولكن لا يسمح الوضع. وكما ترين، يمكن للكوارث الطبيعية أن تجعل الناس يموتون، ويمكن للصوص أن يجعلوا الناس يموتون، وأن تقسيم القوى الصينية يمكن أن يجعل الناس يموتون، ويمكن للمسؤولين الفاسدين أن يخنقوا الناس ويقتلوا الناس. لقد ولدنا في مثل هذه الصين، نعيش فيها، هذه الصين، ولكن يموت الموطن فيها أي وقت. لا أستطيع أن أرى هذه الظاهرة.

نعم، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، لذا عليه أن يقاتل ويغير البلد الذي مات المواطن طوال الوقت.

بعد الكتابة، وضع الشاب قلماً، ونفخ الشمعة، وذهب للنوم بسلام. بعد ثلاثة أيام، شارك انتفاضة قوانغتشو الثانية المعروف باسم «ثورة تل الزهور الصفراء» التي أطلقتها جمعية التحالف الثوري الصيني، للأسف التضحية. دُفنت عظامه في تل الزهور الحمراء لجبل بايون لمقاطعة قوانغتشو، بعد ذلك، غير اسمه إلى تل الزهور الصفراء. هذا الشاب هو لين جو مين، واحد من 72 شهيداً من تل الزهور الصفراء.

ويدعم دم وعظام لا يحصى من الناس المحسنين خطوة التقدم التاريخي. لقد أطاحت الثورة بأسرة تشينغ أيضاً، فهناك عدد لا يحصى من الناس المحنكين مثل لين جو مين الذين يختارون مغادرة منازلهم ويشرعون في السير على طريق الثورة. إن اطاحة بأسرة تشينغ بثورة نفس شيء، إنهم يريدون فقط خلق عالم جميل والبحث عن السعادة لأولئك الذين يحبون.

مع السعي وراء الخير هذا، بعد تأسيس جمعية التحالف الثوري الصيني، بدأت في إطلاق انتفاضة مسلحة. يمكننا رؤيته في النشاط التالي:

في ديسمبر 1906، انتفاضة بينغ ليو؛ في مايو 1907، انتفاضة هوانغقانغ، في يونيو 1907، انتفاضة بحيرة النساء السبعة؛ في سبتمبر 1907، انتفاضة مدينة تشينليان ومدينة فانغتشنغ؛ في ديسمبر 1907، انتفاضة زينوانوان؛ في مارس 1908، انتفاضة تشين ليان وانتفاضة شانغ سي؛ في أبريل عام 1908، انتفاضة هيكو لمقاطعة يونان؛ في فبراير 1910، انتفاضة جيش قوانغتشو الجديد؛ في أبريل 1911، انتفاضة تل الزهور الصفراء.

لكن متى ستنجح الثورة؟

بعد فشل انتفاضة جيش قوانغتشو الجديد في فبراير 1910، كان صن يات سين والعديد من الوطنيين الثوريين يشعرون بالحزنين، اجتمعوا وفكروا كيفية المضي قدماً إلى الخطوة التالية؟

في أبريل 1911، بدأت انتفاضة تل الزهور الصفراء. في هذه الحملة، جمعت جمعية التحالف الثوري الصيني النخبة الحزب الثورية من المقاطعة المختلفة وتستعد للقتال مرة أخرى. هذه المرة، لا يزال فشل، ولكن الأسلوب الرائع لشهداء 72 في تل الزهور الصفراء هز البلاد. عند هذه النقطة تمايلت أسرة تشينغ. بعد مرور نصف عام فقط على فشل انتفاضة تل الزهور الصفراء، أي 10 أكتوبر 1911، اندلعت انتفاضة وتشانغ.

في هذه المعركة، انهارت أسرة تشينغ. في نفس اليوم، أطلق سون وو وجيانغ ييوو من المعسكر الجديد في وشانغ، هوبى، اللقطة الأولى لانتفاضة وتشانغ. تحت قيادة وو تشاولين وشيونغ بينغكون، توافد جيش الانتفاضة على مكتب حاكم هوبي الذي المتمركز في وشانغ. يعرف الحاكم رويقي أنه يهرب فوق الجدار. تم احتلال مكتب الحاكم من قبل الجيش وتحرير مدينة وتشانغ. منذ أن كان هذا العام هو عام شينهاي، عرفت هذه الثورة أيضاً باسم ثورة شينهاي.

نجاح انتفاضة وتشانغ سرعان ما أشعل الحروب في كل مكان. بحلول نوفمبر، أعلنت 17 مقاطعة في جميع أنحاء البلاد الاستقلال. عند هذه النقطة، أصبح إنشاء سلالة مركزية موحدة مسألة ملحة. في 25 ديسمبر 1911، صن يات سين إلى شانغهاي عن طريق البواخر ورحب بحرارة.

في 29 ديسمبر 1911، حضر 45 نائباً من 17 مقاطعة مستقلة الاجتماع في نانجينغ. كان الموضوع الرئيسي للاجتماع هو إنشاء سلالة مركزية إقليمية. في الاجتماع، وافق الجميع على أن صن يات سين كان أول رئيس إقليمي في تاريخ الصين.

في الساعة العاشرة من مساء يوم 1 يناير 1912، في قاعة مكتب الاستشارة في نانجينغ، الكثير من الناس يأتون، هنا، يقام مراسم تنصيب الرئيس الإقليمي. وكان من بين الضيوف الذين حضروا الاجتماع ممثلين عن المقاطعات وضباط عسكريين وأكثر من عشرة ضيوف أجانب. بدا كلهم بقلق على أمل رؤية بطل مراسم اليوم.

بعد فترة، صن يات سين يخطو إلى القاعة، وأبدى الضيوف على الفور التصفيق الحار. في هتاف "تحيا الجمهورية"، صعد صون يات سين على المنصة وجلس في موقع الرئيس. في هذا الوقت، تم إطلاق التحية الواحد والعشرين وبدأ مراسم التنصيب رسمياً. في الاجتماع، أصدر صن يات سين "الإعلان الرئاسي الإقليمي" للإعلان عن ولادة جمهورية الصين.

بعد أكثر من 30 يوماً، في 12 فبراير 1912، أعلن الإمبراطور سوان تونج عن تنازله.

من الانتفاضة الأولى في مدينة قوانغتشو في عام 1895 إلى ثورة 1911 في عام 1911، بعد ستة عشر عاماً من العواصف، أكمل صن يات سين أخيراً حلم الإطاحة بأسرة تشينغ. وهذا يعني أن نهاية النظام الملكي الذي حكم الصين لآلاف السنين كما يعني أن التاريخ الصيني سيطلق فصلاً جديداً.